أرسكين كالدويل

طريق التبغ



طريق التبغ



للدراسات والترجمة والنشر

الجمهورية العربية السورية

دمشق

بوابة الصالحية ـ دار المهندسين

هاتف ٢٢٨٨٥٥ ـ ٢٢٨٢٥٥

طبعة

كانون الثاني

١٩٨٤

طريق التبغ

للقاص الأميركي الشهير

آرسكين كالدويل

نقلها إلى العربية

منير البعلبكي

مقدّمة

من الجميل أن يلتفت المرء إلى الوراء ، عشر سنوات ، وأن يكون في مقدوره أن يرى كيف استُهلت رواية من الروايات

والواقع ان ذكرياتي عن أولية « طريق التبغ » لا تزال واضحةً نضرة العود .

كان ذلك في وقدة الصيف الشاوية في جورجيا ، تحت هضبة الـ « بييدمونت » ، وكنتُ أتمشى في طريق مغبرّة ، ثلّمتهـا عجلات العربات ، ونبتت على حواشيها الاعشاب البرية .

هنالك كنتُ في مسقط رأسي ، بين القنن الصلصالية المتآكّلة ، والكثبان الرملية المقفرة — أرض عرفتُها عمري كله .

وكانت تحيط بي من أقطاري عناقيد شجرات القطن المتخلفة النمو ، الضامرة ، الشعثاء ، التي تحاول عبثاً أن تحقق وجودها في التربة المستنزفة .

كانت الارض موحشة .

وغير بعيد جداً عبر الحقول كانت عدةٌ من بيوت الاجراء المزارعين ، حقيرة متهدمة ، أكواخ يتألف كل منها من غرفتين ،

ذات دعائم خشبية ملتوية وسقوف منحرفة . وحول البيوت كانت جماعات من الكائنات البشرية . فأما الاطفال فكانوا يلعبون على الرمل ، وأما الشبان والشابات فكانوا متكئين على جنبات المنازل ، وأما العجائز فكانوا قاعدين مجرد قعود . كان كل امرئ منهم ينتظر القطن حتى ينضج . وكان لهم بالقطن ايمان . لقد آمنوا به كما يؤمن بعض الناس بالله . كان لهم إيمان بالارض وبالنبات النامي في الارض . وعلى الرغم من انهم خُدعوا في السنة الحالية ، وطوال سنوات كثيرة قبل ذلك ، فقد كانوا على يقين من ان الحقول سوف تُمطَر وشيكاً ببراعم متعثرة متشققة من قطنٍ أبيض متألق .

ولكني مشيت عبرَ ذلك الدرب نفسه ، وتمهلت محدقاً إلى تلك الحقول نفسها في الخريف الماضي ، وفي عدد من فصول الخريف لستُ أعرفه على وجه الضبط ، ولم أجد أيما رجل جنى مقداراً من القطن من تلك النباتات المتخلفة النمو كافياً لأن يسد حاجته إلى الغذاء والكساء .

ولم يكن من العسير على المرء أن يظل على قيد الحياة أيام الصيف حين يكون الجو حاراً بلسمياً ، وحين تراود رؤيا القطن مخيلات القوم فيتطلعون بأمل وشوق إلى الخريف القادم . وفي ميسور الانسان ان يقع دائماً على ثمر العلّيق ، والبصل البري ، بل وعلى بعض الأرانب أيضاً .

ولكن ما إن يحل الخريف فالشتاء فأوائل الربيع حتى تتغير الحال .

لقد مشيتُ في ذلك الدرب في صميم فصل الشتاء ، ورأيت الناس الجائعين الملتفين بالاسمال البالية يذهبون إلى لا مكان ويأتون

من لا مكان ، ملتمسين الطعام والدفء ، راغبين في ان يعرفوا ما إذا كانت أشياء من مثل الطعام والدفء لا تزال موجودة في بقعة ما من بقاع العالم .

انهم لم يلتمسوا شيئاً أكثر من الغذاء الكافي لأن يُمسك عليهم الحياة حتى مطلع الربيع ، بحيث يكون في ميسورهم أن يزرعوا القطن للموسم الجديد .

وكان لهم من الايمان بالطبيعة ، بالارض ، وبالنبات الذي في الارض ، ما جعلهم لا يفهمون كيف يمكن للارض أن تخونهم أو تخيب رجاءهم .

ولكنها خانتهم وخيبت رجاءهم ، فاذا هم في أماكنهم يسلخون صيفاً جديداً في انتظار حصاد خريفي لن يأتي أبداً .

لقد وقع ذلك كله مرةً من قبل .

لا لهؤلاء الناس أنفسهم ، بل لآبائهم وأجدادهم .

فقد رأى آباؤهم وأجدادهم التبغ يأتي ويزدهر على هذه الرقعة عينها من رقاع الارض .

ولكنه يأبى ، بعد موسمه ، أن ينمو في التربة المستنزفة .

وظلت الارض مهملة عدة سنوات .

ثم جاء القطن .

ونما القطن وازدهر أجيالاً متعددة ، ثم عاد هو بدوره فاستنزف طاقة الارض ، فهو لا ينمو فيها بعد .

التبغ أولاً ، ثم القطن . إن كلاً منهما قد جاء وذهب .

ولكن الشعب ، وايمان الشعب بقيا .

ارسكين كالدويل

١

كان لوف بنسي يتخذ سبيله ، متثاقل الخطى ، إلى المنزل ، عبر طريق التبغ المغطاة بالاخاديد وبالرمل الابيض العميق ، وقد حمل على ظهره كيساً من لفت الشتاء . لقد كلفه الحصول على ذلك اللفت كثيراً من البلاء ، واقتضاه ان يجوز الطريق الطويلة المتعبة كلها حتى « فولر » ، ذهاباً واياباً .

ذلك بأن لوف سمع في اليوم السابق ان رجلاً هناك كان يبيع العدل الواحد من لفت الشتاء بخمسين سنتاً ، فما كان منه إلا أن انطلق في الصباح الباكر من ذلك اليوم ، وفي جيبه نصف دولار ليشتري به لفتاً . لقد قطع حتى الآن سبعة أميال ونصف ميل ولا يزال أمامه ميل ونصف قبل أن ينتهي إلى بيته قرب مستودع الفحم الحجري .

وكان أربعة نفر أو خمسة من اسرة ليستر واقفين في الفناء ينظرون إلى لوف عندما انزل كيسه عن ظهره ووقف أمام البيت . لقد راقبوا لوف منذ أن رأوه ، أول مرة ، قبل ساعة من الزمان ، على الكثيب القائم على مبعدة ميلين تقريباً . حتى

إذا غدا على مقربة منهم ، استعدوا لأن يحولوا بينه وبين حمل العدل إلى أبعد من ذلك .

وكان على لوف ان يعيل زوجته ، بالاضافة إلى نفسه ، وكان حريصاً على أن لا يسمح لأيّ من أفراد اسرة ليستّر بالاقتراب كثيراً من كيس اللفت . وكان من دأبه إذا ما اقترب من منزل ليستّر حاملاً شيئاً من اللفت ، أو البطاطا الحلوة ، أو أي ضرب من ضروب الغذاء ، أن يغادر الدرب قبل نصف ميل من موقع المنزل ، ويدور دورة كبيرة عبر الحقول ، ولا يقرب الدرب من جديد إلا إذا ضمنت له المسافة وقاية كافية . أما اليوم فقد كان يبتغي أن يكلم جيتّر في أمر ذي أهمية كبيرة ، فاجترأ على ان يدنو من المنزل أكثر مما فعل في أيما مرة قدّر له ان يحمل فيها إلى بيته شيئاً من اللفت أو البطاطا الحلوة .

وكانت زوجة لوف ، هي « بيرل » صغرى بنات جيتّر ليستّر . ولم تكن سنّها لتزيد ، عندما تزوج منها في الصيف الماضي ، على اثنتي عشرة سنة .

وراقب جيتّر ليستّر وذووه صهرهم لوف مراقبة دقيقة حين وقف في منتصف الطريق . لقد أنزل الكيس عن كتفه ، ولكنه أمسك بعنقه بجمع كفيه القاسيين . ولم يغيّر أحدٌ منهم موقعه من الفناء خلال العشر الدقائق الماضية . لقد تُرك أمر الخطوة التالية للوف وحده .

وإذا كان لوف قد وفد على المنزل ثم وقف ، فذلك لأن ثمة أسباباً وجيهة دفعته إلى ذلك . وإلا لما اجترأ على أن يقترب إلى مثل هذا المدى الذي يُسعف على إبلاغ الصوت . لقد أراد

أن يحدّث جيتر عن بيرل .

كانت بيرل تأبى أن تتكلم . كانت ترفض أن تقول كلمة، مهما بذل لوف من جهدٍ في اقناعها ، ومهما استبدّ به الغضب لذلك . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت تختبيءْ منه كلما رجع من مستودع الفحم ، حتّى إذا عثر عليها أفلتت من قبضته وفرّت إلى شجرات الرتم حيث تحتجب عن البصر . وكانت تبيت هناك ، الليلَ كله ، في بعض الأحيان ، حتّى يمضي لوف إلى عمله في صباح اليوم التالي .

ولم تكن بيرل تأبى الكلام لأنها لا تستطيعه ، ولكنْ لمجرد أنها لا تريد . وحين كانت في بيت أبيها ، قبل أن يتزوجها لوف ، كان من دأبها أن تجتنب سائر أفراد الاسرة ، ونادراً ما كانت تفتح فمها من مطلع يوم من الايام حتّى انقضائه . وكانت أمها ، إيدا ، هي وحدها القادرة على التحدث معها ، وحتّى في تلك الحال لم تصطنع بيرل قطّ غير أحرف الجواب الايجابية أو السلبية الاكثر عرياً . ولكن إيدا نفسها كانت كذلك . لقد بدأت تتحدث ، طوعاً لا كرهاً ، خلال السنوات العشر الماضيات ليس غير . أما في ما قبل ذلك فقد أورثت جيتر البلاء نفسه الذي تورثه بيرل ، الآن ، زوجها لوف .

ووجّه لوف ضروب الاسئلة إلى بيرل ، ورفسها بقدمه ، وصبّ الماء على رأسها ، وقذفها بالحجارة ، وضربها بالعصيّ، وفعل كل شيء خطر بباله وظنّهُ قادراً على أن يجعلها تتحدث معه . وكانت تبكي كثيراً ، وخاصة حين يوجه لوف إليها إساءةً جدية ، ولكن لوف ما كان يعتبر ذلك محادثة . كان

يريد منها أن تسأله ما إذا كان ظهره يؤلمه ، ومتى يعتزم أن يقص شعره ، ومتى ستمطر السماء من جديد . ولكن بيرل ما كانت لتقول شيئاً .

لقد تحدّث إلى جيتر عدة مرات قبل اليوم عن متاعبه مع بيرل ، ولكن جيتر لم يعرف ما خطبها . فمنذ أن كانت طفلة صغيرة وهي على هذه الحال – كذلك قال . ولقد ظلت ايدا معتصمة بالصمت حتى السنوات القليلة الاخيرة . وما عجز جيتر ، طوال أربعين عاماً ، عن التغلب عليه ، في زوجته إيدا ، وُفّق الجوع إلى دحره . لقد حلّ الجوع عقدة لسانها ، فهي لا تفتأ تشكو وتتظلم . ولم يحاول جيتر أن يقترح تجويع بيرل ، لأنه كان يعلم أنها خليقة بأن تمضي إلى مكانٍ ما التماساً للطعام ، وأنها سوف تجده .

– « يخيل إليّ في بعض الاحيان أن الشيطان القديم قد ركبها » ، كذلك قال جيتر غير مرة . « وفي اعتقادي انه ليس عندها ذرة من الدين . إنها سوف تدخل جهنم بعد ان تموت ، أنا على أتمّ اليقين من ذلك . »

وكان جيتر قد ألمع مرةً فقال :

– « والآن ، لعلها غير سعيدة في حياتها الزوجية . لعلّها غير قانعة بما تقدّمه اليها . »

– « لقد عملتُ كل ما أستطيع أن أفكر فيه لأجعلها راضية مسرورة . ففي كل أسبوع أذهب ، يومَ دفع الاجور ، إلى « فولر » ، واشتري لها شيئاً نفيساً . أنا أحمل اليها السعوط ، ولكنها تأبى أن تأخذ منه شيئاً . وأنا آتيها بقطعة صغيرة من الخام ، ولكنها ترفض أن تخيطها . يبدو وكأنها تريد شيئاً لا

أملكه ولا أستطيع أن آتيها به . وكم أتمنى لو أعرف ما هو ذلك الشيء . إنها فتاة صغيرة حلوة ... إن غدائرها الشقراء المتدلية حول عنقها تكاد تفقدني صوابي في بعض الاحيان . أنا لا أدري ما الذي سيحلّ بي . إن أحداً من الرجال ليس في حاجة إلى زوجته بقدر ما أنا في حاجة إلى بيرل . »

وكان جيتّر قد قال :

— « احسب انها لا تزال أصغر من ان تعرف قيمة الاشياء . إنها لم تكبر بعد مثل إللي ماي وليزي بيلّ وكلارا وبناتي الأخريات . إن بيرل ليست غير فتاة صغيرة . إنها لا تبدو وكأنها امرأة ، حتى الآن . »

— « لو علمتُ انها ستكون هكذا ، لكان من الجائز ان لا أبدي مثل تلك الرغبة في الزواج منها . كان في امكاني ان أتزوج امرأةً ترغب في ان تتزوج مني . ومع ذلك ، فلستُ أريد ان أفارق بيرل ، الآن . يبدو وكأني تعوّدت أن أراها معي . وأنا واثق من أن ذهابها سوف يحرمني رؤية تلك الغدائر الصفراء الطويلة المتدلية على ظهرها ، والتي تجعل المرء يحسّ وكأنه وحيدٌ مستوحش بطريقة ما . إنها من غير شك فتاة صغيرة حلوة ، على الرغم من انها تتصرف هذا التصرف دائماً . »

وانقلب لوف إلى منزله تلك المرة ، وأخبر بيرل بما قاله جيتّر عنها ، ولكنها جلست على الكرسي ولم تبدُ عليها أقلّ أمارة تؤذن برغبتها في الاجابة . وبعد ذلك لم يدرِ لوف ما الذي ينبغي له أن يفعله . ولكنه أدرك منذ ذلك الحين انها ما تزال فتاة صغيرة . ففي خلال الثمانية الاشهر التي انقضت على

زواجهما ازداد طولها ثلاث بوصات أو أربعاً ، وازداد وزنها نحواً من خمسة عشر رطلاً . ومع ذلك فأن وزنها لم يتعدّ مئة رطل إلا قليلاً ، على الرغم من أنها كانت تنمو وتمتلىء يوما بعد يوم .

والواقع ان ما رغب لوف في أن يدلي به إلى جيتّر ، الآن ، هو رفضُ بيرل النومَ معه . لقد كاد ينقضي على زواجهما عام كامل وهي لا تزال تنام منفردةً ، فعلتها منذ البداءة . كانت تنام وحدها ، على الارض ، في فراش من قش ، وترفض أن تدع لوف يقبّلها أو يمسّها البتة . وكان لوف قد أخبرها ان البقرة لا تكون صالحة إلاّ إذا ولدت عجلاً ، وان السبب الذي حمله على زواجها هو رغبته في ان يقبّلها ، ويلمس غدائرها الطويلة الصفراء ويضطجع معها . ولكن بيرل بدت وكأنها لم تسمع شيئاً من كلامه ، أو تفهم شيئاً مما كان يتحدث عنه . وعلاوةً على رغبة لوف في تقبيلها والتحدث اليها ، كان من همّه ان يرى إلى عينيها . ولكنها أبت عليه حتى هذه المتعة . كانت عيناها الزرقاوان الشاحبتان تنظران أبداً في اتجاه معاكس كلما جاء ووقف إلى جانبها .

وكان لوف لا يزال واقفاً في منتصف الدرب ، يتطلع إلى جيتّر وسائر أفراد اسرته المجتمعين في الفناء . كانوا ينتظرون منه أن يقوم بالخطوة الاولى . وما همّهم كثيراً ان تكون تلك الخطوة وديةً أو معادية ، ما دام ثمة في العدل مقدار من اللفت .

وكان جيتّر يعجب من أين أتى لوف باللفت . ولم يخطر بباله قطّ ان لوف اشتراه بماله . ذلك بأن جيتّر كان قد انتهى

منذ زمن طويل إلى هذا الاستنتاج : أن الطريقة الوحيدة التي تمكّن المرء من الحصول على شيء من الغذاء هي السرقة . ولكنه لم يوفق إلى ان يكتشف ، هذا العام ، حقلاً من حقول اللفت في أيما مكان ضمن دائرة يبلغ نصف قطرها خمسة أميال أو ستة . لقد زُرع في العام الماضي حقلٌ مساحته أكران اثنان في أراضي « بيبودي » ، ولكن رجال « بيبودي » كانوا يُبعدون الناس عن الحقل بنيران بنادقهم . وفي هذا العام ذهبوا إلى أبعد من ذلك فلم يزرعوا اللفت على الاطلاق .

وقال جيتر :

— « لماذا لا تتقدم إلى الفناء بدلاً من أن تقف في هذه الطريق ، يا لوف ؟ إنه ليس من الحكمة أن تبقى هناك . تعال واسترح قليلاً . »

ولم يُحر لوف جواباً ، بل لم يُبد حراكاً . كان يوازن بين الخطر المتمثل في الاقتراب من الفناء ، والسلامة المتمثلة في البقاء في موقفه من الطريق .

وطوال الاسابيع القليلة الماضية كان لوف يفكر في أن يأخذ بعض حبال الحراثة ويشدّ وثاق بيرل ، ليلاً ، في الفراش . لقد جرب كل ما استطاع أن يفكر فيه حتى الآن ما عـدا العنف ، وكان لا يزال مصمماً على أن يجعلها تسلك المسلك الذي اعتقده واجباً على الزوجة . ولقد انتهى الآن إلى تلك النقطة التي احتاج فيها إلى نصيحة جيتر قبل أن يمضي قدماً في إنفاذ خطته . وكان يعتقد أن جيتر خليق بأن يعرف ما إذا كانت تلك الخطة محمودةً من الناحية العملية ، ما دام قد كُتب عليه أن يتنازع مع إيدا عمرَهُ كله أو معظمه . لقد عرف ان إيدا

تصرفت ذات يوم مثل تصرف بيرل الحاليّ ... ولكن جيتر لم يُعامَل كما قد عومل هو ، لأن إيدا أنجبت له سبعة عشر ولداً ، على حين ان بيرل لم تبدأ بعد في إنجاب الولد الاول .

وإذا قال جيتر ان من الخير ان تُشَدّ بيرل إلى الفراش فعندئذ يمضي قدماً ويقوم بهذا العمل . ان جيتر ليعرف عن هذه الاشياء أكثر مما يعرف هو . فقد سلخ جيتر أربعين سنة وهو زوج لأيدا .

وكان لوف يرجو أن يبدي جيتر استعداده للذهاب إلى منزله القائم قرب مستودع الفحم ، ومساعدته على تقييد بيرل في الفراش . ذلك بأن بيرل كانت تقاوم في ضراوة كلما حاول أن يمسك بها ، حتى لقد صار يخشى ان لا يوفق إلى عمل شيء من غير مساعدة جيتر .

وفي الفناء ، وعند السقيفة الامامية ، وقف جيتر وذووه ليروا ما الذي سيعمله لوف بعد ذلك . ولم يكن في المنزل ، ذلك اليوم أيضاً ، غير قليلٍ من الطعام . كان بعض الحساء المالح الذي صنعته إيدا بأن غلت بضع قطع من شحم الخنزير ، في قدر من الماء ، وبعض خبز الذرة ، كلّ ما وجدوه على مائدتهم حين جلسوا للطعام . وما كان ذلك ليكفيهم جميعاً ، ولقد اضطروا إلى ابعاد الجدة العجوز عن المطبخ حين حاولت الدخول اليه .

ووقفت إللي ماي خلف شجرة ازدرخت ، وراحت تنظر إلى لوف . لقد حركت رأسها من جانب من الشجرة إلى جانب محاولةً ان تلفت نظر لوف .

وكانت « إللي ماي» و « دْيود » هما ولدي جيتر الوحيدَين الباقين في البيت . لقد ذهب سائر الأولاد وتزوجوا . وغادر بعضهم البيت في كثير من الهدوء ، وكأنهم يمضون إلى مستودع الفحم ليروا إلى قُطر الشحن . حتى إذا لم يرجعوا في مدى يومين أو ثلاثة ُعلمَ انهم فارقوا المنزل .

وكان دْيود يقذف جانب البيت بكرة ثقيلة غير مستوية من كرات « البيسبول » ثم يلتقطها حين تنقلب اليه . وكانت الكرة تصيب البيت بمثل هزيم الرعد ، مذبذبةً الالواح غير المتماسكة إلى درجة جعلت المنزل كله يتمايل ذات اليمين وذات الشمال . لقد قذف الكرة قذفاً موصولاً ، فهي ترتد عبر الفناء الرملي إلى حيث كان يقف .

وكان المنزل ذو الغرف الثلاث ينهض متقلقلاً على أكداس من شظايا كلسية رقيقة ُوضعت تحت الزوايا الأربع . وأقيمت الحجارة واحداً فوق آخر ، وسُمّرت العوارض الخشبية ، وشُدّ المنزل كله بعضه إلى بعض . والواقع ان السهولة والبساطة اللتين ُبني بهما غدتا الآن واضحتين . لقد انخفض منتصف البناء بين العتبات ، وانخفضت الشرفة فهي اليوم أدنى مما كانت عليه من قبلُ بقدم أو أكثر . وانخفض السقف في الوسط حيث أقيمت العوارض الداعمة في كثير من الاهمال . وبليت الكثرة الكبيرة من الألواح الخشبية ، فكانت أجزاء منها تُبعثر في كل ناحية من نواحي الفناء إثر كل عاصفة من العواصف . وكان من دأب أسرة ليستر ان تنتقل ، حين يرشح السقف ، من زاوية في الغرفة إلى أخرى ، حتى ينقطع المطر آخر الأمر . ولم يُدهن المنزل ذات يوم قطّ .

وكان جيتر يحاول أن يرقع طوق مطاطٍ داخلي متهرىء . لقد قال انه إذا وفّق إلى اصلاح جميع دواليب السيارة العتيقة دفعةً واحدة فعندئذ ينقل حملاً من الحطب إلى أوغوستا ويبيعه. وكان الحطابون يحصلون على دولارين لقاء كل حملٍ من الصنوبر المجفّف ينقلونه إلى المدينة . ولكن السنديان الأسود الذي حاول جيتر أن يحمل الناس على شرائه للوقود لم يعد عليه في أيما يوم من الايام بأكثر من خمسين أو خمسة وسبعين سنتاً . وكان إذا ما وفّق إلى نقل حملٍ منه إلى اوغوستا ، يعجز في أكثر الاحوال عن بيعه . لقد بدا وكأن أحداً في تلك المدينة لم يكن من الحمق بحيث يشتري حطباً هو أصلب من أنابيب المياه الحديدية . وكان الناس يناقشون جيتر الراغب، في مثل عناد البغال ، أن يبيع السنديان الاسود ، ويحاولون اقناعه بأنه لا يصلح البتة وقوداً . ولكن جيتر كان يجيب بأنه يريد أن يجرد أرضه من ذلك السنديان الرديء استعداداً لحرثها من جديد .

وكان لوف قد خطا ، في تلك الاثناء ، بضع خطوات نحو الفِناء ، وجلس على طريق التبغ ، واضعاً قدميه في القناة . لقد أبقى إحدى يديه قابضةً في إحكام على عنق الكيس المطوّقة بخيط غليظ من القنّب .

وواصلت إللي ماي اختلاس النظر من وراء شجرة الازدرخت محاولةً أن تلفت انتباه لوف . وكلما وجّه بصره في ذلك الاتجاه ردّت رأسها إلى الوراء لكي لا يراها .

وصاح جيتر عبر الفِناء :

— « أي شيء في ذلك الكيس ، يا لوف ؟ لقد رأيتك



تقبل من بعيد وهذا الكيس على ظهرك . مؤكد اني أحب أن أعرف ماذا وضعت في جوفه . لقد سمعتُهم يقولون ان بعض الناس حصلوا على شيء من اللفت في هذا العام . »

وأحكمَ لوف قبضته على عنق الكيس منقلاً طرفهُ من جيتر إلى سائر أفراد الاسرة ، واحداً إثر واحد . فرأى إللي ماي تسترق النظر اليه من وراء شجرة الازدرخت .

وسأله جيتر :

— « هل تعبت كثيراً في الحصول على ما في جوف ذلك الكيس ، يا لوف ؟ يبدو وكأنك منقطع النَفَس تماماً . »

فقال :

— « أريد أن أقول لك شيئاً ، يا جيتر . إنه يدور حول بيرل . »

— « ماذا فعلتْ تلك الصغيرة الآن ؟ ألا تزال تعاملك معاملةً وضيعة ؟ »

— « إنها لا تزال كما كانت من قبل . كل ما في الأمر اني لم أعد أطيق هذه الحال . أنا لا أحب أسلوبها هذا . ولم أملْ مرةً إليه ولكن الامور تسير من سيء إلى أسوأ . وجميع الزنوج يسخرون مني بسبب الطريقة التي تعاملني بها . »

فقال جيتر :

— « إن بيرل مثل أمها تماماً . لقد كانت أمها تعمل ، في زمانها ، أعجب الأشياء . »

— « كلما حاولتُ الاقتراب منها ، ولت فراراً ولم ترجع برغم دعوتي لها . والذي أحب أن أقوله الآن هو هذا : ما الحكمة في زواجي من امرأة إذا لم أحصل على شيء من الفائدة؟

إنّ الله لم يُقدّر للزواج ان يتخذ هذه الوجهة . إنه لا يريد أن يعامَلَ الرجل مثل هذه المعاملة . من المستحسن أن تناكد المرأة الرجل لكي تحمله على أن يعمل ما تريده ، ولكن بيرل لا تهدف إلى ذلك في ما يبدو . إنها لا تقصد إلى مناكدتي ، ولكن موقفها مني لا يختلف عن المناكدة في شيء . اني في هذه اللحظة بالذات أحسّ أني في حاجة إلى امرأة ليست على هذه الغاية من ... »

فقال جيتر :

— « أي شيء عندك في ذلك الكيس ، يا لوف ؟ لقد سلختُ ساعةً أو أكثر وأنا أراقبك منذ أن وصلت إلى قمة تلك التلة البعيدة هناك . »

فقال لوف ، وهو ينظر إلى نساء الأسرة :

— « لفت ، وحقّ الالـه . »

— « ومن أين أتيت باللفت ، يا لوف ؟ »

— « أنت حريص على أن تعرف ، إيه ؟ »

— « لقد كنتُ أفكّر ما إذا كان في إمكاننا أن نعقد صفقة ، أنا وأنت ، يا لوف . إن في استطاعتي الآن أن أقصد إلى بيتك وأقول لبيرل ، بطريقة ما ، ان عليها ان تنام في الفراش معك . ذلك ما كنت تريد أن تحدثني عنه ، أليس كذلك ؟ أنت تريد منها أن تنام في الفراش ، أليس كذلك ؟ »

— « انها لم تنم قط في سريري . إنها تنام كل ليلة على فراش القش الموضوع على الارض . أظن ان في استطاعتك ان تجعلها تكفّ عن ذلك ، يا جيتر ؟ »

— « يسرني كثيراً أن أوفق إلى حملها على أن تفعل ما لا

تفعله . يعني ، إذا استطعت أنا وأنت ان نتفاهم على كيس اللفت ، يا لوف . »

— « من أجل هذا جعلت طريقي من هنا — لكي أحدّثك عن بيرل . ولكني مع ذلك لن أدعك تأخذ أياً من أقراص اللفت هذه . كان عليّ أن أدفع خمسين سنتاً ثمناً لهذا الكيس ، وكان عليّ أن أمشي المسافة كلها من منزلي إلى فولر ذهاباً وأياباً لكي أحصل عليه . أنت والد بيرل . وان من واجبك أن تحملها على أن تسلك المسلك الصحيح من غير أن تتقاضى ثمناً . إنها لا تلقي بالاً لكل ما أطلب اليها أن تفعله . »

— « وحقّ الإلـه والمسيح ، يا لوف ، ان جميع أقراص اللفت الملعون التي قطفتها هذا العام يتأكلها الدّود . ولم تقع عيني على قرص لفت جيد واحد ، هذا الربيع ، منذ سنة كاملة . إن كل اللفت الذي جنيته يحتوي في جوفه على تلك الديدان اللعينة ذات الامعاء الخضراء ، يا لوف . لأي شيء خلق الله ديدان اللفت ؟ هذا ما لا أستطيع أن أفهمه . يخيّل إليّ انه لم يوجدها إلا نكايةً بالفقراء . لقد اشتغلت طول الخريف الماضي ، في حفر قطعة من الارض لكي أزرع بعض أقراص اللفت فيها ، ولكنها لم تكد تنمو وتصبح صالحةً للقطف والاكل حتى جاءت هذه الديدان اللعينة الخضراء الامعاء وشقّت طريقها إلى قلبها . إن الله يكره الفقراء ويبيّت لهم الشرّ . أنا لا أشكو ، يا لوف ؛ أنا أقول ان الله أعلم منا كلنا بما ينبغي أن يُعمل باللفت . إنه سيغدق علينا ، في يوم من الايام ، الخير والنعمة ، وعندئذ نحصل كلنا ، نحن الفقراء ، على طعام وافر نأكله ، وكساء كثير نلبسه . فليس من الممكن

ان تستمر الحال هكذا سائرةً من سيء إلى اسوأ ، كل عام ، كما حصل منذ نهاية الحرب الكبيرة . إن الله لا بدّ ان يضع حداً لذلك ، في يوم من الايام ، ويحمل الاغنياء على إعادة كل ما أخذوه منا نحن معشر الفقراء . إن الله سوف ينصفنا . وهو لن يسمح للاشياء بأن تستمر كما هي اليوم . ولكن علينا أن نكفّ عن سبّه كلما عجزنا عن الحصول على شيء نأكله . إنه يبعث بكل من لا يقلع عن ذلك إلى جهنم ، حيث يقيم الشيطان . »

وسحب لوف كيس اللفت عبر القناة ، ثم قعد من جديد. ووضع جيتر طوق المطاط الداخلي المهترئ جانباً ، وانتظر .

٢

فتح لوف الكيس ، واختار قرص لفت كبيراً ، ونظفه بكلتا يديه ، وعضه ثلاث عضات متواليات . ووقفت النسوة من اسرة ليستر في الفناء وعلى الشرفة ورحن يحدّقن إلى لوف وهو يأكل : وفارقت إللي ماي شجرة الازدرخت وجلست على جذع صنوبرة يابس ، غير بعيد عن لوف . واحتفظت إيدا والجدة العجوز بمكانهما عند الشرفة وراقبتا قرص اللفت في يد لوف ، وقد غدا أصغر فأصغر إثر كل عضة .

وقال لوف :

— « لو كانت بيرل تشبه إللي ماي بعض الشبه لما عاملتني هذه المعاملة . ولقد كنت جديراً بأن آخذ إللي ماي منذ البدء لولا وجهها ذاك . ولكني كنت أعرف انني لن أستطيع أن أنام الليل مرتاح البال وهي تضطجع إلى جانبي في الفراش ، وأنا عالم كيف يبدو وجهها في النهار . إن بيرل جميلة ، وهي فتاة مليحة يرغب المرء في أن ينام معها ، ولكن المشكلة اني لا أستطيع أن أقنعها بمغادرة فراش القش اللعين المطروح على

الارض كلما هبط الليل . يجب عليك أن تذهب إلى هناك وتفرض عليها ان تتصرف كما ينبغي ، يا جيتّر . لقد تزوجتها منذ فترة تقارب السنة ، وكان في امكاني ان أجرف الفحم في المستودع ، طول الليل والنهار ، من غير أن أعود إلى منزلي . تلك ليست الطريقة التي ينبغي أن تُتّبع . لأن من حق الرجل ان يرغب في رؤية زوجته إلى جانبه في السرير ، عندما تسقط العتمة . أنا لم أسمع في حياتي ان هناك امرأة تحبّ أن تنام على فراش قشيّ ملعون ، منطرح على الارض ، كل ليلة من ليالي السنة بكاملها . ان بيرل عجيبة حقاً من هذه الناحية . »

وهنا قال جيتّر موجهاً الخطاب إلى دْيود :

— « بحق الاله والمسيح ، يا دْيود ، ألست تنوي أن تكفّ عن قذف ذلك البيت العتيق بهذه الكرة ؟ لقد كدتَ تُسْقط الالواح الخشبية وتقوّض دعائم البيت . ولا شك في ان هذا المنزل العتيق سوف يتداعى ويقع على الارض ، في يوم من الايام ، إذا لم تُقلع عن عملك هذا . »

وتناول جيتّر طوق المطاط الداخلي كرةً أخرى ، وحاول أن يُثبّت الرقعة على الجسم المطاطيّ . وكانت السيارة العتيقة التي أسند ظهره اليها هي آخر ممتلكاته . ففي السنة الماضية ماتت البقرة ، مخلّفة إياه وحيداً مع سيارته . وحتى ذلك الحين كان من دأبه أن يُكثر من التباهي بما يملك ، ولكن حين ماتت البقرة انقطع عن ذكر السيارة انقطاعاً تاماً . لقد بدأ يدرك انه في الحق رجل فقير . فلم يبق عنده ما يستطيع أن يرهنه حين يقبل الربيع ويحين أوان شراء سماد الطير وبزر القطن . لقد

رفض المتاجرون بحطام الحديد ، في أوغوستا ، أن يشتروا سيارته . ولكنه لا يزال يملك شيئاً من الحطب يستطيع أن يبيعه : حطب تلك السنديانة النحيلة القاسية القائمة خلف المنزل . وإنما كان يحاول الآن أن يرقع طوق المطاط الداخلي لكي يستطيع أن ينقل حملاً من هذا الحطب إلى أوغوستا ذات يوم من أيام ذلك الاسبوع . لقد قالت إيدا ان الطحين كله قد نفد ، وكذلك اللحم . وها قد بدأوا يعيشون ، منذ عدة أيام ، على شيء من شحم الخنزير ، حتى إذا نفد هذا أيضاً لم يجدوا ما يأكلونه . وكان حمل الحطب خليقاً بأن يعود عليه في أوغوستا ، بخمسين أو خمسة وسبعين سنتاً ، إذا ما وجد رجلاً يشتريه . ويوم ماتت البقرة العجوز ، حمل جيتر جثتها إلى مصنع السماد الكيماوي في أوغوستا وباعها بدولارين وربع الدولار . اما في ما بعد فلم يبق عنده ما يبيعه غير الحطب .

وقال جيتر :

— « كفّ عن ضرب الجدار بتلك الكرة الملعونة ، يا ديود . إنك لا تنقطع يوماً عن عمل شيء أحظره عليك . تلك ليست هي الطريقة التي يعامل بها الابن أباه الشيخ ، يا ديود . ينبغي لك أن تبذل جهدك في مساعدتي ، لا أن تعمل دائماً نقيض ذلك . »

فقال ديود ، وهو يلقي بالكرة إلى جانب المنزل بكل قوته ثم يتلقفها في سرعة من على مستوى الأرض :

— « أوه ، إذهب إلى الجحيم أيها الغبيّ العجوز الذي جف ماؤه ! إن أحداً منا لا يسألك شيئاً . »

ودبّت الجدة العجوز ، أمّ جيتر ، تحت السقيفة الامامية

التماساً لكيس الحيش العتيق ، واتخذت سبيلها عبر طريق التبغ إلى الغابة لكي تجمع بعض الاغصان الميتة. ولم يلتفت أحدٌ اليها على الاطلاق .

إنهم لم يحتطبوا يوماً لا لموقد المطبخ ولا للمدفأة . فما كان جيتر ليقوم بهذا العمل ، وما كان بقادرٍ على أن يُكره ديود على القيام به . وكانت الجدة العجوز تعرف أنه لم يكن عندهم طعام يطبخونه ، وأن من العبث الذي لا طائل تحته أن تمضي فتلتمس الاغصان الميتة وتشعل بها النار في الموقد ، ولكنها كانت جائعة ، وكانت ترجو دائماً أن يمنّ الله عليهم بشيء إذا ما أشعلت النار في المطبخ عندما يحين وقت الطعام . وكاد الجوع يذهب بعقلها منذ رأت ان ثمة لفتاً في كيس لوف . كان في استطاعتها بعض الاحيان ان تحتمل ألم الجوع في معدتها حين تعلم أنْ ليس هناك ما تأكله ، ولكنها ما إن رأت لوف ، أمامها ، يُخرج أقراص اللفت من العِدل حتى عجزت عن ان تطيق النظر إلى طعام ٍ ليس يسمح لها أحدٌ بأن تمسّه .

وراحت تَعرُج عرجاً خفيفاً عبر الطريق وفوق حقل القطن القديم الذي لم يُزرع ولم يُحرث منذ ستة أعوام ، أو سبعة . وفي البدء كان الحقل مغطىً ببعض النباتات الشائكة ، أما الآن فأن فروعاً صلبةً كثيرة العُقد من سنديان أسود حديث النشأة قد أخذت تغطي الارض . لقد تعثّرت وسقطت عدة مرات في طريقها إلى الغابة ، وكانت ثيابها قد مُزقت من قبلُ تمزيقاً شديداً حتى لقد صار من المتعذر تمييز المِزَق الجديدة من المزق القديمة في تنورتها وسترتها . والواقع أن تنورتها وسترتها هاتين غدتا أشبه بالخرق المتقطعة لكثرة ما نخسهما العوسج والسنديان

الاسود ، في الأجمة ، حيث كانت تجمع الاغصان الميتة للوقود . ولم يشتر لها أحد في يوم من الايام ثياباً جديدة . والواقع انها بدت ، وهي تظلع في أسمالها السوداء ، عبر الرّتم الاسمر ، وكأنها نُطّار عتيقٌ بالٍ . *

وصفرت ريح شباطٍ من خلال مِزَق الثوب الاسود مديرةً إياها في الهواء حتى لقد بدت وكأنها ترتجف ارتجاف المصاب بالشلل الاهتزازي . وكانت قد اتخذت من بعض المِزَق الطويلة السوداء جورباً لفّته حول رجليها وعقدت أطرافه . وكـان حذاؤها مصنوعاً من مِزَق طوقٍ من أطواق الخيل شُدّت على قدميها ببعض الاشرطة . وكانت تخرج في طلب الاغصان الميتة ، صباحاً ، وظهراً ، ومساءً . حتى إذا رجعت إلى المنزل أضرمت النار في موقد المطبخ ، وقعدت تنتظر .

وأزاحت إيدا عود السعوط من أحد جوانب فمها إلى الآخر ، وتطلّعت في توق إلى لوف وكيس اللفت . ثم انها أحكمت تغطية صدرها بثوب الخام المتهدل وقايةً لنفسها من ريح شباط الباردة الهابّة تحت سطح الشرفة . أما سائر أفراد الاسرة فكانوا إما قاعدين أو واقفين في الشمس .

ونزلت إللي ماي من جذع الصنوبر اليابس ، وقعدت على الارض . لقد اقتربت نحو لوف أكثر فأكثر ، منسابةً فوق الرمل الأبيض القاسي .

وسأل جيتر صهره لوف :

— « هل تنوي أن تعمل معي ترتيباً من أجل هذه الكمية من اللفت ؟ أنا محتاج إلى اللفت حاجةً اللهُ وحـده يعرف

* النطار : الفزاعة او الخيال المنصوب بين الزرع .

مقدارها ! »

فقال لوف :

— « لن أعمل أيّ ترتيب مع أيّ انسان ! »

— « اسمع ، يا لوف ، ما هكذا يتحدث الناس . ان عيني لم تقع على قرص لفت جيد منذ عام كامل . كل أقراص اللفت التي أكلتها كانت تعجّ بتلك الديدان الملعونة ذات الأمعاء الخضر . وأنا على ثقة من اني أحب ان أحصل على بعض اللفت الجيد الآن . ان الاقراص المدوّدة ، كالتي أكلتها من قبل ، لا تصلح طعاماً للبشر . »

فقال لوف وهو يلتهم قرص اللفت الرابع :

— « اذهبْ إذن إلى فولر واشترِ ما تريد منه . لقد قصدت أنا إلى هناك لكي أشتري هذه الكمية . »

— « اسمع يا لوف ، ألم أُحسن دائماً اليك ؟ ما هكذا يتكلم الناس . أنت تعرف اني لا أملك فلساً ، واني لا أدري من أين أحصل على المال . إن عندك وظيفة طيبة تقدّم اليك كومةً من المال . فينبغي أن تعقد معي صفقةً بحيث يكون عندي شيء آكله ، ولا أجوع حتى الموت . أنت لا تحب ان تقعد هناك وتراني أتضور من الجوع ، أليس كذلك ، يا لوف ؟ »

— « أنا لا أحصل على أكثر من دولار واحد يومياً ، في مستودع الفحم . إن اجرة البيت تستنفد معظم ذلك ، في حين يستنفد الطعام البقية الباقية . »

— « لا بأس ، يا لوف . أنا ليس في جيبي فلس ، أما أنت فعندك . »

— « وماذا تريدني ان أعمل ؟ إن الربّ يحبّنا حباً متساوياً ، كما يقولون . وهو يعطيني نصيبي ؛ اما إذا نسي أن يعطيك نصيبك فمن الأفضل أن تتحدث اليه هو في ذلك . إنه ليس من شأني على الاطلاق . وان عندي متاعب شخصية كثيرة . بيرل لا تريد مطلقاً أن ... »

وهنا صاح جيتر :

— « ألا تريد أن توقف قذف تلك الكرة اللعينة إلى البيت ، يا ديود ! إن هذه الضجة تكاد تفلق رأسي المسكين فلقاً ! »

وقذف ديود الالواح القلقة بكرة البيسبول ، أقوى ما يستطيع ان يقذف . فتساقطت قطعٌ من خشب الصنوبر على الفناء ، وهوت الجذوع المتهرئة إلى الارض ، قرب المنزل . وبدا وكأنّ ديود كان يقذف الكرة كل حين بعزم أشدّ ، وقوة أعظم . وغير مرة ، كادت الكرة ان تخترق جدران البيت الرقيقة .

وقال ديود :

— « لماذا لا تذهب إلى مكان ما وتسرق كيساً من اللفت ؟ أنت لا تصلح لشيء غير ذلك . انك تقعد هنا ولا تنقطع لحظةً عن السبّ واللعن لأنه ليس عندك شيء تأكله ، ليس عندك لفت . لماذا لا تذهب إلى مكان من الامكنة وتسرق شيئاً ؟ إن الله لن يبعث اليك بشيء . إنه لن يُنزل عليك اللفت من السماء . وليس عنده متسع من الوقت يضيعه في ممازحتك . لو لم تكن كسولاً إلى حد لعين لقمت بعمل ما ، بدلاً من أن تقعد وتجدّف طول النهار . »

فقال جيتر :

— « كل أولادي يلومونني لأن الله يرى من المناسب أن أكون فقيراً معدماً يا لوف . إنهم وأمّهم يقضون الوقت في لعني لأنه ليس عندنا شيء نقتات به . وما الذي أستطيع أن أعمله أنا في هذه الحال ؟ وما ذنبي إذا كان الكابتن جون قرر أن يقطع عنا الأرزاق والسعوط ؟ إنها غلطته ، يا لوف . لقد عملت طول عمري في خدمة الكابتن جون . لقد عملتُ في الحقول أكثر من أيّ أربعة من زنوجه فكانت النتيجة ان جاء إلى هنا ذات صباح وقال انه لا يستطيع أن يسمح لي بعد اليوم بأن آخذ من المخزن شيئاً من الطعام والسعوط . وبعد ذلك ، باع جميع البغال وذهب إلى اوغوستا ليقيم فيها . أنا لا أستطيع أن أكسب فلساً لأن أحداً لا يعطيني عملاً . وليس هناك من يحتاج اليوم إلى مزارعين يستأجرون الارض لقاء نسبة من الغلة . ولم أجد قطّ عملاً بالاجرة أقوم بـه . بل إني لا أستطيع أن أزرع شيئاً لحسابي ، لأنه ليس عندي بغل ، ولأنه مـا من رجل يرضى أن يبيعني بزر القطن وسماد الطير من غير أن يقبض الثمن نقداً ، وهكذا صرت لا أحصل على شيء مـن السعوط والأرزاق ، إلا بين وقت وآخر حين أنقل إلى اوغوستا حملاً من الحطب . وطلب الكابتن جون من التجار في فولر ان لا يعطوني أيّ مقدار من السعوط والاطعمة على حسابه ، ولستُ أدري أبداً أين أجد ذلك بعد اليوم . ولقد كان في إمكاني أن أزرع شيئاً لحسابي في هذه الارض لو وجدتُ من يوقّع السندات الخاصة بالسّماد نيابةً عني ، ولكن ليس هناك رجلٌ مستعدٌ لأن يسدي إليّ هذه الخدمة أيضاً . ذلك ما أريد أن أعمله على وجه الخصوص في هذه اللحظة . فحين ينتهي

الشتاء وحين إشعال الرتم في الحقول والشجيرات النامية في الغابات أجد نفسي ، في الحقيقة ، على وشك البكاء . إن رائحة دخان الرتم تكاد تخبّلني في هذه الفترة من السنة . وما هي إلا أيام حتّى يبدأ المزارعون في الحراثة . وهذا ما يجعلني أغتاظ أكثر ما يكون . وحين أستروح عبق تلك الارض الجديدة وهي تتقلّب خلف المحاريث يستولي عليّ الضعف والارتجاف . إنه شيء في دمي : إحراقُ الرتم وحراثة الارض في هذا الفصل من السنة . لقد قمتُ بذلك نحواً من خمسين عاماً ، وكان أبي وأبو أبي من هذا النوع من الرجال أيضاً . نحن أبناء ليستر نحبّ من غير شك أن نثير الارض ونحملها على الانبات . أنا لا أستطيع أن أهاجر إلى مصانع القطن ، كما يفعل الآخرون . إن للأرض سلطاناً كبيراً عليّ .

« وفوق ذلك ، فهذه الكومة من النساء والاولاد تخور طول الوقت طالبةً الطعام والسعوط . وليس يخفّف من خوارها أن تعلم اني لا أملك شيئاً أشتري به قوتاً — فهي تريد الطعام والسعوط على أيّ حال . ويخيّل إليّ ، يا لوف ، أنّ عليّ أن أنتظر حتّى يمنّ الله علينا بشيء من عنده . يقولون إنه يهتمّ بمخلوقاته ، وإني أنتظر أن يتلفت إليّ بعض الالتفات . ولست أظن ان في هذه المسافة الممتدة من هنا إلى أوغوستا رجلاً في مثل تعاستي . لا ، ولا في الناحية الأخرى الممتدة من هنا إلى ماك كوي . يبدو لي وكأن لكل الناس ممتلكاتهم وأموالهم ، ما عداي . ولست أعرف لذلك سبباً ، لأني أعطي الربّ الكريم حقه دائماً . لقد كنتُ أنا وإياه أمينين في تعاملنا ، على شكل متواصل . ولقد آن له أن ينتبه إلى الورطة التي أنا فيها .

أنا لا أعرف ما الذي ينبغي أن أعمله غير أن أنتظر التفاتةً منه نحوي . وليس يفيدني شيئاً ان أحاول استجداء السعوط والمواد الغذائية لأنه ما من أحد من الناس على استعداد لاعطائي ما اريد. لقد حاولت ذلك في كل بقعة من بقاع هذه المنطقة ، ولكن أحداً لم يُلقِ بالاً لتوسلاتي . لقد قالوا لي كلّهم إنه لم يبقَ عندهم شيء على الاطلاق ، ولكني لا أستطيع أن أفهم ذلك . وليس يبدو معقولاً أن يُكتب البؤس على كل من بقي في الريف ولم يذهب إلى مصانع القطن . ولنفرض اني رجل آثم ، ولكني لا أدري أي خطيئة ارتكبتُ . أنا لا أذكر ، في ما يبدو ، اني اقترفت إثماً كبيراً . لا ، ولم أكن من قبلُ على مثل حالي اليوم . وفي استطاعتي ان أذكر ان جميع التجار في فولر كانوا منذ فترة قصيرة يبتهجون بأن يدينّوني ، وأن جيوبي كانت طافحةً ، دائماً ، بالمال . لقد بيع رطل القطن بأكثر من ثلاثين سنتاً ، وما كان احد يأتي لجمع الديون . وفجأةً انقطع تجار فولر عن إعطائي شيئاً بالدين ، وبعد فترة جاء منفّذ الاحكام واستولى على جميع ما أملك تقريباً . أخذ آخر قطعة من ممتلكاتي ما عدا تلك السيارة العتيقة والبقرة . لقد قال إن البقرة غير صالحة لأنها لن تلد بعد اليوم ، وقال ان عجلات السيارة كلها مهترئة .

« والآن أنا لا أستطيع أن أستدين شيئاً ، ولا أجد شغلاً بأجر ، وليس ثمة من يرغب في ان أعمل على أرضه لقاء نسبة من الغلة . وإذا لم يُسارع الربّ إلى إغاثتي فقد تفوت فرصة انقاذي من متاعبي . »

وتمهّل جيتر ليرى ما إذا كان لوف يستمع لكلامه . ولكن

لوف كان قد أدار رأسه في اتجاه آخر . كان يرنو في تلك اللحظة إلى إللي ماي ، بعد ان وفقت آخر الامر إلى أن تفوز ببعض اهتمامه .

واقتربت إللي ماي نحو لوف شيئاً بعد شيء . كانت تتحرك عبر الفناء بأن ترفع ثقلها على يديها ورجليها وتزحف فوق الرمل الابيض القاسي . وكانت تتبسم للوف ، وتحاول أن تجذب انتباهه جذباً أقوى . ذلك أنها ما عادت قادرةً على أن تنتظر أن يأتي هو اليها ، فقررت أن تمضي هي اليه . وكانت شفتها الشرماء قد افترّت عن أسنانها ، جاعلةً فمها يبدو وكأنما لا شفة عليا لها على الاطلاق . وكان الرجال يتحاشون ، عادةً ، إللي ماي ، ولكنها كانت في الثامنة عشرة الآن ، وكانت قد بدأت تكتشف أنه لا يجوز ان يتعذر عليها الفوز برجلٍ ، على الرغم من مظهرها ذاك .

وقال دْيُود لجيتر :

— « إنّ إللي ماي تعمل كما كان كلبك العجوز يعمل حين يصيبه الجرب . أنظر اليها كيف تحك عجزها بالرمل . ولقد كان الكلب العجوز يطلق نفس الصوت الذي تطلقه إللي ماي ، أيضاً . إنـه أشبه بصوت خنزير صغير يصيح ، أليس كذلك ؟ »

فقال جيتر :

— « وحق الالـه وحقّ المسيح ، أنا أريد بعض أقراص اللفت الطيبة . أنا لم آكل شيئاً طوال الشتاء غير الطحين وقليل من شحم الخنزير ، وإني شديد الاشتياق إلى اللفت . ان جميع أقراص اللفت التي زرعتها كانت تفور بالديدان الملعونة ذات

الاحشاء الخضر . وعلى أيّ حال ، فأين وجدت هذا اللفت ، يا لوف ؟ لعلك تجري معي ترتيباً ما حول ذلك . لقد كنت أعاملك دائماً في أمانة وإخلاص ، من أجل ذلك ينبغي أن تعطيني هذا الكيس بعد أن رأيت أنه ليس عندنا ما نأكله . وثق أن أول عمل سأقوم به صباحاً هو الذهاب إلى بيتك وإفهام بيرل أن عليها أن تُقلع عن معاملتك على هذا الشكل . إن من العار على الفتاة الصغيرة أن تسلك هذا المسلك — سوف أقول لها أن تمنحك حقوقك عليها . أنا لم أسمع عمري كله بفتاة تنام على الارض فوق حشيّة قشّ ، برغم أن زوجها قد أعدّ لها سريراً . إن بيرل لن تلبث أن تكفّ عن حماقتها هذه بعد أن أحدثها في الامر . فليست هذه هي الطريقة التي يُعامَلُ بها رجلٌ تجشّم مشقة الزواج . لقد آن لها أن تفهم ذلك ، أيضاً . سوف أذهب إلى هناك صباحاً ، قبل أن آتي أيّ عمل آخر وأسألها أن تنام معك في السرير . »

ولم يُلقِ لوف بالاً إلى كلام عمه . كان يراقب إللي ماي وهي تنساب نحوه عبر الفِناء . حتى إذا غدت أقرب إليه بعض الشيء مدّ يده إلى الكيس ، وأخرج قرص لفت آخر ، وراح يقضمه قضمات كبيرة . ولم يُعنَ بمسح التراب عن القرص ، هذه المرة .

وأزاحت إيدا عود السعوط إلى الزاوية الأخرى من شفتيها ، وراحت تراقب إللي ماي ولوف فاغرةَ الفم .

ووقف دْيُود يراقب إللي ماي أيضاً .

وقال دْيُود :

— « سوف تملأ إللي ماي نفسها رملاً إذا لم تُقلع عن

هذا العمل . ويخيل إليّ أن كلبك القديم لم يحكّ جلده الجرب في يوم من الايام ، حكاً متواصلاً بقدر ما تفعل هي . وكذلك لم يكن يصرخ طول الوقت كما تفعل هي . »

فقال جيتر :

ـ « وحق الالـه والمسيح ، أنا أريد شيئاً من اللفت . وفي استطاعتي أن أمضغ كيساً كاملاً ، تقريباً ، من الآن حتى يحين وقت النوم . »



٣

كانت توسلات جيتّر الموصولة المكرورة ، من أجل اللفت ، قد أخذت تترك في نفس لوف أثراً متناقصاً شيئاً بعد شيء . كان لا يعي ان ثمة رجلاً يوجه اليه الخطاب . كان معنيّـاً بإللي ماي ليس غير .

وقال ديود وهو يَكِزُ أباه بقدمه :

ــ « إللي ماي تُجهد نفسها كثيراً من أجل لوف ، أليس كذلك ؟ وإذا لم تأخذ حذرها فقد ينفجر أحد أمعائها . »

وكان طوق المطاط الداخلي الذي حاول جيتّر ترقيعه ، على وشك أن يتفتّت . وكانت الدواليب نفسها في حـال أكثر اهتراءً . وكانت سيارة فورد ، التي بلغت من العمر أربعة عشر عاماً في تلك السنة ، تبدو وكأنها عاجزة عن أن تنهض متماسكةً على دواليبها الاربعة ريثما يعيد جيتّر الطوق المطاطيّ إلى العجلة ، وبالتالي فهي أشدّ عجزاً عن التماسك ريثما تُثقَل بالسنديان الاسود في رحلة إلى اوغوستا . وكان غطاء السيارة قد فُقد منذ سبع سنوات أو ثماني سنوات ، وكان حائلهـا الواقي ،

الذي لم يبق غيره ، مشدوداً إلى جسمها بسلك حديدي صدئ . وكانت جميع النوابض (الراسّورات) والانسجة المصنوعة من شعر الخيل قد اختفت من الوسائد . وكان الغلمان قد نزعوا المقاعد وفككوها ليروا أيّ شيء في داخلها ، ولم يحاول أحدٌ أن يجشّم نفسه عناء إعادتها إلى وضعها السابق .

ولم تتحسّن هيئة السيارة عندما غودر جهاز التبريد منذ عدة سنوات ، في بعض الطريق . فوضع جيتر مكانه صفيحة صدئة من صفائح شحم الخنزير ، بعد أن ثقب أعلى المحرّك ، وشدّها إلى أنبوب الماء . ولم يكن في طاقة تلك الصفيحة أن تسدّ مسدّ جهاز التبريد ، ولكنها كانت على أية حال خيراً من لا شيء . وكان من عادة جيتر ، إذا ما اعتزم الذهاب إلى مكانٍ ما ، ان يملأ صفيحة الشحم حتى الشفة، ويثب إلى السيارة فيسوقها حتى يفيض الماء ، ويقف المحرّك متميزاً من شدة الحرارة . وعندئذ يترجل جيتر ويبحث عن نُهير يملأ الصفيحة من مائه كرةً أخرى . وكانت سائر أجزاء السيارة في حالٍ مثل هذه . وكان الدجاج قد اتخذ منها مجثماً له — يوم كان عند آل ليستر دجاجٌ يبحث عن مجثم — فإذا هي منقّطة مرقشة كالدجاجة البرية . والآن ، بعد ان لم يبق في الفناء دجاج ما ، لم يجشّم أحدٌ نفسه مشقة تنظيف السيارة . إن جيتر لم يفكّر يوماً في أن يعمل عملاً كهذا ، وكذلك لم يفكّر أحدٌ غيره البتة .

وكانت إللي ماي قد جرّت نفسها من أقصى الفناء إلى أقصاه. وكانت قد انتهت الآن إلى أن تصبح في متناول لوف ، وتقعد قريباً من كيس اللفت . وكانت اجرأ منها ، في أيما وقت

مضى ، أيضاً ، وقد أفلحت في حمل لوف على النظر اليها من غير أن يزعجه مشهد شفتها الشرماء . وكان في شفة إللي ماي شقّ عرضه ربعُ بوصة يقسم جانباً من فمها إلى قسمين غير متساويين . وكان الشقّ ينتهي فجاءةً تحت منخرها الاسفل تقريباً . وكانت لثتها العليا واطئة . وبسببٍ من ان لثاتها كانت متقدة الاحمرار فقد جعلها الشرم الذي في شفتها تبدو وكأن الدم يقطر من فمها بغزارة . وكان جيتر يقول ، طوال الخمسة عشر عاماً الماضيات ، إنه سوف يخيط شفة إللي ماي ، ولكنه لم يوفّق حتى الآن إلى شيء من ذلك .

والتقط دْيود قطعة من الخشب متهرئة كانت قد سقطت من جدار المنزل ، وقذف بها أباه ، من غير أن يكفّ عن التحديق إلى إللي ماي ولوف . لقد أذهلته أعمالهما بقدر ما أذهله مسلك إللي ماي .

وقال جيتر :

ـ « ماذا تريد الآن ، يا دْيود ؟ ماذا دهاك حتى أخذت ترشقني بالقطع الخشبية على هذا الشكل ؟ »

فقال دْيود :

ـ « إللي ماي تمزح وتعبث . »

وتطلّع جيتر عبر الفناء حيث كان لوف وإللي ماي جالسين جنباً إلى جنب . وحجب جذعُ إحدى شجرات الأزدرخت عن ناظره جزءاً مما كان يجري هناك ، ولكنه استطاع أن يرى انها كانت تجلس على رجلي لوف الممدودتين ، مباعدةً ما بين ساقيها عند ركبتيه ، وانه كان يقدّم اليها قرص لفت من الكيس المنطرح أمامه .

وقال دْبود :

— « إللي ماي تمزح وتعبث ، أليس كذلك ؟ »

فقال جيتّر :

— « أحسب اني اخطأت في تزويج بيرل للوف . إن بيرل لم تُجعل قطّ لتكون زوجة لوف . انها لا تُعنى بحاجات لوف، ولا تبالي مطلقاً بما يمكن أن يقوله الناس . وهي ليست الفتاة الجديرة بأن تكون زوجة للوف . إنها غريبة الاطوار . وأحسب انها تفضّل ان تذهب إلى اوغوستا مثل غيرها من الفتيات . إن أياً منهن لم تكن راضية عن البقاء هنا . انهنّ لسن مثلي ، لأني أفضّل الأرض على العمل في مصنع من مصانع القطن اللعينة . انك لا تستطيع ان تشمّ هناك عبق نار الرتم ، وعندما يحين أوان حرث الارض وزرعها ينقبض صدرك ولكنك لا تدري ما الذي يؤلمك تماماً . لقد حدثني الناس عن هذا الحنين إلى الربيع في مصانع القطن ، ولستُ أذكر كم مرةً فعلوا . ولكن حين يبقى الرجل في أرضه فأنه لا يحسّ مثل هذا الأحساس في هذه الفترة من السنة ، لأنه يستطيع أن يستروح هنا عبق الرتم المشتعل ، ويحسّ ان النسيم العليل الهابّ عبر الحقول المحروثة يتغلغل في بدنه . وهكذا بدلاً من أن يوجع الحنين قلبه دون أن يدري ما الخلل الذي في جسمه ، كما يحدث في مصانع القطن ، يشعر المرء هنا ، على الارض ، انه أحسن حالاً مما كان في أي وقت مضى . ان فصل الربيع لن يسمح لك بأن تخدعه بالاختباء في داخل مصنع قذر . انه يعرف ان عليك ان تقيم على الارض لكي تظل في صحة جيدة . وسبب ذلك ان البشر هم الذين بنوا المصانع . لقد خلق الله الارض ،

ولكنك لا تراه أبداً يبني مصنعاً من مصانع القطن اللعينة . من أجل هذا تراني اعقل من أن أذهب إلى هناك مثل سائر الناس . اني سأبقى حيث أراد الله ان أكون . »

وقال دْيود :

— « إللي ماي تعمل وكأنها زوجة لوف . »

وحوّلت إيدا ثقل جسدها من إحدى قدميها إلى الأخرى . كانت واقفةً في مكانها عينه من السقيفة الامامية ، ذلك المكان الذي اتخذته منذ أن وفد لوف على الفِناء . وكانت قد سمرت عينيها فترة طويلة من الزمن على لوف وإللي ماي .

وقال جيتر :

— « لعل الله أراد أن تجري الامور على هذا الشكل . لعله يعرف عن ذلك أكثر مما نعرف نحن غير المخلّدين في الارض . إن الله داهية عجوز . أنت لا تستطيع أن تخدعه ! إنـه يهتم بتفاصيل صغيرة لا نقف نحن البشر لحظة واحدة ونفكر فيها . وهذا هو السبب الذي من أجله لن أترك الأرض وأذهب إلى اوغوستا لأعيش في مصنع من مصانعها اللعينة . لقد وضعني الرب هنا ، وهو لم يقلْ لي قط أن أرحل إلى هناك . من أجل ذلك بقيت في أرضي هذه . ومن يدري ؟ فلعلي إذا حاولت نقل أمتعتي إلى هناك لأعمل في المصانع كلّفني الذهاب والاياب ثمناً غالياً آخر الامر . وقد يغضب الربّ لعملي ذاك ، ويحكم عليّ بالموت . وقد يدعني ، من ناحية ثانية ، أبقى هناك حتّى يأتي أجلي الطبيعي ولكنه يزعجني طول الوقت بأشياء شيطانية صغيرة . تلك هي الطريقة التي يُنزل بها عقابه في بعض الأحيان . إنه يدعنا نعيش ، في هدوء كثير ، ويزعجنا عند كل خطوة

حتى نقول يا ليتنا متنا منذ زمن بعيد ودُفنّا في التراب . لهذا السبب لا أريد أن أسارع إلى المصانع كما فعل كل من كان عائشاً حول فولر . لقد ذهبوا إلى هناك ، فاجتاحهم جميعاً أسفٌ شديد على الارض التي فارقوها . ولكنهم لا يستطيعون العودة . إن عليهم أن يبقوا هناك ، الآن . ذلك هو القصاص الذي أنزله الله بهم بسبب مغادرتهم الأرض . إنه سوف يزعجهم عند كل خطوة يخطونها ، إلى أن يأتيهم الموت . »

وقال ديود :

— « أُنظر إلى هذا المزاح الذي تقوم به اللي ماي . إنها تُحسن هذا الفن منذ عهد بعيد على ما يظهر ! »

فصاح جيتر عبرَ الفِناء :

— « بحق الاله وحق المسيح ، يا لوف ، ماذا تخبرني عن هذا اللفت الذي في الكيس ؟ أهو محشو بالديدان اللعينة ذات الامعاء الخضر كاللفت الذي كان عندي ؟ أنا مشتهٍ منذ الربيع الماضي ان آكل شيئاً من اللفت الجيد . ولو لم يبع الكابتن جون جميع بغاله ويمتنع عن إعطائي السماد على حسابه لخرجت بمحصول ضخم من اللفت ، هذا العام . ولكنه حين باع البغال ، وانتقل إلى أوغوستا قال انه لا يريد أن يعرّض نفسه للأفلاس بأن يتركنا نحن العاملين في أرضه لقاء نسبة من الغلة نشتري السماد على حسابه في فولر . لقد قال ان من العبث ان تحاول ادارةَ مزرعة بعد اليوم ، سواء أكان عندك محراث واحد أم خمسون محراثاً . وقال ان في استطاعته ان يكسب مقداراً أكبر من المال إذا أدار مزرعته من غير محاريث . وهذا

هو السبب الذي جعلنا لا نجد حاجتنا من الطعام والسعوط أبداً . وتقول إيدا انها مضطرة إلى شيء من السعوط تتنشقه بين حين وحين لأن ذلك يخفف من حدة الجوع ، في ما يقولون ، وهو شيء صحيح في الواقع . وأنا كلما بعتُ حملاً من الحطب اشتريت دزينة من جرار السعوط ولو لم يكن معي مال اشتري به شيئاً من الطحين واللحم ، لأن السعوط شيء لا يستغني عنه الانسان . فحين يصيبني ألم شديد في البطن ، أسارع إلى تنشق قليل من السعوط ، فلا أحس بالجوع طوال ذلك النهار . ليس هناك ما هو أحسن من السعوط لابقاء الانسان على قيد الحياة .

« ولكني لم أستطع أن أزرع شيئاً من اللفت هذه السنة . لم يكن عندي بغل ، ولم يكن عندي سماد . أوه ، كان عندي بضعة أثلام صغيرة مدوّدة ، هناك في الحقل ، ولكن المرء لا يستطيع أن يدير أيّ مزرعة إذا لم يكن عنده بغل يحرثها به . إن المجرفة لا تصلح إلاّ للقطن أو للذرة . ومن اضاعة الوقت أن تحاول زرع اللفت بالمجرفة . واحسب ان هذا هو السبب الذي جعل تلك الديدان الملعونة ذات الاحشاء الخضر تدخل إلى قلب كل قرص من أقراص ذلك اللفت . لم يكن عندي بغل أحرث الارض به ؛ لذلك طلعتْ كلها مدوّدة .

« هل كنت منتبهاً لما قلته لك ، يا لوف ؟ إنك لم تعطني أيّ جواب عن ذلك اللفت ، حتّى الآن . إن شهوتي إلى اللفت شديدة إلى درجة أوجعت بطني . ويخيّل إليّ اني أحبّ لفت الشتاء بقدر ما يحب الزنجي البطيخ . أنا لا أرى أي فرق بين الامرين . إن اللفت هو أطيب شيء ذقته في حياتي . »

ولم يرفع لوف بصره اليه . كان يقول شيئاً لأللي ماي ، ويصغي لما كانت تقول .

وكان لوف يخبر جيتر دائماً انه لا يريد ان تكون له أي علاقة بأللي ماي لأنها مشرومة الشفة . ويوم أقبل على جيتر يخطب ابنته بيرل ، قال إنه قد يفكر في الزواج من إللي ماي إذا أخذها جيتر إلى اوغوستا وعهد إلى أحد الاطباء في ان يخيط فمها . وقلّب جيتر المسألة ودرسها ملياً ، وقرّر ان من الخير أن يدع لوف يأخذ بيرل لأن نفقات إجراء عملية التجميل قد تزيد على الفائدة التي سوف يحصل عليها من ذلك الزواج . في حين أن اعطاءه بيرل كان يمثل آنذاك ربحاً صافياً بالنسبة إلى جيتر . لقد قدّم اليه لوف بعض الدّثُر والاغطية ونحو غالون من زيت الماكينات ، هذا عدا اجره الاسبوعي الكامل ، وهو يبلغ سبعة دولارات . وكان جيتر محتاجاً إلى المال أكثر من حاجته إلى أي شيء آخر ، ولكن الاشياء الاخرى كانت تعوزه أيضاً .

وكان جيتر قد اعتزم أن يأخذ إللي ماي إلى أحد الاطباء منذ بلغت الثالثة أو الرابعة من العمر ، حتى إذا جاء رجلٌ في مقبلات الايام لخطبتها لم يكن ثمة ما يحمله على الزهد فيها . ولكن أحوالاً كانت تنشأ دائماً فتحول دون إنفاذ ما عزم عليه من أمر . وكان يقول لنفسه ، كلما فكّر في هذه المسألة ، إنه لا بدّ سيأخذها إلى الطبيب في يومٍ من الايام .

وحين تزوج لوف من بيرل قال إنه يحب إللي ماي أكثر من حبه أختها ، ولكنه لم يرد أن يبني بفتاة ذات شفة شرماء .

لقد عرف ان الزنوج سوف يسخرون منه . وإنما كان ذلك في الصيف الماضي ، قبل عدة أسابيع من إحساسه بحبّ غامر نحو بيرل ، حبٍّ جعله يعمل كل ما يستطيع أن يفكّر فيه لكي تكفّ عن النوم على الارض ، فوق حشيّةٍ من قشّ . وكانت غدائر بيرل الطويلة الشقراء المتدلية على ظهرها ، وعيناها الزرقاوان الشاحبتان توقع الدوار في رأس لوف . لقد اعتقد ان ليس ثمة فتاة أجمل منها في العالم . وعلى أية حال ، فما من رجل قُدّر له يوماً ان يرى بيرل إلاّ خامرهُ مثل هذا الاعتقاد . لقد كان من المتعذر عليها ان ترتدي ملابسها ، بل ان تشوّه نفسها ، على نحوٍ يجعلها مبتذلة أو عادية . لقد كان جمالها يزداد تألقاً يوماً بعد يوم .

ولكنّ رغبات لوف ظلت موضع الاهمال . وكانت بيرل آنذاك أشدّ عزماً منها في أيما وقت مضى على ان تجتنبه ما وسعها ذلك . والآن وقد جرّت إللي ماي نفسها عبر الفناء كله ، وانتهت إلى ان تقعد على رجليه ، راح لوف يفكّر في إللي ماي وحدها . ففي ما عدا شفتها الشرماء كانت إللي ماي لا تقلّ جاذبية عن أيما فتاة قد يقع عليها المرء في الكثبان المحيطة ببلدة فولر . لقد أدرك لوف ذلك إدراكاً تاماً . لقد جربهنّ جميعاً ، بيضاواتٍ وزنجيات .

وقال ديود مجيباً والده :

— « إن لوف لا يفكر في اللفت ، الآن . إنه يريد أن يصيد إللي ماي بصنارته . إنه لا يبالي الآن بالعاهة التي في وجهها ، فهو لا يعتزم تقبيلها . إن أحداً لن يقبّلها ، ولكنّ

هذا لا يعني ان أحداً لن يرغب في أن يعابثها . لقد سمعتُ الزنوج ، منذ فترة قريبة ، يتحدثون عن ذلك هناك ، في الطريق غير بعيد عن منشرة الخشب العتيقة . لقد قالوا ان في استطاعتها أن تفوز بأيّ رجل ترغب فيه ، إذا ما خبأت وجهها عنه . »

فقال جيتر مغضباً :

— « كفّ عن قذف هذا البيت القديم بتلك الكرة . انك ان لم تفعل جدير بأن تشقّ الحائط . ولن يحتمل البيت العتيق طويلاً بعد اليوم . إن الطريقة التي تقذف بها كرتك ستجبره على الانهيار في يوم من الايام . اني أقولها بصراحة : كنتُ أتمنى لو كان لك نصيب أكبر من الادراك . »

وأطلت الجدة العجوز عائدةً من الحقل ، وهي تظلع بعض الشيء ، وعلى ظهرها كيسٌ مليء بالأغصان الميتة . لقد جرجرت قدميها عبر الرمل العميق الذي يغطي طريق التبغ ، وسحبتهما فوق رمل الفناء القاسي ، غير ناظرة ذات اليمين أو ذات الشمال . حتى إذا بلغت درجات البيت الأمامية طرحت الحمل عن ظهرها ، وقعدت لتستريح لحظةً قبل أن تمضي إلى المطبخ . كانت أنّاتها ، وهي تفرك جانبيها ، أعلى من المألوف. وإذ قعدت على الدرجة الدنيا ، ورجلاها في الرمل وصدرها يكاد يمسّ ركبتيها الحادتين ، بدت أكثر من أي وقت سلفَ أشبهَ ما تكون بكيس من الخرق السوداء الوسخة رُبط في غير إحكام . ولم تلقِ بالاً لأحد ممن كان حولها ، ولم يحسّ أحد أكثر من إحساس عابر انها ذهبت إلى مكان ما ثم عادت منه . ولو انها قصدت إلى الغابة ولم ترجع ، إذن لما عرف أحدٌ طوال

أيام عديدة انها قضت نحبها .

وراقب جيتر صهره لوف من زاوية عينه فيما كان يحاول ان يلصق رقعة جديدة بالطوق المطاطي المتشقق . لقد لاحظ ان لوف كان على بعد عدة ياردات من كيس اللفت ، فانتظر متذرعاً بالصبر بينا كانت الشقة تتسع أكثر فأكثر كل دقيقة . لقد نسيَ لوف أهميةَ كيس اللفت البالغة وضرورة صيانته . وما دامت إللي ماي تشعّث شعره بيديها فهو خليق بأن ينسى كيس اللفت . لقد جعلته ينسى كل شيء .

وقال دْيود :

– « ما تظنّ أنهما سيعملان بعد هذا ؟ لعل لوف يودّ أن يأخذها معه إلى مستودع الفحم ويبقيها هناك طول النهار . . »

وأحكمت إيدا ، التي ما برحت واقفةً على السقيفة الأمامية ، في مثل جمود العمود ، شَدَّ ثوبها على صدرها . كانت ريح شباط الباردة محتملة تحت أشعة الشمس ، أما عند السقيفة الامامية وفي الظلّ ، فكانت تنفذ إلى العظام مباشرةً . وكانت إيدا قد أصيبت سنوات عدة بداء البلاّغرا * ، وكثيراً ما قالت انها تشكو البرد في كل حين إلا في صميم الصيف .

وقال دْيود :

– « إنه يريد أن يُولدها غلاماً . وهو يستعدّ لهذا العمل في هذه اللحظة ، أيضاً . إنه ما كان يتركها تقترب منه إلى هذا الحدّ في الايام الماضية . لقد سبق ان قال انه لن يقترب

* داء غير معد ينشأ عن سوء التغذية ، ويؤدي الى خشونة في الجلد ، واضطراب عصبي خطير ، وإسهال . (المعرب)

من إللي ماي اقتراباً يمكّنه من أن يمسّها بعصا من العصي ، أبداً ، وذلك لأنه لا يحب النظر إلى وجهها . ولكنه لا يلقي بالاً إلى هذا ، الآن ، أليس كذلك ؟ وأنا أراهن أنه لا يرى شفتها الشرماء في هذه اللحظة . ولو انه رآها إذن لما اهتمّ بها أيّ اهتمام . »

وكان عدد من الزنوج قد انتهوا إلى طريق التبغ في سبيلهم إلى فولر . وكانوا على مبعدة بضع مئات من الاقدام عندما لاحظوا ، أول ما لاحظوا ، آل ليستر ولوف في الفناء . ولكنهم لم يلاحظوا ما كان لوف وإللي ماي يعملانه في الجانب الآخر قرب شجرة الازدرخت ، إلا عندما أمسوا أمام المنزل تقريباً . فكفّوا عن الضحك والكلام ، وتمهلوا في السير حتى كادوا يقفون من غير حراك .

وناداهم ديُود في صوت عال ، مسمياً إياهم بأسمائهم . ولكن أياً منهم لم ينبس ببنت شفة . لقد وقفوا وتأملوا .

وقال واحد منهم :

— « مرحباً ، كابتن لوف ! »

ولم يسمع لوف . وما عاد آل ليستر يأبهون للزنوج . وكان من عادة الزنوج المارين بالمنزل ان يلقوا نظرةً على أفراد اسرة ليستر ، ولكن فئة قليلة جداً منهم كان عندها ما تقوله . لقد تحدثوا في ما بينهم عن آل ليستر ، وهزئوا بهم . وكانوا يتحدثون إلى سائر الناس البيض ، متمهلين عند بيوتهم . وكان لوف واحداً من الرجال البيض الذين يحبون التحدث معهم .

وأدار جيتر أنبوب المضخة في صمام الطوق المطاطيّ وحاول أن يملأه هواءً . كانت المضخة صدئة ، وكان المكبس ملوياً ،

وكان الانبوب مثقوباً من أدناه ثقباً جعل الهواء يفرّ قبل أن يجد فرصة للوصول إلى الصمام . وكان معنى ذلك ان جيتر سوف يحتاج إلى أسبوع كامل لكي يضخّ ثلاثين رطلاً من الهواء في دولاب سيارته . ولقد كان في ميسوره ان يزوّد الدواليب بمقدار أكبر من الهواء لو انه حاول أن ينفخها بفمه .

وقال جيتر :

— « يبدو اني لن أستطيع الذهاب بحمل الحطب إلى اوغوستا قبل الاسبوع التالي . كم أتمنى لو كان عندي بغل . كان في استطاعتي أن أنقل إلى هناك حملاً من الحطب ، كل يوم تقريباً ، لو كان لي بغل . في آخر مرة قدتُ فيها هذه السيارة إلى اوغوستا انفجر كلٌ من هذه الدواليب اللعينة قبل أن أصل إلى هناك وأعود . ويخيّل إليّ ان أحسن ما يمكن عمله هو حشوها بقشور الاثمار والحبوب ثم ركوبها على هذه الحال . ذلك ما نصحني احد الرجال بأن أصنعه ، وأحسب انه كان على صواب . إن هذه الدواليب والاطواق المطاطية الداخلية لم تعد صالحةً للعمل . »

وتقدّم الزنوج الثلاثة بضع خطوات إلى الامام ثم وقفوا من جديد . لقد ظلوا من الفناء على مدى النظر ، وانتظروا لكي يروا أيّ شيء كان يعمله لوف . وبعد أن أجابهم على أول كلام وجهوه اليه أدركوا من لهجته انه في شغل شاغل ، فليس ينبغي لهم أن يزعجوه .

وكان ديود قد طرح كرة البيسبول جانباً ومشى بضع خطىً قرّبته من إللي ماي ولوف أكثر من ذي قبل . ثم إنه قعد على الارض على مقربة منهما ، وانتظر ليرى ما الذي سيعملانه بعد .

وكان لوف قد كفّ عن أكل اللفت ، ولم تأكل إللي ماي غير جزء من قرص .

وقال ديود :

ــ « هؤلاء الزنوج يعتقدون ان لوف لن يقدم على عمل شيء . لقد قالوا هناك في منشرة الخشب العتيقة ان احداً لا يمكن أن يقرب إللي ماي ، إلا بعد ان يهبط الليـل . وأحسب ان لوف سوف يقول الشيء نفسه بعد ذلك . »

٤

وفي عناية ، وضع جيتّر المضخة جانباً ، وانسلّ خلسة إلى زاوية المنزل . ودعّم قدميه ، واستند إلى الحائط المتهريء وأنشأ ينتظر . لقد كان في ميسوره أن يرى كل شيء ، من موقعه ذاك . فإذا تطلّع إلى أمام رأى إللي ماي ولوف تجاهه ، وإذا ما أراد أن يرى إيدا الواقفة في السقيفة الامامية لم يكلفه ذلك أكثر من التفاتة صغيرة . لم يكن عنده الآن ما يعمله غير الانتظار . وكان لوف يبتعد أكثر فأكثر عن كيس اللفت .

وأزاحت إيدا عود السعوط ، كرةً ثانيةً ، إلى الزاوية الأخرى من فمها . لقد راقبت لوف وإللي ماي منذ اللحظة الاولى ، وكلما اقترب احدهما من الآخر تعاظم اطمئنانها وهدوؤها . وكانت تنتظر ، أيضاً ، لكي تطلب إلى لوف أن يبعث بيرل اليها حتى تراها قريباً . إن بيرل لم تزر بيت أبيها منذ أن زُفّت إلى بعلها .

وكانت بيرل تشبه إيدا منظراً ومسلكاً إلى درجة تجعل كل



امريءٌ يدرك للنظرة الأولى انهما امّ وابنتها . وحين تزوجت بيرل من لوف قالت لها إيدا ان عليها أن تفرّ من منزله قبلَ ان تحمل ولداً ، وتقصد إلى أوغوستا فتعيش في بعض المصانع . بيد أن بيرل لم تكن تملك الشجاعة التي تمكّنها من الفـرار وحدها . كانت خائفة . ولم تكن تدري ما الذي سيحلّ بها في مصانع القطن ، وكانت أصغر من أن تفهم الاشياء التي سمعتها عن الحياة هناك . وبرغم انها كانت بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر ، فقد كانت لا تزال تخاف الظلام ، وكثيراً ما قطّعت معظم ساعات الليل تبكي وتنشج فيما هي تستلقي مرتجفة في حشيّة القش الموضوعة على الارض . وكان لوف معها في الغرفة ، وكانت الابواب موصدة ، ولكن زحف الظلمة بدا وكأنه يحمل اليها شعوراً بالاختناق لا يُحتمل . ولم تُخبر قطّ أحداً بمبلغ خوفها من الليالي المظلمة ، ولم يعرف أحدٌ السبب الذي يدعوها إلى ذلك البكاء كله . وظنّ لوف ان مردّ ذلك إلى شيء في دماغها . فلم يكن ديود على كثير من العقل ، وكذلك كان واحد أو اثنان من أولاد جيتر ، فكان طبيعياً ان يفكّر لوف ان زوجته مصابة بالعلة نفسها . والحقّ ان بيرل كانت ارجح عقلاً من أيٍّ من أفراد اسرة ليستر ، وهو شيء ورثته ، كما ورثت لون شعرها وعينيها ، من أبيها . وكان أبوها ذاك قـد مرّ بالمنطقة ذاتَ يوم ثم لم يرَ أحدٌ وجهه بعد ذلك . ولقد أخبر إيدا انه أقبلَ من كارولينا ، في طريقه إلى تكساس . كان هذا كل ما عرفته عنه .

ولكن بيرل كانت قد أخذت تفقد شيئاً من خوفها . فبعد ان انقضت ثمانية أشهر على مقامها في بيت لوف غدت أكثر

شجاعة ، شيئاً بعد شيء ، حتى لقد اجترأت على أن تفكر في ان تفرّ ذات يوم إلى أوغوستا . إنها لم ترد أن تعيش في التلال . ولم يكن مشهد مستنقعات « سافاناه » الموحلة من جانب ، وغبارُ مستودع الفحم الاسودُ من جانب آخر ، يَعْدِلان جمالاً تلك الاشياء التي رأتها ذات يوم في أوغوستا. لقد قصدت إلى تلك المدينة مرةً مع جيتر وإيدا ، ورأت بعينيها الاثنتين فتياتٍ يضحكن خالياتِ البال . إنها لم تدرِ أكنّ يعملن في مصانع القطن أم لا ، ولكن ذلك ما كان ليقدّم أو ليؤخر بالنسبة اليها . فهناك في طريق التبغ لم تفترّ شفتا إنسان عن ابتسامة قطّ . وهناك كان على الفتيات ان يقتلعن الاعشاب المؤذية من حول القطن في الصيف ، وان يجنينه في الخريف ، وان يحتطبن في الشتاء .

وغادر جيتر موقفه عند زاوية المنزل وراح يتمشّى وئيداً عبر الفِناء . لقد رفع إحدى قدميه ، وأبقاها معلقةً في الهواء بضع ثوانٍ ، ثم أراحها أمامه على الارض . على هذا النحو كان يتعقبُ الارانب في كثير من الاحيان في الغابات والادغال . كان يتفق ان تكون قاعدة في أرومة شجرة مقطوعة مجوّفة ، أو في حُجر في إحدى الوهاد ، فيزحف جيتر اليها في سكون شديد إلى درجة تجعلها لا تدري مطلقاً كيف وقعت في شَرَك الصائد . لقد كان الآن يزحف لينقضّ على لوف .

حتى إذا انتهى جيتر إلى وسط الفِناء ، وثب فجأةً وثبةً هائلة حطّته ، في مثل لمح البصر ، فوق كيس اللفت . كان في ميسوره أن ينتظر بضع دقائق أخرى ، وينتهي اليه بمثل السهولة التي اعتاد أن يقبض بها على الارانب . ولكن لم

يكن لديه ، الآن ، وقت حتى يضيعه . فقد كان توقه إلى الحصول على اللفت أعظم جداً من توقه في أيما وقت مضى إلى اقتناص الارانب .

وفي يأس ، طوّق الكيس بكلتا ذراعيه ، وهصره هصراً محكماً جعل عصارة اللفت تنبجس في مختلف الجهات من خلال نسيج الخيش المتهدل . وطفرت العصارة إلى عينيه ، فكادت تُعميه . ولكن ذلك وقع في قلب جيتر موقعاً أشبه بموقع المطر في السماء ، بل موقعاً أطيب وأعذب .

وخطت إيدا خطوة واحدة إلى الامام ، مقيمةً توازنها على واحد من أعمدة السقيفة الامامية . وهبّ ديود واقفاً على قدميه ، ممسكاً بشجرة الازدرخت القائمة خلفه .

والتفت لوف في الوقت المناسب ، فرأى إلى جيتر يختطف الكيس ويعانقه بذراعيه . وحاولت إللي ماي أن تبقي لوف حيث هو ، ولكنه وُفّق إلى الافلات من يديها . ووثب نحو جيتر وكيس اللفت . فما كان من إللي ماي إلا أن سارعت إلى الامساك به في ضراوة ، من قدمه ، فهوى على الأرض الصلبة معفراً وجهه بالتراب .

وكان كلٌ من أفراد أسرة ليستر ، وقد اعتصموا جميعاً بالصمت ، مستعداً للعمل المشترك في غير ما إبطاء . واقتحم دْيُود الفِناء في اتجاه والده . وهبطت إيدا درجات الشرفة ، وجرت خلفها الجدة العجوز . لقد تحلّقوا كلهم حول جيتر وكيس اللفت ، وانتظروا . وكانت إللي ماي ما تزال متشبثة بقدم لوف ، رادة إياها إلى وراء كلما وفق إلى أن يقترب ، متلوّياً ، بضعة إنشات من جيتر . وهكذا لم تصل رؤوس

أصابع لوف إلى أبعد من نقطـة تقع على بعد ثلاثة أقدام من الكيس .

وقال دْيود :

— « أنا لم أكذب مطلقاً في ما قلته لك عن إللي ماي ، ايه ؟ هل كان ما قلته صحيحاً ، يا بابا ؟ »

فقطبت إيدا جبينها وقالت :

— « أُسكت يا دْيود . ألا ترى ان والدك لا يجد متسعاً من الوقت للتحدث في أيّ شيء ؟ »

ودفع جيتر ذقنه فوق قمة الكيس ، وحدّق النظر إلى لوف . كانت عينا لوف جاحظتين ملتهبتين . لقد فكّر في السبعة الاميال ونصف الميل التي مشاها ذلك الصباح على طول الطريق إلى الجانب الآخر من فولر ، ذهاباً واياباً ، فأرمضَ قلبَهُ ذلك المشهدُ الذي بَصُرَ به الآن .

وكانت إللي ماي تبذل جهدها لتردّ لوف إلى موقعه السابق . وكان هو يحاول الافلات لكي يستنقذ كيس اللفت ويصدّ آل ليستر عنه . إن الشيء الذي كان يحذره حين انتهى إلى بيت ليستر قد حدث بأسرع مما كان يتوقع حتى لقد غدا لا يدري ماذا يفعل . وكان حذره ذلك قبل أن تبدأ إللي ماي في الترحلق بعجيزتها الجرداء فوق الفناء الرملي متخذةً سبيلها اليه . لقد أدرك الآن مبلغ الحماقة التي تكشّف عنها إذ فقدَ صوابه ، وفقد ما اشتراه من اللفت أيضاً !

وكان الزنوج الثلاثة يتلعون أعناقهم لكي يروا كل شيء . لقد راقبوا إللي ماي ولوف في حماسة متعاظمة حتى هبط جيتر ، فجاءة ، على كيس اللفت ، فهم الآن يتساءلون ما الذي سيقع

بعد ذلك في فناء الدار .

وعثرت إيدا والجدة العجوز على عَصَوَيْن كبيرتين ثقيلتين ، وحاولتا ان تقلبا لوف على ظهره لكي يكون في ميسور إللي ماي ان تبلغه من جديد . وكان لوف يبذل غاية جهده لحماية كيسه ، لأنه عرف جيداً انه إذا ما وُفّق جيتّر إلى أن يبتعد عنه عشرين خطوة فلن يكون في مقدوره أن يمسك به قبل ان يلتهم أقراص اللفت كلها . كان جيتّر شيخاً عالي السنّ ، ولكنه كان قادراً على أن يعدو مثل الارانب ، ساعة يشاء .

وقالت إيدا :

— « لا تخف من إللي ماي ، يا لوف . إن إللي ماي لن تؤذيك . إنها هائجة جداً ، ولكنها ليست من ذلك النوع الفظ الغليظ . إنها لن تؤذيك . »

ونخسته إيدا بالعصا وأكرهته على أن يكفّ عن محاولاته إلى الابتعاد عن إللي ماي . ولكزت أضلاعه بأقصى ما تستطيع من عنف وهي تعض شفتها السفلى بأسنانها .

وقال ديود :

— « يبدو وكأن هؤلاء الزنوج سوف يقبلون على الفناء لمساعدة لوف . ولكن إذا حاولوا ذلك فسوف أسحقهم بأحدى الصخور . ليس من شأنهم أن يساعدوا لوف . »

فقالت إيدا :

— « إنهم لا يفكرون في المجيء إلى هنا . إن الزنوج أعقل من أن يتدخلوا في شؤون البيض . إنهم لا يجرأون على الاقتراب . »

ولم يقترب الرجال الملوّنون . لقد ودّوا لو يهرعون لنجدة لوف ، لأنهم كانوا أصدقاءه ، ولكنهم كانوا أكثر اهتماماً بمعرفة ما الذي ستعمله إللي ماي منهم بأنقاذ أقراص اللفت .

وتصبّب العرق من إللي ماي كما يتصبّب من صبيّ الحراثة . وغطى التراب جسم لوف فهي تحاول ان تزيله عنه بطرف ثوبها لكي تعاود عملها . وحاول لوف أن يثب وثبة أخيرة يائسة نحو الكيس . فوُفّق إلى أن يدنو منه قدماً واحداً تقريباً . ولكن إيدا ضربته على رأسه بعصاها السنديانية ضربةً قوية طرحته أرضاً وهو يئن أنيناً واهناً . وفي وثبة واحدة ، انقضّت إللي ماي عليه . والواقع ان رشاقتها الهرّية المهتاجة كادت تذهب بعقله . وكانت اللي ماي قد قطعت أنفاسه إذ سقطت بثقلها كله على معدته العزلاء . وراحت تفحص جسده بركبتيها فحصاً موجعاً أشبه برفس البغال فهو لا يقوى على التنفس من غير أن يحسّ آلاماً حادة في رئتيه . لقد جعلته أعجز من أن يدافع عن نفسه . وفيما أمسكت إللي ماي به ، مسمّرة ذراعيه إلى الارض ، وقفت إيدا فوقه ، وفي يدها عمودها السندياني الثقيل ، وهي على أتم الاستعداد لأن تضربه على رأسه إذا ما حاول كرةً ثانية ان ينهض أو أن ينقلب على معدته . وانتظرت الجدةُ العجوز في الجانب الآخر رافعةً عصاها فوق رأسها مهدّدة باللجوء اليهما عند الحاجة . كانت تتمتم طوال الوقت ، ولكن أحداً لم يلتفت البتة لما كانت تحاول أن تقوله .

وقال جيتر :

— « هل يوجد دود ملعون أخضر الامعاء في جوف أقراص

اللفت هذه ، يا لوف ؟ وحق الالـه والمسيح ، إذا كانت مدوّدة ، فلن أعرف ما الذي سأعمله بها . لقد غثيت نفسي لكثرة ما أكلتُ من اللفت المدوّد ، بل اني لأصرح بأني كدت أفقد ديني . من العار على الالـه ان يدع الدود اللعين الاخضر الامعاء يدخل إلى أجواف اللفت . إننا نحن جماعة الفقراء نُغَش في جميع الصفقات . ومن يدري فلعل الرب لم يُرد للبشر أن يأكلوا اللفت على الاطلاق . لعلّه شاء أن يُزرع اللفت ليكون طعاماً للخنازير . ولكنه لم يَضع لنا ، في هذه الارض ، شيئاً مكانه . إن اللفت هو وحده الذي ينمو ، هنا ، في فصل الشتاء . »

وكانت إللي ماي ولوف قد انقلبا على نفسيهما عشر مرات أو أكثر ، مثل الخنافس . حتى إذا كفّا نهائياً عن ذلك كان لوف هو الاعلى وكانت إللي ماي تحته . وكانت إيدا قد لحقت بهما عبر الفِناء ، وكذلك الجدة العجوز ، ووقفتا مستعدتين لضرب لوف بعمودي السنديان إذا ما بدت عليه أول امارة تؤذن بمحاولته النهوض قبل ان تُطلق إللي ماي سراحه .

وفيما كان الآخرون في الزاوية القصوى من الفِناء ، هبّ جيتر ، على حين غرة ، واقفاً وضمّ كيس اللفت إلى معدته ضماً محكماً وولى هارباً عبر طريق التبغ إلى الغابة القائمة خلف حقل القطن القديم . ولم يتمهل ليلتفت ، من فوق كتفه ، إلى وراء ، إلا بعد أن أمسى على مبعدة نصف ميل تقريباً . وما هي إلا لحظة ، حتى اختفى في الغابة .

وضحك الزنوج حتى كادوا يعجزون عن الوقوف في وضع مستقيم . ولم يضحكوا على لوف ، ولكنّ مسلك آل ليستر هو

الذي بدا هزلياً جداً في أعينهم . لقد زوّدهم وجه إيدا الصارم وعزم إللي ماي الهائج ، بمشهد ما كان في وسع أيّ منهم ان ينظر اليه من غير أن يضحك . وانتظروا حتى هدأ روع القوم، ثم اتخذوا سبيلهم ، في تؤدة ، نحو فولر وهم يتحدثون عما شهدوه في فناء آل ليستر .

ورجعت إيدا والجدة العجوز إلى الشرفة ، وجلستا على درجاتها ، لكي تراقبا اللي ماي ولوف . لم يعد ثمة خوف من ان يفرّ لا بل انه لم يحاول الفرار ، الآن ، ولو مجرد محاولة .

وقال دْيود :

— « كم صندوقاً من الفحم يفرغ قطار الشحن رقم ١٧ كل صباح في المستودع يا لوف ؟ يبدو لي ان قُطر الشحن تكاد تستهلك ضعف ما تستهلكه قُطر المسافرين من الفحم . إن سائقي قُطر الشحن لا يكفّون عن إلقاء كتل ضخمة من الفحم إلى أكواخ الزنوج القائمة في محاذاة الخط الحديدي . وأحسب ان هذا هو السبب الذي من أجله يستهلكون مقداراً من الفحم أكثر من ذلك الذي تستهلكه قُطر المسافرين . إن قُطر المسافرين تنطلق في سرعة أكبر ، » ولذلك لا يجد السائقون الزنوج فرصةً لالقاء الفحم إلى الاكواخ الزنجية . ولقد رأيت مقداراً من الفحم يكاد يملأ صندوقاً كاملاً يُقذف به من بعض الشاحنات ، دفعة واحدة . وجماعة السكة الحديدية لا يعرفون شيئاً عن ذلك ، ايه ؟ ولو انهم عرفوا ، اذن لأجبروا السائقين على الاقلاع عن ذلك . وأنا أراهن ان اولئك السائقين يقذفون على طول السكة الحديدية كمية من الفحم أكبر من تلك التي تحرقها الماكينات تقريباً . وهذا هو السبب الذي يجعل الزنوج في

غير حاجة إلى تشقيف الحطب . انهم كلهم يشعلون فحم السكة الحديدية في أكواخهم . »

وكان لوف يلهث إلى حدٍ لم يمكّنه من أن يقول شيئاً .

ـ « لماذا لا تشعل في بيتك فحماً حجرياً بدلاً من الحطب ، يا لوف ؟ إن أحداً لن يكتشف ذلك . وأنا لن أشي بك ، إذا أردت أن تعمل شيئاً من هذا . إنه أسهل جداً من تشقيف الحطب كل يوم . »

وشرعت الجدة العجوز ، القاعدة قرب كيسها المليء بالأغصان الميتة ، تئن كرةً أخرى وتفرك جنبيها بجُمْع كفيها . ثم انها نهضت ، ورفعت الكيس فوق كتفها ودخلت البيت قاصدةً إلى المطبخ ، وهناك اضرمت النار في الموقد ، وقعدت إلى جانبها ريثما تأتي على العيدان اليابسة . كانت واثقة من ان جيتر لن يحمل اليها أيّ قرص من أقراص اللفت . إنه سوف يمكث في الغابة ويلتهم آخر قرص منها . وفيما هي تنتظر ان تخمد النار تطلعت إلى وعاء السعوط الموضوع على الرف ، ولكنه كان فارغاً ما يزال . لقد انقضى عليه نحوٌ من اسبوع وهو فارغ ، وما كانت إيدا لترشدها إلى الموضع الذي خُبئ فيه الوعاء المليء . والواقع انها لم تكن تفوز بشيء من السعوط إلا حين تعثر مصادفةً على الاناء مخبوءاً في مكانٍ ما ، فتأخذ منه مقداراً قبل ان ينهرها واحد من أفراد الأسرة . ولقد ضربها جيتر فطرحها ارضاً ، مرّاتٍ عديدة ، بسبب من ذلك ، وقال انه سوف يُميتها إذا ما قبضَ عليها تسرق السعوط كرةً أخرى . وكانت تمرّ بها أحوال تودّ فيها لو تموت شرط ان يسمحوا

لها ، مرةً واحدة على الاقل ، بأن تأخذ كل ما تحتاج إليه من سعوط .

وقال ديود :

— « لماذا لا يطلق الميكانيكيون صفاراتهم أكثر مما يفعلون يا لوف ؟ انهم يكادون لا يطلقون تلك الصفارات بالمرة . ولو كنت أنا سائق شاحنة لجعلت الصافرة تزعق طول الوقت . إن الصفارات ترسل صوتاً لا يقلّ عذوبة عن الصوت الذي يرسله زمور السيارة . »

وقعد دْيُود على ارومة الصنوبرة المقطوعة إلى أن نهض لوف وترنح عبر الفِناء متجهاً نحو طريق التبغ . وتلفت لوف حوله من كل جانب ، رجاة ان يجد جيتّر مختبئاً في مكان قريب ، برغم انه كان على يقين من ان جيتّر قد مضى إلى غابة الصنوبر القائمة خلف حقل القطن القديم ، وان من العبث إضاعة الوقت في محاولة البحث عنه والقاء القبض عليه . لقد فات أوان ذلك .

ولم تبرح إللي ماي مكانها . كانت مستلقية على ظهرها ، وكان العرق قد ألصق شعرها بجبينها وعنقها ، وكان ثوبها القرنفلي المخطط قد التوى تحت كتفيها ورأسها على نحوٍ صار معه وسادة تضطجع عليها . وبدا فمها وكأنه قد مزق ، وبدت لثتها العليا ذات الحمرة القانية أشبه شيء بجرح موجع يقطر دماً ، تحت منخرها الايسر . وارتعشت شفتها المشرومة ، وارتعد جسدها كله .

وقال دْيود :

— « ينبغي ان تعطيني تلك الوزرة حين تصبح في غنى

عنها . أنا لا أذكر اني لبست وزرة جديدة منذ فترة طويلة من الزمان . وابي يقول انه سوف يشتري لكل منا ، أنا وهو ، وزرة جديدة في يوم من الايام ، عندما يبيع مقداراً كبيراً من الحطب ، ولكني لا أثق مطلقاً بما يقول . إنه لن يبيع شيئاً من الحطب . أو قل انه لن يبيع أكثر من حمل واحد في كل مرة ، على الاقل . أنا لم اسمع بأنسان يبيع مقداراً من الاكاذيب أكثر منه . وفي ظني انه يكذب ، ولن يحمل الحطب إلى أوغوستا . إنه كسولٌ إلى درجة تجعله لا ينهض عن الارض إذا زلت به القدم . وذات مرة شهدته يمكث نحواً من ساعة كاملة في المكان الذي وقع فيه . إنه أكسل ابن زانية عرفته في حياتي ! »"

ومضى لوف إلى وسط الطريق ووقف هناك متردداً ، وقد باعد ما بين رجليه حفظاً لتوازنه ، وأخذ جسده يتمايل إلى أمام وإلى وراء كالشارب الثمل . ثم انه أخذ ينفض الرمل عن ثيابه ، ومن على شعره . لقد نفذ الرمل إلى جيوبه وحذائه . وحتى أذناه كانتا مليئتين به .

وتساءل دْيود :

— « متى ستشتري لنفسك سيارة ، يا لوف ؟ انك تكسب كومة من المال في مستودع الفحم ، فيجب ان تشتري سيارة فخمة ضخمة كتلك التي يملكها الرجال الاغنياء في اوغوستا . سوف اعلمك كيف تسوقها . أنا أعرف كل شيء عن السيارات. إن سيارة « فورد » التي عند أبي لم تعد جميلة الآن . ولكنْ حين كانت في حال جيدة كنتُ في بعض الاحيان أقودها في

سرعة تكاد تطيّر الدواليب عن جوانبها . ينبغي أن تختار واحدةً رُكّبَ لها زمور جميل كبير . فالصفارات والأبواق تحدث صوتاً لطيفاً ، أليس كذلك يا لوف ؟ متى ستشتري لنفسك سيارة ؟ »

ووقف لوف في وسط الطريق نحواً من ربع ساعة . ومن فوق الرتم الأسمر الحاني الرأس راح يتطلع إلى الغابة التي كان جيتر مختبئاً فيها . وبعد ان انتظر حتى لم يعد يعرف ما الذي يجب أن يعمله ، قرر آخر الأمر أن يمضي إلى بيته وإلى مستودع الفحم . وكان من عادة بيرل ان تقيم في المنزل إلى ان يبلغه ، فما إن يدخله حتى تفرّ من الباب الخلفي ثم لا تعود إلا بعد أن يغادر البيت . وحتى لو اتفق مرة ان بقيت في الغرفة عند دخوله فأنها ما كانت تنظر اليه أو تحدثه حديثاً ما . كان في ميسوره ان يرنو إلى شعرها الاشقر الطويل متدلياً على ظهرها ، ولكنّ ذلك كان كل شيء . كانت لا تدعه يقترب منها قرباً يمكّنه من النظر إلى عينيها . وإذا ما حاول ان يفعل ذلك فعندئذ تفرّ من غير ريب إلى غيضة الرتم .

وراقبته إيدا ودْيُود حتى غاب عن ناظريهما خلف قمة الكثيب . ثم أدارا ظهريهما وتطلّعا إلى إللي ماي في الفِناءِ .

ومضى دْيود إلى أرومة الصنوبرة المقطوعة وقعد عليها ليراقب النمل الاحمر وهو يدبّ فوق معدة أخته وثدييها . واختلجت عضلات رجليها وظهرها اختلاجاً عصبياً فترة من الزمان ، ولكن ذلك الاختلاج ما لبث أن تلاشى تدريجياً ، فهي مستلقيةٌ في سكون كامل . كان فمها مفتوحاً بعض الشيء ، وكانت العاهة التي تشوّه شفتها العليا تبدو أعرض

من المعتاد وأعمق . لقد جفّ العرق على جبينها وخديهـا ، وقلّمت لطخات من الوسخ بشرتها البيضاء الشاحبة .

وطوال ساعة تقريباً ، نامت تحت أشعة شمس شباط الدافئة، نوماً عميقاً . حتى إذا أفاقت كانت ذراعها اليمنى لا تزال على فمها ، حيث وضعها ديود عندما غادر الفِناء لكي يحصل على بعض أقراص اللفت قبل أن يلتهمها أبوه كلها .

٥

وهناك في مخبئه من الغابة ، أخذ ضمير جيتر يؤنبه . كان حجاب الرتم الأسمر البالغ ارتفاعه أربعة أقدام يحول دون رؤيته من المنزل أو من الطريق . لقد هدأ جوعه مؤقتاً ، وامتلأت جيوب وزرته بأقراص اللفت ، ولكن إدراكه المتباطئ أنــــه سرق طعام صهره ما لبث أن أرمض جسده وروحه . لقد سرق من قبل ، سرق الطعام وسرق كلّ ما أمكنته الفرصة من أخذه ، ولكنه كان في كل مرة – شأنه الآن – يندم على ما فعل حتّى يُوفّق إلى إقناع نفسه بأنه لم يأتِ أمراً منكراً إلى حد فظيع . وكان هذا الصنيع يقتضيه بضع دقائق حيناً ، وبضعة أيام حيناً، بل بضعة أسابيع حيناً آخر قبل أن يتيقن أن الربّ عفا عنه ، وأنه لن يعاقبه عقاباً شديداً .

وكان صوت دْيود المنطلق خلفه في الغابة أشبه بصوت الله يدعوه إلى القصاص . وكان دْيود قد سلخ نصف الساعة الأخيرة وهو يخبط في الغابة ضارباً الشجيرات النامية حول الدّوح بعصا من السنديان الأسود محاولاً أن يعثر على جيتر قبل أن يلتهم اللفت كله .

وكان يتخلّل صيحات ديود صمتٌ غائر يلفّ الغابة من حول جيتر . واستشعر جيتر الحقارة والندم . وفي عناية مسح شفرة السكين التي قشر بهـا أقراص اللفت ، ووضعها في جيبه . ثم إنه وثب وفرّ من الغابة مندفعاً نحو شجرات الرتم . كان في ميسوره أن يرى سطح منزله وأعـالي شجرات الازدرخت ، ولكنه ما كان قـادراً على أن يعرف أذهب لوف إلى بيته أم لا .

ورآه دْيود حالما خرج من الغابة وتقدّم نحـو شجرات الرتم ، فصاح راكضاً عبر الحقل لـكي يقطع الطريق على والده :

ـ « هاي ! إلى أين أنت ذاهبٌ الآن ؟ »

ووقف جيتر وانتظر حتى ينتهي ديود اليه . ثم إنه اخرج من جيبه نصف دزينة من أقراص اللفت الصغرى ووضعها في يدي ديود المبسوطتين .

وسأله ديود :

ـ « ما الذي جعلك تفرّ وتحاول أن تأكل الاقراص كلها من غير ان تعطيني قرصاً واحداً ؟ انك لست الشخص الوحيد الذي يحب اللفت . ولم تكن أنت ، هذا الاسبوع ، أكثر جوعاً مني . انك لخسيسٌ كالحية العجوز في بعض الاحيان . لماذا لم تُرد أن تترك لي قرصاً واحداً ؟ »

فقال جيتر :

ـ « الربّ لا يحبّ السرقة . إنه لا يُعنى بمستقبل اولئك الذين يسرقون . إن عليهم ان يتدبروا أمرهم بأنفسهم في الآخرة . والآن ينبغي لي ان أصالح الربّ الطيب وأعترف له بخطيئاتي .

لقد أتيت عملاً منكراً اليوم . والله لا يحب لعباده ان يعملوا شيئاً من هذا . إنه يهمل الخطاة ولا يبالي بهم . والسرقة هي أسوأ عمل يمكن للمرء أن يعمله ، تقريباً . »

فقال دْيود :

— « أنت تتكلم هكذا كلما سرقتَ شيئاً ، ولكنك لا تحافظ على كلامك بعد ذلك أبداً . إنك تحاول بموقفك هــذا ان تجتنب إعطائي كمية إضافية من اللفت . أنت لا تستطيع أن تخدعني . »

— « من الاثم أن تقول شيئاً كهذا عن رجل حاول طول حياته ان يكون على وفــاق مع الأله الطيب . إن الله صاحبي ، وهو لا يحب ان يسمع الناس يتحدثون عني بمثل هذه اللهجة . ينبغي ان لا تتكلم هكذا يا ديود . أليس عندك دماغ ؟ »

فقال دْيود :

— « اعطني بعض الاقراص الاخرى . عبثاً تحـاول ان تحتفظ بهـا كلها بأمثال هذه الاقوال . ان ذلك لن يفيدك شيئاً . وأنا لا أبالي بمـا تقول . إني اليوم أعقـل من ان أُخدع . »

فقال جيتر وهو يعدّ الاقراص الباقية في جيوبه :

— « لقد أخذتَ خمسة حتى الآن ، أليس كذلك ؟ أنت لا تحتاج إلى أكثر من ذلك . »

وأقحم دْيود يده في أقرب جيوب أبيه اليه وانتزع منها أكبر عدد من الاقراص اتسعت له قبضة يده . ولكزَهُ جيتر بمرفقيه ولكن دْيُود لم يبال بذلك . كان أضعف من أن يصيبه بأي أذى .

فقال جيتر :

ـ « هذا كل ما سأعطيك إياه . إني سآخذ الاقراص الباقية وأقدمها إلى إيدا واللي ماي . وأحسب انهما تتضوران من الجوع بقدر ما كنت أتضور تقريباً . ولا ريب في انهما تنتظران ان أحمل اليهما حصتهما . هل ذهب لوف ؟ »

فقال ديود :

ـ « لقد رجع إلى مستودع الفحم منذ مدة طويلة . »

ومضيا عبر شجرات الرتم قاصدين إلى المنزل . وقبل أن يبلغا الطريق بفترة غير يسيرة ، كان في ميسورهما أن يريا إيدا واللي ماي تنتظرانهما في الفناء . أما الجدة العجوز فكانت رابضة عند المدخل ، وقد أخذها الخوف من أن تذهب إلى أبعد من ذلك .

وقال دْيود :

ـ « أحسب أن النسوة جائعات أيضاً . لقد كان بطن إللي ماي يخرّ طول الليلة البارحة . ولقد أيقظني ذلك الخرير ، صباح اليوم ، حين عاودها من جديد . »

وجلست إللي ماي وإيدا على درجات السلّم حين ظهر دْيود وجيتر للعيان . لقد انتظرتا بفارغ صبر ، فيما شقّ ديود وجيتر طريقهما عبر غياض الرتم . حتى إذا اقتربا أكثر فأكثر ارتقت إيدا درجة أخرى من درجات السلّم . وجثمت الجدة العجوز في مدخل البيت ، متشبثة بالدرابزون بكلتا يديها . إن أحداً لم يكن أكثر منها جوعاً .

وكان ثمة امرأة أخرى في السقيفة الأمامية أيضاً . كانت جالسة في الكرسي الهزاز يندفع بها إلى الامام آناً ، ويرتدّ بها



إلى الوراء آناً ، وكانت تنشد بأعلى صوتها إحدى التراتيل . وكانت كلما بلغت أرفع طبقةٍ تقدر عليها لزمَتْها حتى ينقطع منها النَفَس . ثم تعاود الانشاد من جديد .

ووثب جيتر فوق القناة وتقدّم مجتازاً الفِناء ، ودْيود في إثره . وما إن رأى إلى المرأة الجالسة في الكرسي الهزاز حتى أشرق وجهه ، وأسرع الخطى حتى كادت قدمه تزلّ به .

وقال جيتر حين رأى بيسّي رايس على السقيفة :

ـ « ليتمجّد اسم الربّ ! لقد عرفتُ ان الله سيبعث ملاكه ليمسح خطاياي . أيتها الاخت بيسّي ، ان الرب يعرف ما أحتاج اليه معرفة جيدة . إنه يطلب مني أن أُقلع عن حياتي الآثمة ، أليس كذلك ؟ »

واندفعت إيدا وإللي ماي إلى جيوب جيتر وانتزعتا في سرعة يائسة ما تبقّى فيها من اللفت . وطرح جيتر ثلاثة من الاقراص الصغرى على السقيفة في اتجاه الباب . فركعت الجدة العجوز على ركبتيها وضمّت الاقراص إلى صدرها ، ثم راحت تقضمها بلثتها التي لا أسنان لها .

وقالت المرأة المبشرة :

ـ « لقد كلفني الرب أن آتي إلى بيت ليستر . وكنتُ في منزلي اكنس المطبخ حين جاءني جلّ شأنه وقال لي : أيتها الاخت بيسّي ، ان جيتر ليستر يقترف الآن عملاً آثماً . اذهبي إلى بيته وصلّي من أجله في الحال قبل ان يفوت الأوان، وحاولي أن تحمليه على الاقلاع عن أعماله الشريرة . فنظرت إلى وجه الرب وقلت له : يا الـهي ، ان جيتر ليستر آثمٌ كبير ، ولكني سأصلي من أجله إلى أن يعود الشيطان إلى

الجحيم . ذلك ما قلته له ، وها أنا ذي هنا . لقد جئتُ لأصلي من أجلك وأجل أسرتك ، يا جيتر ليستر . لعل أوان التوبة والعودة إلى الله لم يفت بعد . إن أمثالك من الناس هم الذين ينبغي أن يكونوا صالحين ، بدلاً من أن يدَعوا الشيطان يُغريهم بارتكاب الآثام على اختلاف أصنافها . »

فصاح جيتر وهو يرقص حول كرسيّ بيسّي :

ـ « لقد كنت أعلم ان الرب الطيب لن يتركني أزلّ وأقع في مخالب الشيطان ! كنتُ أعلم ذلك ! كنتُ أعلم ذلك ! لقد كنت دائماً إلى جانب الله ، حتى في أحلك الساعات ، وكنت أعرف أنه سوف يُبعدني عن جهنم قبل ان يفوت الاوان . أنا لست آثماً بالفطرة ، أيتها الاخت بيسّي . ولكن الشيطان العجوز هو الذي يتحرش بي دائماً ويدفعني إلى أن أعمل بعض الاشياء الصغيرة غير الصالحة . ولكني لن أفعل ذلك . أنا أريد ان أدخل الجنة عندما أموت . »

فقالت المرأة المبشرة :

ـ « ألا تنوي أن تعطيني قرصاً من اللفت ، يا جيتر ؟ لم يكن عندي ما يكفيني من الطعام في المدة الأخيرة . فقد اجتاح الضيق الصالحين والطالحين على السواء ، وان كنت أفكّر في بعض الاحيان ان ذلك ليس عادلاً جداً . فالصالحون من الناس لا ينبغي ان يُمتحنوا بالعسر والضيق دائماً ، كما يُمتحن الاشرار المستحقون ذلك . »

فقال جيتر وهو يقدّم اليها مقداراً من اللفت تخيّره من بين الاقراص الكبيرة الريّا :

ـ « طبعاً ، يا بيسّي . أنا أعرف انكِ تحبين ان تأكلي

قدرَ ما نحبّ ان نأكل تقريباً . وكم أتمنى لو كان عندي ما أعطيكِ إياه لتأخذيه معكِ إلى البيت . فحين كنتُ غنياً ، كنتُ أعطي الاخ رايس ملء حضنٍ كاملٍ من الدجاج والبطاطا الحلوة في وقت واحد . أما اليوم فليس عندي غير حفنة من أقراص اللفت الصغيرة التي لا تساوي شيئاً . ولكني لستُ مستحياً بها . إنّ الله هو الذي أطلعها . وما يعمله الله يكفيني . أليس الأمر كذلك ، بالنسبة اليكِ أيضاً ؟ »

ووزعت الاخت بيسّي بسماتٍ سعيدة على جيتر وافراد أسرته . كانت تبتهج كلما قُدّر لها أن تصلي من أجل أحد الخاطئين وتنقذه من قبضة الشيطان لأنها كانت هي نفسها خاطئة قبل أن يطرح الاخ رايس الشيطان من قلبها ويتخدها زوجة له . وكان زوجها قد توفي ، فهي تُتمّ عمله في تلك الكثبان الرملية . وحين مات بعلها في الصيف الماضي قدّمت اليها شركة التأمين ثمانمئة دولار ، فآثرت ان تدّخرها لتنهض بأعباء رسالته التبشيرية يوم تصبح في أمسّ الحاجة اليها . وهكذا أودعت المالَ مصرفاً من مصارف اوغوستا .

وكان بعض الناس في الكثبان الرملية يقولون ان نوع الدين الذي تبشّر به ما كان ينسجم مع المسلك الذي أراد الله لرجال الدين أن يسلكوه في القول والعمل . وكانت بيسي كلما سمعت شيئاً من ذلك تجيب بأن الناس لا يعرفون عن دين الله أكثر مما يعرف المبشرون الذكور . إن الكثرة الكبيرة منهم لا تنتسب إلى أيما طائفة على الاطلاق ، في حين ان سائرهم معمدانيون متعصبون . وبيسي تكره المعمدانيين المتعصبين بمثل الشدة التي تكره بها الشيطان .

ولم يكن لدى بيسي كنيسة تجمع شمل أتباعها ، ولم يكن ثمة جماعة منظمة تدعمها . كانت تنتقل من بيت إلى بيت في الكثبان الرملية ، وبخاصة فوق القنّة التي تمتد طريق التبغ على طولها ، وتصلي من أجل الناس الذين يحتاجون إلى الصلاة ويريدونها . وكانت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين ، وأشرفت على الاربعين ، وكانت املح وجهاً من معظم النسوة في الكثبان الرملية ، لولا أنفها .

لقد عجز أنف بيسي عن أن ينمو كما ينبغي . لم يكن فيه عظم ، ولم يكن له رأس . كان منخراها مكشوفين ؛ ولقد قال ديود يوماً إنه حين ينظر إلى أنفها يخيّل اليه وكأنه ينظر من طرف بندقية ذات اسطوانتين . وكانت بيسّي شديدة الحساسية حول هذه الظاهرة ، فهي تحاول أن تذود الناس عن التحديق اليها والتعليق على ما يرون .

وكانت إيدا قد حدّثت بيسّي حديث كيس اللفت الذي انتزعه جيتر من لوف . وكانت بيسّي قد أقبلت على نية الصلاة من أجل خطايا جيتر بوجهٍ عام ، ولكنها سعدت بأن تجد خطيئة معيّنة تسند صلاتها إليها . وكانت تقول دائماً إن الصلاة تعود على المرء بنفعٍ أعظم إذا ما اقترف إثماً يندى له الجبين خجلاً .

ومع ذلك ، فقد آثرت ان تلتهم ، قبل كل شيء ، جميع أقراص اللفت التي قدّمها جيتر اليها .

وقال جيتر :

— « كنت أتمنى لو كان لوف هنا لكي ألتمس منه العفو. وأحسب اني سوف أذهب إلى منزله في ساعة مبكرة من

صباح الغد واظهر له عظيم أسفي لما حدث . وأرجو ان لا يكون مُغْضَباً إلى درجة تحمله على محاولة ضربي بالعصا . إنّ له ُخلقاً لعيناً حين يستولي عليه الغضب استيلاء جدياً . »

وقالت بيسي وهي تزدرد آخر قرص من أقراص اللفت :

— « فلنُقِمْ صلاةً صغيرة . »

فقال جيتر :

— « ليتمجّد الرب ! أنا سعيدٌ جداً بحضورك في هذه الساعة ، أيتها الاخت بيسّي ، لأني محتاج إلى الصلاة أكثر مما احتجت اليها في أيما وقت مضى . لقد اقترفت اليوم إثماً .. والربّ ينفض يده من اولئك الذين يرتكبون خطيئة السرقة . أنا أدري ما الذي جعلني شريراً إلى هذا الحد . وأحسب ان الشيطان العجوز عاد كرةً ثانية فبسط سلطانه عليّ . »

وركع القوم جميعاً ما عدا إللي ماي وديود ، اللذين قعدا على درجات السلّم يأكلان ويراقبان .

وقالت بيسّي :

— « أتعلمون ان هناك أناساً يكرهون الركوع والصلاة في الهواء الطلق ؟ إنهم لا يحبون أن أصلّي من أجلهم على الشرفة أو في الفناء . إنهم يقولون : « أيتها الاخت بيسّي ، ألا نستطيع أن ندخل إلى المنزل بدلاً من أن نبقى هكذا عرضةً لانظار الناس جميعاً ؟ » وهل تعلمون بماذا أجبتهم ؟ إني أقول لهم : « أيها الاخوة ، وايتها الاخوات ، أنا لا أخجل من الصلاة ههنا في الهواء الطلق . أريد أن يعرف جميع السائرين في هذه الطريق انني من عباد الله الصالحين . أنا لا أجد غضاضة في ان يراني الناس أصلّي . والحقّ أن الشيطان العجوز هو

الذي يغري الناس بالبقاء في المنازل بعيداً عن الانظار . » تلك هي الطريقة التي أذود بها عن حوض الاله . أنا أركع وأصلّي في الطريق العريض بمثل الجهارة التي أصلّي بها في مدرسة أو اجتماع معقود في الهواء الطلق . أنا لا استحيي ان أصلّي في فناء أو تحت شرفة . إن الشيطان العجوز هو الذي لا يفتأ يغري الناس بالانزواء في المنازل بعيداً عن الانظار . »

وقال جيتر :

— « ليتمجّد اسم الرب ! »

وقالت :

— « فلنستعدّ للصلاة . »

وحنت إيدا وجيتر رأسيهما ، وأغمضا عينيهما . وركعت الجدة العجوز عند مدخل البيت ، ولكنها لم تغمض عينيها . لقد حدّقت إلى أمام ، إلى حقل الرتم الاسمر .

— « يا الهي الحبيب ، ها أنا ذي أقف مرة ثانية بين يديك لأرفع صلاة صغيرة من أجل قوم خاطئين . لقد كلفني ليستر وأفراد اسرته أنّ أصلّي من أجلهم كرةً أخرى . إنّ الصلاة الماضية عادت عليهم بنفع كبير . ولو لم يقع جيتر في مخالب الشيطان ، اليوم ، لما كان ثمة داعٍ لاداء صلاة جديدة ولمّا تنقضِ على تلك التي مضت غير فترة قصيرة . ولكن جيتر أرخى قياده للشيطان ، فاقترف خطيئة كبيرة . لقد سرق من لوف جميع أقراص اللفت التي كانت معه ، ولم يردّها اليه . لقد أُكلت كلها الآن ، فليس من سبيل إلى أن تُرد إلى لوف . وهذا هو السبب الذي يدعونا للصلاة من أجل جيتر .

ينبغي ان تحمله على الاقلاع عن السرقة . أنا لم أرَ رجلاً أسرقَ منه في حياتي كلها . ويبدو لي انه يسرق بمثل الطبَعية التي يشرب بها الواحد منا كوب ماء . ولكن جيتر يريد أن يتوب، وإن بدا وكأنه سوف يمضي ويرتكب سرقة جديدة حالما نفرغ من اداء هذه الصلاة لأجله . ينبغي أن تحمله ، هذه المرة ، على ان يقلع عن السرقة إلى الابد . فليس من الحكمة ان تدعَ الرجل يكرّر ارتكاب عملٍ آثم ، طول أيام عمره ، على هذه الشاكلة . ينبغي أن تضع حداً لذلك ، وأن تحول بينه وبين الاقدام على هذا الصنيع بعد اليوم . إنك لن تدع الشيطان العجوز يعلّمك ما الذي يجب ان تعمله ، أليس كذلك ؟ ما هكذا يتعيّن على الرب ان يفعل . إنّ على الرب أن يأمر الشيطان بالابتعاد ، وبالكفّ عن اغراء الطيبين من الناس .

« والاخت إيدا اشتدت عليها وطأة ذات الجنب من جديد . ينبغي أن تعمل شيئاً من أجلها هذه المرة . انك في المرة الماضية لم تساعدها على الاطلاق . إنها لا تستطيع أن تقوم بجميع أعمالها المنزلية حين يكون داؤها خطيراً إلى هذا الحد . وإذا ما شفيتَها منه فعندئذ تجتنب الشيطانَ إلى الابد . أليس كذلك ، أيتها الاخت إيدا ؟ »

— « أجل ، يا الـهي ! »

— « وأم جيتر العجوز تشكو ألماً في جانبيها. إنه لا يُعفيها لحظةً واحدةً . إنها راكعةٌ لك الآن ، ولكنها تعاني من الاوجاع ما يجعلها غير قادرة على أن تركع مرات كثيرة بعد اليوم .

« وكذلك يجب ان تبارك إللي ماي . إن لألّلي ماي تلك

الشفة المشرومة التي تجعلها بشعة إلى حد فظيع . فلو كان في استطاعتك ان تعمل ... »

فقال جيتر :

— « لا تنسي أن تصلّي من أجل بيرل ، أيتها الاخت بيسّي . إن بيرل في حاجة إلى الصلاة من أجل شـيء فظيع . »

— « وأي خطيئة ارتكبتها بيرل ، أيها الاخ جيتر ؟ »

— « ذلك ما أراد لوف أن يحدثني عنه اليوم . هو يقول ان بيرل لا تخاطبه ، ولا تدعه يمسّها . وحين تسقط العتمة تنام على الارض فوق فراش من قش . وهكذا يضطر لوف إلى أن ينام وحده ، بعد أن يعجز عن اقناعها بأن تهتم بأمره بعض الاهتمام . وهو شيء لا يليق بزوجة ان تصنعه ، ويجب على الربّ ان يجعلها ترعوي عن ذلك . إنّ للوف بعض الحقوق. وليس من شأن المرأة أن تنام فوق الارض على مثل ذلك الفراش اللعين ، مهما كان الامر . »

فقالت بيسي :

— « لعلها تعرف جيداً مـا تفعله ، أيها الاخ جيتر . لعلّ بيرل على وشك أن تضع غلاماً صغيراً ، وجائز ان تكون هذه هي الطريقـة التي فضّلت ان تستعملهـا لاخبار الاخ لوف بذلك . »

— « لا ليس الأمر كذلك ، أيتها الاخت بيسّي . لوف يقول انه لم ينم معها قطّ حتى اليوم . بل إنه يقول انـه لم يمسّها مجرد مسّ ، أيضاً . وذلك مـا يقلقه إلى هذا الحدّ اللعين . إنه يريدها ان تنام في السرير معه وتكفّ عن النزول

إلى تلك الحشية الملعونة كل ليلة . إن بيرل تحتاج إلى ان يُصلّى من أجلها لكي تُقلع عن النوم وحدها على الأرض . »

— « أيها الاخ جيتر ، ان الفتيات الصغيرات مثل بيرل لا يعرفن كيف يعشن الحياة الزوجية كما نعرف نحن النساء الناميات. من أجل ذلك يخيّل إليّ انها قد تغيّر أسلوبها هذا إذا حدثتها أنا بنفسي ، بدلاً من أن أكلف الربَّ القيامَ بهذه المهمة . وأحسب انني أعرف أكثر منه ما الذي يجب ان يقال لها لاني كنتُ امرأة متزوجة حتى الصيف الماضي ، عندما توفي زوجي السابق . ويخيّل إليّ اني أعرف كل شيء عن هذه المسألة . وأغلب الظن أنّ الله لن يعرف أيّ شيء ينبغي ان يقوله لها . »

— « ذلك قد يفيد بعض الشيء . ولكنْ لو كنتُ أنا من النوع الذي يقوم بالصلاة لكلمتُ الله بطريقة ما عن تلك المسألة ، ولعله ان يساعدها قليلاً . لعله شاهد قبل اليوم فتيات من هذا النوع ، على الرغم من اني لا أعتقد ان في البلاد كلها فتاة واحدة تعاند زوجها وتأبى أن تنام معه في السرير كما تفعل بيرل . »

وتناول دْيُود كرة البيسبول وراح يقذف بها سقف الشرفة ثم يلتقطها حين تنقلب إلى الفناء .. كانت الكرة تزعزع الألواح الضيقة المتهرئة ، فتتساقط بعض أجزائها على الفناء . وجلست إللي ماي منتظرةً أن تسمع بعض الصلوات الاضافية عندما ختمت بيسّي وجيتر حديثهما عن بيرل .

وقالت بيسي :

— « جائز ان لا أؤذي أحداً إذا أشرت إلى هذه المسألة . »

فقال جيتر :

— « هذا صحيح . حدثني الربّ عن ذلك . انكما معاً يجب ان تصلا إلى نتيجة في هذه القضية . »

— « والآن ، يا إلـهي ، ان عندي شيئاً خاصاً أصلّي من أجله . أنا لا ألتمس منّةً من مننك إلا إذا كان عندي أمرٌ اودّ من صميم قلبي لو يتحقق . وهكذا أسألك ، الآن ، ان تشمل بيرل بنعمتك . أريد منك ان تحملها على الاقلاع عن النوم في حشية قشّ مطروحة على الارض في حين يضطر لوف إلى أن ينام وحده في السرير . إحمل بيرل على ان تذهب إلى السرير ، أيها الرب ، واجعلها تبقى حيث ينبغي لها . انها لا تملك حق النوم في حشية قشّ موضوعة على الارض ما دام لوف قد أعدّ لها سريراً . والآن ، أكرِهْها على الاقلاع عن هذا الصنيع ، وضَعْها في السرير حين يهبط الليل . لقد كنتُ أنا امرأة صالحة لزوجي السابق . أنا لم أنم يوماً في حشية قشٍ مبسوطة على الارض . والاخت إيدا لا تفعل شيئاً مثل هذا ، أيضاً . وحين أتزوج رجلاً آخر ، فلستُ أنوي أن أصطنع هذه الطريقة ، كذلك . سوف أندسّ في السرير كلما فعل زوجي الجديد ذلك . وهكذا قُلْ لبيرل ان تكفّ عن تلك العادة . نحن النساء نعرف ما الذي يجب أن نعمله ، ولكن بيرل أصغر من ان تعرف . ليس عليك إلا أن توعز اليها بضرورة الاقلاع عن ذلك . لو كان ... »

فسألها جيتر :

— « ما ذاك الذي قلته أيتها الاخت بيسي عن مسألة الزواج ؟

ألم أسمعكِ تقولين انكِ سوف تتزوجين رجلاً جديداً ؟ من هذا الذي ستتزوجينه ؟ »

– « حسناً ، أنا لم أقرر بعد . منذ مدة وأنا أبحث عن رجل . ويبدو وكأنني لا أستطيع ، في هذه اللحظة ، ان اقرّر. أنا أريد رجلاً صاحب ثروة وممتلكات ، ولكن يبدو وكأنّ أياً من رجال هذه المنطقة لم يعد يملك شيئاً . لقد أمسى الناس كلهم فقراء . »

فقال جيتر :

– « والآن ، لولا إيدا لكان هناك ... »

فتضاحكت وقالت :

– « أيها الاخ جيتر ، هل تريد أن تطبق فمك ؟ إنك تجعلني مضحكة جداً حين تتحدث على هذه الشاكلة ! وفوق ذلك ، كيف عرفت انك تعجبني ؟ لقد صرت شيخاً كبيراً ، أليس كذلك ؟ »

فقال جيتر :

– « احسب ان من الافضل ان تتمي الصلاة . إن إيدا تغضب كلما حدثتها عن رغبتي في الزواج من امرأة أخرى . »

– « ... نجّنا من الشيطان ، واحفظ لنا مكاناً في السماء . آمين ! »

٦

وفجأةً قال جيتر :

— « لقد نسيتِ أن تصلي من أجل ديود نسياناً تاماً . لقد تركتِ ديود جانباً يا بيسي ، وديود لا يقلّ عن سائر أفراد اسرتنا آثاماً وخطايا . »

ووثبت بيسي وراحت تعدو إلى الفِناء . ثم انها أمسكت بذراع ديود وجرته إلى الشرفة ، وركعت قرب الكرسي ، وحاولت ان تُركع ديود إلى جانبها .

وقال ديود مغضباً :

— « لا أريد ان أفعل ذلك . أنا لا أريد ان يُصلّى من أجلي . أنا لم أعمل شيئاً .. بابا هو الذي سرق كيس اللفت وحده . لقد حمله وانطلق به إلى الغابة . »

وأمسكت بيسّي بيديه وربّتت على ذراعيه دقائق عديدة من غير ان تنطق بكلمة . ثم وقفت إلى جـانبه ، وطوقت خصره بذراعيها . وضمته ضمةً شديدة جعلت الدم يندفع إلى رأسه .

— « يجب ان أصلّي من أجلك يا ديود . لقد أنبأني الرب انكم جميعاً ، يا أبناء ليستر ، آثمون . وهو لم يستثنكَ أنت ، كما لم يستثنِ إللي ماي . »

ونظر ديود إلى وجهها . لقد توسلت في صدقٍ وحرارة كافيين لترغيبه في أن يُصلّى من أجله ، ولكنه لم يتّمالك نفسه عن اقحام نظراته في منخريها .

وقالت :

— « ممّ تضحك ، يا ديود ؟ »

فحاول كتم ضحكه ، وقال وهو يلوي رأسه حتى لصار في ميسوره أن يرى إلى ما وراءه :

— « لا شيء ! »

فقالت :

— « ليس في الصلاة ما يضحك يا ديود . إننا جميعاً مضطرون إليها ، عاجلاً أو آجلاً . »

واستشعر الضيق وهو ملتصق بها على هذا النحو . واثار قربيتُها على ذراعيه وكتفيه عصبيته ، فلم يستطع أن يقف ساكناً .

فقال جيتر :

— « كفاك قفزاً ووثباً ، يا ديود ! ما الذي يؤلمك ؟ »

وأحكمت بيسي تطويق خصره بذراعيها ، وابتسمت له :

— « إركع إلى جانبي ودعني أصلّي من أجلك . سوف تفعل هذا ، أليس كذلك يا ديود ؟ »

ووضع ذراعيه حول عنقها وراح يفركها كما كانت هي تفركه . ثم قال وهو يحاول ان يكتم ضحكه من جديد :

— « وبعد كل شيء ، وما الذي أخسره إذا فعلتُ ؟ »

فقالت :

— « لقد عرفتُ انك ترغب في ان أصلّي من أجلك ، يا دْيُود . إن الصلاة تساعدك على التطهّر من آثامك ، كما فعل جيتر . »

وركعا على أرض السقيفة ، قرب الكرسي . وواصل دْيود فرك كتفيها ، فيما ظلت بيسي مطوقةً خصره بذراعيها . وكان جيتر جالساً خلفهما على الأرض ، مستنداً إلى جدار المنزل ، مترقباً ان يسمع الصلاة من أجل ديود .

— « يا الـهي الحبيب ، أسألك ان تنجي الاخ دْيود من الشيطان وان تحفظ له مكاناً في السماء . هذا كل ما هنالك . آمين . »

وكفّت بيسي عن الصلاة ، ولكنها لم تبذل ، لا هي ولا ديود ، أيما جهدٍ للنهوض على الاقدام .

وقال جيتر :

— « المجد للرب ، ولكن لقد كانت تلك صلاة قصيرة لعينةً بالنسبة إلى آثم مثل دْيود ! »

— « دْيود لا يحتاج إلى مزيد من الصلاة . إنه ما يزال صبياً . وهو ليس آثماً مثلنا نحن الكبار . إنه ليس آثماً مثلك ، يا جيتر . »

فقال جيتر :

— « حسناً . لعلكِ على صواب . ولكنّ دْيُود يسبني ويسب أمه طول النهار . إنه لا يحترم أياً منا . لعلّ ذلك ما يجب أن يكون . ولكن يبدو لي اني أذكر كلمة في الكتاب

المقدس تقول ان على الولد ان لا يسب أمّه وأباه كما يسب سائر الناس . أنا لم أسمع أحداً يقول لي العكس ، ولكن لا يبدو لي ان من حقه ان يفعل ذلك . لقد رأيته بضايق إللي ماي ويعذبها بأحدى العصيّ أيضاً ، وأنا أعرف ان هذا ليس عملاً صالحاً . هذا إثم ، وينبغي أن يُصلّى من أجله . »

فقالت بيسّي وهي تداعب شعر دْيود :

— « إن دْيود لن يعود إلى مثل ذلك كرةً أخرى . إنه ولدٌ ممتاز ، من غير شك . وفي امكانه ان يصبح مبشراً حسناً أيضاً . إنه شديد الشبه بزوجي السابق في أيام صباه . وأكاد أحس انه ليس ثمة كبير فرق بينهما الآن . »

واستدارت إيدا لترى ما الذي يفعله دْيود على الشرفة. كان هو وبيسّي لا يزالان راكعين إلى جانب الكرسي ، وقد طوّق كل منهما الآخر بذراعيه .

وقال جيتر :

— « دْيُود في السادسة عشرة اليوم . يعني انه أصغر من إللي ماي بسنتين . حسناً ، انه في وقت قريب سيتزوج في ما أعتقد . فقد تزوج سائر أولادي الذكور في سنّ مبكرة ، كما فعلت الاناث أيضاً . وحين يصبح لدْيُود امرأة ، لا يبقى معي أحد من أولادي باستثناء إللي ماي . ولست أعتقد انها سوف تجد في يوم من الايام رجلاً يتزوجها . وكل ذلك بسبب ذلك الفم الذي لها . ولقد فكّرتُ دائماً بأن آخذها إلى اوغوستا وأكلف أحد الاطباء بأن يخيط شفتها . وعندئذ يكون في امكانها ان تتزوج سريعاً ، لأنها قوية الانوثة . والواقع انه ليس لها علة ، باستثناء ذلك الشرم في شفتها . ولولا ذلك لخطبت بمثل

السرعة التي خُطبت بها بيرل . إن الرجال هنا ، في فولر ، كلهم يحبون ان يتزوجوا البنات اللواتي لا تزيد أعمارهن على الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، كما كانت بيرل يوم زفافها . وإيدا كانت على وشك ان تبلغ الثانية عشرة حين تزوجتها . »

وقالت بيسّي :

— « لقد قضى الله بأن نتزوج كلنا . لقد انشأنا على هذه الشاكلة . ذلك ما كان زوجي السابق يقوله . كنت أقول ان الرجل في حاجة إلى امرأة ، فكان يجيبني قائلاً : إن المرأة في حاجة إلى رجل . لقد كان زوجي السابق مثل الربّ الالـه من هذه الناحية . كانا كلاهما يؤمنان برأي واحد في قضية الزواج . »

فقال جيتر :

— « يخيّل إليّ ان الرب أراد لنا كلنا ان نتزوج . ولكنه لم يُدخل في الحساب امرأة ذات شفة مشرومة كالتي لألّي ماي . أنا لا أعتقد انه كان عادلاً في حقها حين شقّ شفتها على هذا الشكل . ذلك هو النقد الذي أوجهه ، ولم أوجّه غيره من قبل ، إلى الربّ . ولكن تلك هي الحقيقة . إذ أيّ فائدة تُرتجى من شرم كهذا ؟ أنت لا تستطيع ان تبصق منه ، أو أن تصفر من خلاله ، أليس ذلك صحيحاً ؟ لقد كان عمله ذاك دناءة ، مجرد دناءة ! »

— « ينبغي ان لا تتكلم هكذا عن الربّ . إنه يعرف السبب الذي من أجله عملَ ذلك . انه يعرف كل شيء . وهو ما كان ليفعل ذلك لو لم يكن يهدف إلى غرضٍ طيب . إنـه

يعرف لماذا يخلق الرجال والنساء . لقد جعل وجه إللي ماي على هذه الصورة لسبب وجيه في ذهنه . لقد كان ثمة سببٌ من أكثر الاسباب وجاهةً في العالم ، حمله على أن يقوم بذلك العمل . »

— « وما ذلك السبب ؟ »

— « لعله لا ينبغي لي ان أصرّح بهذا ، يا جيتر . »

— « انه ليس سراً بينكِ وبين الألـه ، أليس كذلك أيتها الاخت بيسّي ؟ »

— « لا . ليس بيننا أسرار . ولكني أعرف . »

— « تعرفين ماذا ؟ »

— « لماذا جعل شفتها شرماء . »

— « ألستِ تريدين أن تخبريني ؟ »

— « أيها الاخ جيتر ، لقد فعل ذلك بشفتها لكي ينقذ جسدها الطاهر من الرجال الأشرار . »

— « أيّ رجال ؟ لا يوجد هنا غيري أنا . »

— « أراد ان ينقذها منك أنت ، أيها الاخ جيتر . »

— « أنا لست شريراً . إني قد أقترف الآثام في بعض الأحيان ولكني لم أكن في يوم من الايام شريراً . »

— « كل ذلك سواء في نظر الربّ . انه لا يميّز بين هذا وذاك . »

— « ما الذي فعلتُهُ ؟ أنا لا أرى كيف يمكن أن تكون هناك علاقة بين سرقة بضعة أقراص من اللفت لا تساوي شيئاً ومقدار من البطاطا الحلوة من حين إلى حين وبين وجه إللي ماي . »

— « أيها الاخ جيتر ، لقد شرم الربّ شفتها لكي ينقذ جسدها الطاهر من ان تدنسه يداك . فقد علم أنها ستكون آمنة في هذا البيت حين خلقها على هذه الصورة . وعلمَ انك كنت في يوم من الايام آثماً كبيراً ، وانك قد تعود سيرتك الاولى إذا ... »

فقال جيتر :

— « هذا هو الصواب . لقد كنت في زماني آثماً كبيراً . واحسب أني كنت في يوم من الايام أكبر خاطيء في البلاد كلها . خذي مثلاً أبناء بيبودي ، هناك عبر الحقل . إني أظن أنهم كلهم تقريباً أنصاف أولادي ، بطريقة من الطرق . ثم انني اعتدت أن ... »

— إنتظرْ حتى أنتهي من اتهامك يا جيتر ، قبل أن تبدأ في إطلاق أكاذيبك . »

— « هذه ليست أكاذيب ، يا بيسّي . لقد أخبرتكِ في هذه اللحظة أيّ خاطئٍ كبير كنتُ . ففي ذات يوم وفد على هذه المنطقة رجلٌ وامرأته . لقد أقبلا من ... »

— « كما قلت لك ، انك لم تخفِ شيئاً من ذلك عن الرب الاله . »

— « ولكن هنري بيبودي لم يعرف شيئاً من ذلك ... »

— « كان يعرف انه قد يخطر في بالك ان تلوث شرف إللي ماي . إن الرب يعرف كل شيء ، وان عنده أسباباً كافيةً يبني أعماله عليها . لقد عرف انك كنت طوال سنوات عديدة آثماً كبيراً ، وأنه لو سألك ان تقلع عينيك لأنهما أغضبتاه لما أطعته . »

— « إن النظر بعينيّ إلى شفتها المشرومة لا يغضب أحداً . وهو لا يبالي بعينيّ . لماذا يريد ان اقتلعهما ؟ »

— « كما قلت لك من قبل . لو أمرك الله بأن تقلع عينيك لأنهما تغضبانه لما أطعته . ذلك هو الدليل على انك كنت خاطئاً كبيراً . أو لو انه أمرك بأن تقطع يدك ، أو أذنيك ، للسبب نفسه ، لما أطعته . وقد عرف انه لو أمرك بأن لا تقرب إللي ماي لما اقتلعت الشر من جذوره ، نزولاً عند ارادته ، وهذا هو السبب الذي من أجله جاء بأللي ماي إلى الدنيا وفي شفتها ذلك الشرم . لقد بدا له انها ستكون في نجوة من آثم مثلك ، لأنك لن تحبّ وجهها على تلك الصورة . »

فقال جيتر :

— « ليتمجّد اسم الرب . لا شك في انكِ فتحتِ عينيّ على أسلوب الربّ . أنا ما كنتُ أعرف شيئاً عن ذلك ، من قبل . ولو اني عرفته لألجمت نفسي عن مغازلة زوجة بيبودي . وعندئذ لا يكون ثمة داعٍ لأن تبدو إللي ماي على صورتها الحاضرة ، هذا ما تريدين أن تقوليه ، أليس كذلك ؟ »

— « ذلك ما قلته تماماً . الربّ يعرف الناس أكثر مما نعرفهم نحن . »

— « لقد كنتُ في زماني آثماً كبيراً ، في ما أحسب . وانا لم أعرف قطّ أنه كان ينبغي علي ان ألجم نفسي قبل اليوم . ولعل الاوان لم يفت ، الآن . أنا لا أريد ، طبعاً ، ان اسلّم نفسي ، للشيطان . »

والتفتت بيسّي إلى دْيُود كرة أخرى ، مبتسمةً لـه ، محكمةً تطويق عنقه بذراعيها . ولم يعرف دْيود ما الذي يتعين عليه ان يعمله بعد ذلك . لقد سرّه ان يلمسها ، ان يجسّها ، ورغب في ان تعانقه فترةً أخرى كما قد فعلت . لقد أحبّ ان يحس بذراعيها تطوقانه في إحكام ، وتفركان جسده . ومع ذلك فلم يكن قادراً على ان يؤمن بأن بيسّي تضمه إلى صدرها لأيما سبب واضح كل الوضوح . لقد كفت عن الصلاة منذ خمس عشرة دقيقة ، ومع ذلك فهي لم تأت بحركة تدل على انها تريد ان تطلق سراحه وتدعوه إلى النهوض .

وقال جيتر وهو ينحني إلى أمام ، مضيّقاً عينيه تحت حاجبيه الاسودين الكثيفين :

— « هاي ، أيتها الاخت بيسّي ، ما الذي تفعلانه أنتِ وديود هناك ؟ منذ نصف ساعة تقريباً وانتما مقرفصان ، يشد أحدكما الآخر إلى صدره

ورجا ديود أن لا تأمره بالنهوض ، لأنه أحبّ ان يحسّها تشدّه إلى صدرها ، وتهصره بذراعيها .

وحاولت بيسّي أن تنهض ، ولكن دْيود حال بينها وبين ذلك . فعاودت القعود إلى جانبه ، على الارض ، وأخذت تُمرّ أصابعها خلال شعره .

وقال جيتر وهو يهز رأسه :

— « وحقّ الشيطان ، أنا لم أر مبشرةً تسلك هذا المسلك من قبل . يخيّل إليّ انكِ لا تريدين أن تقومي بأي صلاة أخرى اليوم . أنت وديود تتعانقان ويحتك أحدكما بالآخر . قولا خلاف ذلك ان استطعتما . وحقّ الرب والمسيح انكما لن تستطيعا

ان تقولا خلاف ذلك ! »

ونهضت بيسّي واستوت على الكرسي . وحاولت أن تُبعد ديود ، ولكنه وقف تجاهها منتظراً ان تمسّه بيديها .

وقالت :

— « لقد خاطبني الرب . قال لي إنّ عليّ ان اقترن بزوج جديد . أنا لا أستطيع ان أطوّف وحدي كثيراً ، ولعلي إذا تزوجت من رجل ما ، أصبح قادرة على ان أبشّر أكثر ، وأصلّي أكثر . ليس هذا فحسب ، بل ان الرب سوف يجعل منه مبشراً أيضاً ، وعندئذ نستطيع ان نضرب معاً في البلاد ، ونبشر بالانجيل ! »

— « إنه لم يقل لكِ ان تتزوجي دْيود ، هل قال لكِ ذلك ؟ دْيود ليس مبشراً . إنه ليس من التعقل بحيث يصبح من هذه الفئة . إنه لا يعرف بأي شيء يبشر عندما تحين الساعة التي يضطر فيها إلى أن يقف ويقول كلمة . »

فقاطعته قائلة :

— « دْيُود جدير بأن يصبح مبشراً ممتازاً . إنه سوف ينجح في الكرازة والصلاة مثل زوجي السابق تماماً ، ومن الجائز ان يفوقه نجاحاً . في استطاعة الرب واستطاعتي أن نريه كيف ينبغي له أن يعمل . التبشير ليس صعباً على الاطلاق إذا فهمه المرء . »

— « كم أتمنّى لو كنتُ في صباي الاول ... إذن لكان من الجائز أن أقوم أنا بعملية التبشير معكِ . ومع ذلك ففي استطاعتي ان انهض بهذا العبء الآن ، لولا إيدا . إنها لا تريدني ان أضيع وقتي مع النساء ، بعد اليوم . أنا أعرف ان في استطاعتي

ان أبشّر وأصلّي كأي انسان آخر . فليس هذا هو الذي يمسكني عن تلك المهمة . انها إيدا . ان في رأسها فكرة عجيبة تخيّل لها انني سوف أراود النساء عن أنفسهن في يوم من الايام . حسناً ، أنا لا أقول انني لن أفعل إذا ما سنحت لي نصف فرصة ... »

فقالت بيسّي :

— « أنا في حاجة إلى رجل أصغر منك سناً . إن دْيُود أصلح من يبشر معي ويعيش إلى جانبي . أليس كذلك يا ديود؟ »

فقال :

— « تريدين أن أذهب معكِ إلى البيت ، الآن ؟ »

فقالت :

— « ينبغي أن أصلّي ، قبل كل شيء ، لكي أعرف يا دْيود وحين أعود إلى هنا في المرة القادمة ، سأخبرك . ينبغي ان تنتظر حتى استشير الرب في أمرك . إن له أفكاره الخاصة في المبشرين ، وخاصةً إذا كانوا يعتزمون الزواج من المبشرات . »

وهبطت بيسّي درجات السلّم ، وراحت تعدو فوق رمل الفِناء الأبيض القاسي . حتى إذا بلغت طريق التبغ تلفتت ، وراحت تتأمل ، طوال عدة دقائق ، أفراد اسرة ليستر الواقفين على السقيفة الامامية .

ثم إنها انطلقت عبر الرمل الابيض العميق إلى بيتها القائم على مبعدة ميلين ، عند منحدر الجرف ، فوق الـ « سافاناه » .

وكان بيتها ذاك يتألف من ثلاث غرف وعنبر للذرة . وكان ينهض عند حافة الجرف حيث تنحدر الارض نحو وادي نهر

سافاناه السبخ . وكان المنزل المغطّى بألواح لم تُدهن في يوم من الايام يقوم في توازن قلق على ثلاث ركائز من الحجارة الدقيقة . أما الركيزة الرابعة فقد سقطت منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة على نحو جعل إحدى زوايا البيت تنحني إلى الارض .

وقال جيتر :

— « حسناً ، إن في رأس الأخت بيسّي فكرةً معيّنة . ويبدو لي انها تريد أن تتزوج دْيود . أنا لم أرَ في حياتي رجلاً وامرأة يتعانقان ويتمسح أحدهما بالآخر كما كانا يفعلان . إن شيئاً لا بدّ أن ينتج عن ذلك . إن شيئاً سوف يحدث من غير شك . »

وحاول دْيود أن يكتم ضحكه . ووقف خلف شجرة ازدرخت فلم يكن في ميسور أحد أن يراه . وراقبته إللي ماي من خلف أرومة الصنوبر متبسّمة لأنها كانت قد سمعت ما قالته بيسّي .

وجلس جيتر وانشأ يتأمل حقل الرتم الاسمر ، متسائلاً ما إذا كان في ميسوره أن يستعير بغلاً من مكانٍ ما ، ويجني بعض المحاصيل تلك السنة . لقد حلّ موسم الحرث ، وهذا ما أثار قلقه وعصبيته . إنه ما كان يريد أن يقعد على الشرفة عاطلاً عن العمل ، ويدع الربيع يمرّ من غير أن يحرث الأرض ويستروح عبير العشب المحروق . وكان قد انتهى إلى ان في ميسوره على الاقل ان يحرق العشب في حقله ، على الرغم من انه لمّا يعرف بعدُ السبيل إلى أن يحصل على بغل وبزر قطن وسماد طير . وكان خليقاً به ان ينطلق الآن ويضرم النار في

الرتم . ولكنه استشعر الراحة ، في مجلسه ذاك ، وفي ميسور الرتم أن ينتظر حتى اليوم التالي . كان ثمة متسع من الوقت ما يزال . ولن يلبث الزرع ان ينمو حالما يلقي البذور في الارض .

والآن وقد أمسى وحده ، عاوده الهمّ من جديد لِما بدرَ منه نحو لوف . لقد أراد أن يعمل شيئاً يصلح ما أفسده ذلك الحادث . وكان يرجو أن يمضي إلى المستودع صباح اليوم التالي فيبدي للوف عظيم أسفه ويعدُهُ بأن لا يسرق شيئاً بعد اليوم أبداً ، وهكذا يغفر له لوف ولا يحاول ان يرشقه بقطع عريضة من الفحم . وفي الوقت نفسه يكون في ميسوره ان يعرّج على بيت لوف ويتحدث إلى بيرل . إنه سوف يقول لها ان من الواجب عليها ان تقلع عن النوم على الارض وان تبذل اهتماماً أكبر بحاجات لوف . لقد كان يعرف بالتجربة ان مما يزعج الرجل ان يحتمل المرأة طول النهار ، واسوأ من ذلك ان تتركه ينام وحده حين يهبط الليل .

وتساءلت إيدا :

— « ألا تعتزم أن تنقل شيئاً من الحطب إلى أوغوستا ؟ لقد نفد السعوط منذ مدة لم أعد أذكرها . وكذلك نفد الطحين كله ، ونفد اللحم أيضاً . ليس في البيت ما يؤكل . »

فقال جيتر :

— « أنا أفكر في ان أنقل حملاً إلى هناك ، غداً أو بعد غد . لا تستعجلي . إن المرء يحتاج إلى وقت طويل حتى يستعد للقيام برحلة إلى هناك . يجب أن أفكّر في مصالحي . دعيني وشأني . »

— « أنت رجل كسول ، تلك هي علّتك . ولو لم تكن

كذلك لكان في استطاعتك ان تنقل حملاً كل يوم ، ولكان في استطاعتي أن أحصل على السعوط حين أكون في أمس الحاجة إليه . »

فقال جيتر :

— « ينبغي أن أفكر في استغلال هذه الارض . أنا لستُ حطّاباً ولكني مزارع . واولئك الحطّابون الذين ينقلون أحمالهم إلى أوغوستا ليس عندهم مزرعة يهتمون بها مثلي . أنا أتوقع ان اجني نحواً من خمسين بالة قطن هذا العام إذا استطعت ان استعير البغال وأوفّق إلى شراء بزور القطن وسماد الطير ، في فولر ، من غير ان أدفع ثمنها نقداً . وحق الاله ، وحق المسيح ، اني مزارع . أنا لستُ حطّاباً لعيناً . »

— « تلك هي الطريقة التي تتحدث بها في مثل هذا الوقت من كل سنة ، ولكنك لا تبدأ عملك البتة . وها قد انقضت سبع سنين أو ثمان لم تشقّ فيها ثلماً واحداً . ولقد طالما سمعتك تتحدث عن رغبتك في حراثة الارض من جديد ، حتى صرت لا اؤمن بكلمة مما تقول . تلك كذبة كبيرة عتيقة مبالغ فيها . وأنتم الرجال كلكم هكذا . وفي هذه المنطقة مئة رجل مثلك ، ليس لهم من عمل غير الكلام . إن الآخرين يطوفون في البلاد ويشحذون . أما أنت فأكسل من أن تقوم حتى بهذا العمل . »

فقال جيتر :

— « إسمعي يا إيدا ، سوف أبدأ العمل في الصباح . وحالما أُحرق جميع الحقول سأذهب فأستعير بعض البغال . في وسعي

أنا ودْيود ان نجني بالةً من كل أكر من الارض ، إذا استطعت أن أحصل على البزور وسماد الطير . »

وهنا غادرت إيدا الشرفة قائلة :

— « بف ! »

٧

لم يذهب جيتر إلى مستودع الفحم ليرى لوف . وكذلك لم يذهب إلى منزل لوف ليتحدث إلى بيرل .

كان من دأب جيتر ان يرسم في ذهنه خططاً مفصلة جداً لكل ما يعتزم عمله ، ولكنه ما كان ليحقق شيئاً من ذلك ، لسبب من الاسباب . ومرت الأيام ، وكان أسهل عليه ان يقول انه سوف ينتظر إلى الغد . حتى إذا أشرق صباح اليوم التالي أرجأ العمل ، دائماً ، إلى وقت أكثر ملاءمة . وكانت الأمور قد جرت على هذا النحو الهين اليسير منذ شبّ جيتر عن الطوق ، تقريباً ، ومع ذلك فقد اتخذ أهبته ، من جديد ، لاحـراق الاعشاب في حقله ، وحراثة أرضه . لقد أراد ان يزرع شيئاً من القطن .

وكان رتق شفة إللي ماي واحدةً من تلك المسائل التي كان جيتر قد رجا ، منذ خمسة عشر عاماً ، ان يحققها . كـان يقول ، عدة مرات في كل عام ، انه سوف يأخذها إلى طبيب في أوغوستا ، حتى إذا بذل جهداً في سبيل الذهاب إلى هناك

لم يتقدم إلى أبعد من المخزن القائم عند مفترق الطرق ، حيث كان يعترضه ، في كل مرة ، شيء يضطره إلى تعديل خططه .

وفي خلال تلك السنوات كلها وصل جيتر إلى أوغوستا مرتين أو ثلاث مرات وليس في نيته غير اجراء العملية لأللي ماي . ولكن شيئاً كان يخطر بباله ، كل مرة ، في آخر دقيقة ، شيئاً يظنّ انه في حاجة اليه أكثر من حاجة إللي ماي إلى عملية. وكان ذلك الشيء هو ، حيناً ، حبال المحراث التي لم يبق في ميسوره الاستغناء عنها يوماً واحداً ، برغم انه ما كان عنده بغل يستخدمها عليه . وكان السعوط هو ما يحتاج اليه أمسّ الاحتياج ، حيناً آخر ، فهو يعرّج على المخزن ، وينفق آخر فلسٍ مما انطوت عليه جيوبه من مالٍ نزر ، ثم ينقلب مع إللي ماي إلى البيت من غير أن يحقق شيئاً .

ولم تحتجّ إللي ماي . فما كان في ميسور أحد أن يُقنعها ان شفتها الشرماء يمكن ان تُخاط على نحوٍ لا يُبقي منها غير ندبة لا تُلحظ إلا بعد إنعام النظر . لقد اعتادت تلك الثغرةَ الضيقة في فمها حتى لقد غدا من المتعذر عليها ان تؤمن بأن في مستطاعها ان تبدو ، في يوم من الايام ، على غير صورتها المألوفة .

وكانت إللي ماي ، كلما اعتزم جيتر ان يذهب بها إلى المستشفى ، وخاطبها في ذلك ، تقف خلف زاوية المنزل ، أو خلف إحدى شجرات الازدرخت المتناثرة حول المنزل وتبتسم مكشّرة . لقد تحدث أفراد الاسرة عن شفتها المشرومة حديثاً يكاد يكون موصولاً ، حتى لقد غدت تؤمن بأن كلام جيتر عن العملية لم يكن غير أسلوب جديد من أساليب التندر بها

والسخرية من هيئتها . وكانت تبقى مكانها خلف البيت أو خلف شجرة الأزدرخت حتى يُغيّر موضوع الحديث . ولا تظهر للعيان إلا بعد أن تثق من ان أحداً لن يتكلم عنها شيئاً إضافياً .

وكان جيبّر قد قال لها ذات يوم :

— « ليس من الاثم ان تكوني هكذا يا إللي ماي . الله هو الذي خلقكِ على هذه الشاكلة ، وعلى هذه الصورة شاء هو أن تكوني . ويخيّل إليّ في بعض الاحيان ان من الاثم تغيير شيء ، لان معنى ذلك تقويض ما عمله هو وصُنعه من جديد . »

وقالت إيدا :

— « حسناً ، كل ما أريد قوله ان مما يُخجل انه لم يجعل دْيود أشرم بدلاً من إللي ماي . إن تلك الصورة لا تليق بالصبايا ، فالنساء لا يصلحن لشيء غير الزواج والعمل في خدمة الرجال ، وحين تكون أيّ امرأة مصابة بتلك العاهة فعندئذ ينفر جميع الرجال من استعمالها . ولو كان دْيود هو الاشرم لهانت المسألة . إن وجوه الرجال ليست محطّ الانظار مثل وجوه النساء . »

ومنذ عدة سنوات ذهبت إللي ماي إلى المدرسة لتلتحق في صف السنة الاولى ، ولكنها ما لبثت ان رجعت إلى البيت قبل الظهر ثم لم تذهب إلى المدرسة كرةً ثانية . لقد قال لها المعلم انها بلغت سناً لا تمكّنها من تلقّي الدروس مع الاطفال الصغار ، ولكن السبب الحقيقي لاقصائها عن المدرسة هو ان الصِّبية والبنات ضحكوا من شفتها المشرومة ضحكاً كثيراً حتى أمسوا عاجزين

عن حفظ دروسهم . وهكذا انقلبت إللي ماي إلى البيت ولم تعد إلى المدرسة بعد ذلك قط . ولم يقصد دْيود إلى المدرسة ، في يوم من الايام ، أيضاً ، فقد قال جيتّر انه محتاج اليه ليساعده في العمل .

ولكن إذا كان جيتّر غير مبالٍ بحاجة إللي ماي إلى عملية فقد كان حريصاً جداً على شيء واحد في الحياة فهو يحاول ان يعمله بكل ما اوتي من قوة في العقل والجسد . وكان ذلك الشيء هو حراثة الارض . ففي هذه السنوات الست أو السبع الماضية ، نادراً ما مرت لحظة لم يفكّر خلالها في ذلك ، ولم يحاول ان يكتشف طريقة تمكّنه من زرع القطن . وحين هاجر الكابتن جون منذ سبع سنوات إلى أوغوستا ، بدا لجيتّر وكأن أبواب الزراعة أوصدت في وجهه ، ولكنه أبى ان يطّرح النضال من أجل حراثة الارض كل ربيع ، وزرعها قطناً .

وما كان في ميسور جيتّر ان يفكّر في فقدان أرضه وممتلكاته من غير أن يعتبر ذلك كارثةً تقع مسؤوليتها على عاتق الانسان . ولقد ذهب يوماً إلى انه هو المسؤول عن هذا البلاء ، ولكنه لم يشكّ لحظةً في ان الوضع الذي انتهى اليه هو من صنع الآخرين . ولم ينحِ باللائمة على الكابتن جون بقدر ما أنحى بها على غيره من الناس . فقد عامله الكابتن جون دائماً معاملةً حسنة ، وعمل من أجله أكثر مما عمل أيّ امرئ آخر . وحين اضطر جيتّر إلى ان يشتري من محالّ فولر بأكثر من القيمة التي يستطيع دفعها ، اجاز له الكابتن جون ان يواصل

ذلك ، ولم يضع في أيما يوم من الايام حداً لا يجوز لجيتر ان يتخطاه في استدانته . ولكن النهاية ما لبثت ان حلّت . فلم يعد ثمة أيما ربح في زراعة القطن على طريقة الكابتن جون البالية ، فغادر المزرعة ، وانتقل إلى أوغوستا . وبدلاً من أن يحاول تلقين مزارعيه الانسجام مع طرائق الزراعة الحديثة الأكثر وفراً ، وهو ما ظنّه منذ البدء عملاً مستحيلاً ، باع الادوات الزراعية كلها ورحل . ولو انه استثمر أرضه وحيواناته وأدواته استغلالاً عاقلاً إذن لمكّن جيتر وعشرات غيره ارتبطت مصائرهم بالكابتن جون ، من ان ينتجوا قوت يومهم من الحنطة ، ومحاصيل وافرة يبيعونها ابتغاء الربح . ولقد كان انشاء التعاونيات والمزارع التعاونية خليقاً بأن ينقذهم جميعاً .

وانتهى جيتر إلى الدرك الاسفل من الفقر . لقد انتزعت وسائل العيش منه ، فهو يتردّى في مهاوي الجوع شيئاً بعد شيء .

وكانت الارض التي من حوله ملكاً لجدّ جيتر . ولخمس وسبعين سنة خلت كانت أخصبَ الاراضي في الجزء الغربيّ الوسطيّ من جورجيا . وكان جده قد جرّد القسم الأعظم من الارض لزراعة التبغ . وكانت التربة صالحة آنذاك لزراعة التبغ أكثر من صلاحها لأي شيء آخر . كانت رملية دلغانية ، وكانت القنّة مرتفعة جافة . ولا يزال في ميسور المرء ، حتى اليوم ، أن يرى مئات من عنابر التبغ ، المتهدمة ، المرقعة بالطين ، في ما تبقّى من المزرعة . كان بعضها ما يزال قائماً ، ولكن كثرتها الكبيرة كانت متهرئة منطرحة على الارض .



وكانت الطريق التي يعيش جيتر عليها هي طريق التبغ الأصلية التي أنشأها جده . وكان طولها يبلغ نحواً من خمسة عشر ميلاً ، وتمتدّ في اتجاه جنوبيّ شرقي من سفوح تلال بييدمونت ، حيث تبدأ الكثبان الرملية ، حتى الروابي الشاهقة المحيطة بالنهر . وكانت الطريق تُصطنع لدحرجة براميل التبغ الضخمة التي عبّئت فيها الأوراق بعد أن عولجت وجُففت في العنابر الخشبية التي سُدت شقوقها بالطين . ولقد دُحرجت آلافٌ من تلك البراميل على طول القنة التي تربط ما بين سلسلة الكثبان الرملية ، فأنشأت طريقاً ثابتاً ممهداً يمتدّ مسافة خمسة عشر ميلاً . وكانت جماعات من الزنوج تدفع البراميل في بعض الاحيان إلى السفن البخارية الراسية في النهر ، على حين كانت أزواج من البغال تجرها إلى هناك ، أحياناً أخرى . ولكن غارب القنة كان يُلزَم دائماً لأن تنكّبه يؤدي إلى سقوط البراميل في الجداول الجارية في محاذاة الطريق إلى النهر . فلا يكاد يصيبها البلل حتى تفسد أوراق التبغ وتفقد قيمتها كلها .

وانقضت خمس وسبعون سنة على ذلك وطريق التبغ لا تزال قائمة . وعلى الرغم من انها كانت قد أخذت تمحّي في كثير من المواضع فأن الانخفاضات والتجاويف أحدثت فيها شكلاً سرمدياً سوف يبقى ما بقيت الكثبان الرملية . وكانت ثمة عشرات من طرق التبغ في الجانب الغربي من وادي سافاناه ، فأما بعضها فلم يكن طوله يعدو الميل الواحد ، وأما بعضها الآخر فكان يمتد خمسة وعشرين ميلاً أو ثلاثين ميلاً حتى سفوح تلال بييدمونت . وكان كل من يمر عبرَ الحقول خليقاً

بأن يقع على ست طرق أو ثماني طرق في مسيرة يوم واحد . والحق ان الاقليم كان من الناحية الطوبوغرافية أشبه شيء بسعفة النخل . فأما وادي سافاناه فكان يشكل الساق ، فهو عريض في القسم الادنى ثم يتفرع أوردةً ، شيئاً بعد شيء ، في القسم الأعلى . وعلى ضفة الوادي جرت الجداول كالتجاويف التي في سعف النخل ، على حين تقوم الكثبان الرملية وسطها كالدرز أو التخريم ، وتنهض طرق التبغ على غوارب القنن .

وورث والد جيتر نحواً من نصف مزرعة ليستر الأصلية ، ثم ما لبث نحوٌ من نصف ذلك تقريباً ان أفلت من بين أصابعه . لقد عجز ، قبل كل شيء ، عن اداء الضرائب ، فبيع قسم كبير من الارض وفاءً لمطالب السلطة عاماً بعد عام . أما البقية الباقية منها فحرثها جيتر جهده . لقد اقتصر على القطن يزرعه ، ولكن طبيعة الأرض الرملية الدلغانية اكرهته على ان يصطنع مقداراً متعاظماً من السماد الكيميائي في كل سنة . وكانت تلك التربة الرملية المتهدلة لا تمسك سماد الطير عندما تهطل أمطار الصيف المدرارة ، فهو يُجرف قبل ان توفق جذور النبات إلى الافادة منه .

وحين بلغ جيتر السنّ التي تيسر له العمل في الحقول ، كانت الارض قد انتهت إلى أن تصبح عبئاً ثقيلاً يقتضي صاحبَها نفقاتٍ باهظة ، فاحتلت شجرات الصنوبر القسم الأعظم منها . لقد استنفدت زراعة القطن المتكررة سنة بعد سنة طاقة التربة وحيويتها ، فغدا من المتعذر عليها ان تقدّم إلى مالكها أكثر من ربع بالة في الأكر الواحد . وغُذيت الارض بكميات من سماد الطير أكثر فأكثر ، لتجرفها التربة الرملية المتهدلة

أسرعَ فأسرع قبل ان تستطيع نباتات القطن الوصول اليها .

وحين توفي والد جيتر ترك له ديونه وما بقي من أرض ليستر . فكان عليه ، قبل كل شيء ، أن يسوي أمر الرهن المستحق . وارضاءً للدائنين قطع جيتر جميع الاشجار الصالحة لأن تُتخذ منها الاخشاب ، وباع جزءاً كبيراً آخر من الأرض. وبعدَ سنتين اثنتين وجد جيتر نفسَه مثقلاً بالديون إلى حد لم يعد يملك ، معه ، بعدَ ارضاء الدائنين ، أكراً واحداً من الارض ، بل مجرد منزل يأوي اليه . وكان الرجل الذي اشترى المزرعة ، عندما بيعت باشراف الحكومة ، هو الكابتن جون هارمون . ولقد أجاز الكابتن جون له ولاسرته ان يقيموا في أحد المنازل ، وان يعمل لحسابه لقاء نسبة مئوية من المحصول . وكان ذلك قبل عشر سنوات من اندلاع نار الحرب العالمية .

ومنذ ذلك الحين وجيتر يغرق كل عام في فقرٍ أمرّ من الفقر الذي عرفه في العام الذي قبله . ويبدو ان تلك الحال انتهت إلى ذروتها عندما باع الكابتن جون البغال والادوات الزراعية وانتقل إلى أوغوستا . وعندئذ فقدَ جيتر حصة الثلثين من محصول عمله في عام ، ولم يعد في وسعه ان يشتري الاطعمة والسعوط وغيرها من الحاجات الضرورية من مخازن فولر بالدّين. لقد ذهب ذلك كله بذهاب الكابتن جون . ولم يدر جيتر ما الذي ينبغي ان يفعله . فمن غير سعوط وطعام ، بدت الحياة غيرَ جديرة بأن تعاش منذ اليوم .

وفي تلك الفترة غادر معظم أولاده المنزل ، ومضوا إلى أوغوستا ومواطن أخرى . ولم يكن جيتر يعلم مستقرّ كل

منهم الآن .

لقد رُزق هو وإيدا سبعة عشر ولداً مات خمسة منهم وتناثر الاثنا عشر الباقون في مختلف الارجاء ، الا إللي ماي ودْيُود فقد ظلا في البيت . وكانت بيرل تقيم على مسيرة ميلين ليس غير ، ولكنها لم تفد يوماً على المنزل لترى جيتر وإيدا ، ولم يرها أيّ منهما قطّ أيضاً . ودُفن الموتى من الاولاد في أجزاء مختلفة من المزرعة . وحُرثت الارض بعد وفاة اولئك الاولاد . وإذ كانت القبور غير معلمة فما كان أحدٌ يدري أين يلتمسها .

وتزوج أولاد جيتر كلهم ما عدا دْيود وإللي ماي . وظن جيتر انه يعرف مقرّ توم . ولكنه لم يكن واثقاً من ذلك . لقد سمع في مخازن فولر ان توم ، وهو نجله الاكبر ، يدير معملاً لصنع العوارض الخشبية التي تدعم خطوط السكة الحديدية ، وان ذلك المعمل قائم في المقاطعة المجاورة ، على مبعدة عشرين ميلاً تقريباً .

ولم يكن أحدٌ يدري شيئاً عن مقرّ سائر الاولاد ، وما إذا كانوا لا يزالون ، جميعاً ، على قيد الحياة . وكانت ليزي بيلّ آخر من غادر المنزل . لقد مضت لسبيلها منذ عدة سنوات ، قائلة انها تبتغي ان تعمل في أحد مصانع القطن على الضفة الأخرى من النهر ، تجاه اوغوستا . وكان في وادي هورسكريك عشرة من مصانع القطن أو أكثر ، ولكنها لم تعيّن في أيٍّ منها سوف تشتغل . وقد قيل لجيتر انها ما تزال هناك ، وانها تزوجت ورُزقت حتى الآن سبعة أولاد . ولم يدر أصحيحٌ هذا الذي قيل له أم غير صحيح ، لأنه لم يتلقّ لا هو ولا إيدا أيّ رسالة

من ابنته قط .

وكانت تمرّ بجيتر أيامٌ يستشعر فيها الوحشة لعدم وجود أولاده كلهم من حوله ، فيتمنى لو يعود بعضهم لرؤيته ، أو لو يكتب بعضهم اليه رسالة . وكان يتساءل ، عندئذ ، أليس من الجائز ان يكونوا قد بعثوا اليه برسائل لم تصله ؟ فقد كانت طريق التبغ بعيدةً عن مسالك سعاة البريد ، ولم يكن له صندوق بريد . ولكنه قال عدة مرات انه سيذهب ذات يوم إلى مكتب البريد في فولر ليسأله ما إذا كانت ثمة رسالةٌ جاءته من ليزي بيلّ أو كلارا أو توم أو أيّ واحد من الآخرين . وكان يدري ان عليه أن يبحث عمن يقرأ له الرسائل إذا ما جاءه شيء منها لأنه لم يتعلّم ، لا هو ولا إيدا ، القراءة والكتابة . وكان قد قصد إلى فولر مئات المرات قبل ان يخطر في باله ، أول مرة ، ان يسأل مكتب البريد عن رسالة ، ولكنه لمّا يجدِ الوسيلة إلى القيام بذلك .

وكان يرجو ان يوفق إلى الذهاب ، في يوم من الايام ، إلى مقاطعة بورك لرؤية توم . ولقد رسم الخطة لهذه الرحلة منذ عدة سنوات ، ولكن السيارة العتيقة هي التي حالت بينه وبين الانطلاق ، في المرة الأولى ، على حين عاقه عن ذلك سوء الحال الجوية والطرق الموحلة ، في ما بعد .

وإنما اعتزم جيتر القيام بتلك الرحلة لغرضين اثنين . لقد أراد أن يرى ابنه توم ، طبعاً ، ويتحدث اليه ، ولكن حافزه الرئيسي إلى الذهاب كان اعتقاده بأن توم سوف يُجري عليه عطاءً نظامياً حين يعلم مبلغ الفقر الذي يقاسيه ، ومدى حاجته وحاجة أمه إيدا إلى السعوط والغذاء . ومن الاشياء التي سمعها

جيتر في مخازن فولر أدرك أن في وسع توم أن يعطيه بضعة دولارات كل أسبوع . فقد قال الناس إنه يملك خمسين أو ستين بغلاً ، وضعف هذا العدد من الثيران ، وانه يجني ربحاً عظيماً من العوارض الخشبية التي يبيعها لأدارة السكة الحديدية . لقد سمع جيتر ذلك عدة مرات في فولر ، وأدرك ان هذا الذي سمعه صحيح من غير ريب . إنه ما كان في مستطاعه ان يؤمن بأن توم قد يرفض اسداء يد العون اليه وإلى إيدا حين يشكو اليه فقرهما المدقع . والآن وقد أوشك الشتاء على ان ينقضي فقد رجا جيتر أن يوفق إلى القيام بتلك الرحلة في الصيف القادم . ان الطرق لن تكون موحلة ، آنذاك ، ولسوف يكون النهار أطول جداً منه اليوم .

وكان لانقضاء الشتاء وإطلال الايام الاولى من الربيع إطلالاً وئيداً اثره المألوف في نفس جيتر . لقد أضرمت أيام شباط المتأخرة الدافئة رغبته في حراثة الارض ، كرة أخرى . ففي مثل تلك الفترة من كل سنة كان يبذل جهداً جديداً لحرث الارض والبحث عن الوسائل التي تمكنه من شراء بزور القطن وسماد الطير ، بطريق الدّين ، من بعض التجار في فولر . وكانت محاولاته تنتهي دائماً إلى رفضهم جميعاً ان يقرضوه عشرة سنتات . وأياً ما كان فقد أحرق العشبَ في هذا الحقل من المزرعة وفي ذاك ، كلّ ربيع ، مجرداً الارض من شجرات الرتم استعداداً لحرثها إذا ما أعاره أحدهم بغلاً أو أعطاه قليلاً من بزر القطن وسماد الطير . لقد كانت هذه القصة نفسها تتكرر كل عام ، خلال السنوات الست أو السبع الخاليات .

كان يعمر قلبَ جيتر حبّ للأرض موروث عجزت جميع تجاربه القاسية في حقل الزراعة عن إخماد جذوته . لقد عاش حياته كلها هناك ، على بقية صغيرة من مزرعة ليستر . وعلى الرغم من ادراكه انها لم تكن مِلكه ، من وجهة النظر القانونية فقد استشعر انه خليق بأن يموت إذا فارقها . بل انه ما كان يسمح لنفسه بالتفكير في الهجرة إلى مكان ثانٍ ، حتى و لو سنحت له فرصة العمل في مزرعة رجل آخر على أساس من نسبة مئوية من الأنتاج . وكان مجرد الانتقال إلى اوغوستا والعمل في مصانع القطن أمراً متعذراً بالنسبة اليه. والحقّ ان نزوح المزارعين الآخرين إلى المصانع لم يترك أيما اثرٍ في نفس جيتر . كان يقول إن العمل في المصانع قد يلائم طائفة من الناس ، أما هو فيؤثر ان يموت جوعاً على أن يغادر أرضه . وخلال سبع سنوات لم تتغير آراؤه حول هذا الموضوع ، البتة . على العكس لقد غدا مصمماً أكثر من أيّ وقت مضى على البقاء حيث هو مهما كان الثمن .

وعندما غادرت ليزي بيلّ المنزل قالت إيدا انها سوف تهاجر إلى اوغوستا أيضاً . ولكن جيتر لم يسمع لكلامها . إنه لم يستشعر ، في أيّ لحظة من لحظات حياته ، الرغبة في مفارقة الارض والعيش في مدينة من مدن الصناعة .

وكان جيتر قد قال هازاً رأسه :

— « حياة المدن ليست شيئاً مما خلقه الله . ولم يُكتب للرجل الذي وُلد ورائحة الارض في جسده ان يعيش في مصنع من المصانع في أوغوستا . لعلّ من الخير لبعض الناس ان يفعلوا ذلك ، ولكن الله لم يردْ لي لحظةً ان أفعله . لقد

فتح عينيّ للنور هنا ، على أرضي هذه ، فلن أغادرها بأية حال . ولو تحتّم عليّ ان أعيش في أحد مصانع القطن طول عمري لأحسست مثل إحساس دجاجة قُطع رأسها . »

فأجابته إيدا مغضبة :

— « أنت تتكلم مثل معتوه عجوز . إن العيش في المصانع أفضل بكثير من البقاء هنا ، على طريق التبغ ، والجوع حتى الموت . هناك سوف يكون في استطاعتك أن تأتيني بحاجتي من السعوط . أنا لا أجد هنا مقداراً من السعوط كافياً لتهدئتي . »

فقال جيتر :

— « يعتزم الرب أن يسد حاجاتنا كلها . وأنا مستعد الآن لأن أتلقى نعمته . إني أتوقعها بين دقيقة ودقيقة . فهو لن يدعنا نبقى هنا ونجوع . سوف يرسل الينا بعض السعوط والاطعمة في وقت قريب جداً . لقد كنت طول عمري تقياً أخاف الله ، وهو لن يتركني أقاسي من العذاب أكثر مما قاسيت . »

— « حسناً ، ابق جالساً في مكانك ، وسترى ! سوف تنقضي عشر سنوات أخرى وانت على حالك الآن ، إذا عشتَ هذه المدة كلها . حتى الأطفال عندهم ادراك أكثر منك . ألم يذهبوا إلى المصانع ويشتغلوا فيها منذ صارت سنهم تساعدهم على ذلك ؟ لقد كانوا أعقل من أن يجلسوا هنا وينتظروا منك ان تضع الطعام في أفواههم وبطونهم الجائعة . لقد عرفوا انك لن تعمل شيئاً في هذه السبيل ، غير الكلام . ولو لم أكن عجوزاً إلى هذا الحد ، لذهبتُ إلى المصانع ، في هذه اللحظة ،

وكسبت شيئاً من المال . »

— « إن الرب يرسل إليّ كل المصائب التي تخطر بباله لكي يمتحن نفسي . ولا شك انه يخبئ لي شيئاً حسناً إلى حد كبير لأنه يختبرني اختباراً قاسياً . وأعتقد أنه يتصور اني إذا استطعت ان أحتمل أفراد اسرتي أنفسهم فمعنى ذلك ان في وسعي ان أتغلب على الشيطان . »

فقالت إيدا :

— « بنى ! إذا لم يسارع ويعمل شيئاً من أجلنا فسوف يفوت الاوان . إن معدتي المسكينة تؤلمني ألماً شديداً طول النهار عندما لا يكون عندي شيء من السعوط اهدئها به . »

٨

لم يكن في الكثبان الرملية عملٌ يستطيع ان يجده جيتر فيعود عليه ولو ببضعة سنتات في اليوم . فضمن نطاق دائرةٍ شعاعها عشرون ميلاً كان المزارعون في غير حاجة إلى مساعدة مأجورة، لأنهم كلهم تقريباً كانوا في مثل حالة جيتر ، على حين كان بعضهم في وضع أدهى وأمرّ . ولم يكن ثمة ، قرب طريق التبغ ، مناشر للخشب أو مصافٍ لزيت البطم أو التربنتين يستطيع ان يعمل فيها . وكان العمل في مستودع الفحم هو وحده الميسور في المنطقة كلها . ولكن لوف كان قد تولى تلك الوظيفة منذ أن انشئت « سكة حديد اوغوستا وجورجيا الجنوبية ». وحتى لو استطاع جيتر ان ينتزع الوظيفة من لوف ، فلن يكون في ميسوره أن ينهض بمثل هذا العمل الشاق إلى أبعد الحدود . ذلك بأن تعبئة الصناديق الحديدية الضخمة طول النهار ودحرجتها إلى حافة الماكينة حيث تُفرغ في الصهاريج تقتضيان ظهراً قوياً وذراعين أكثر قوة . وكان في استطاعة لوف ان يقوم بالعمل ، لأنه تعوّده . ومن الحماقة أن يحاول

جيتّر النهوض بعبء ذلك ، وهو في تلك الحال من الضعف والعجز ، حتى ولو رغبت السكة الحديدية في استئجاره .

وكان أمل جيتّر في العثور على توم يمده بالقوة على المصابرة والجِلاد . فوراء ايمانه الناضح بالأمل بأن توم سوف يعطيه شيئاً من مال ، كان يكمن خوفه من أن يموت وليس عنده بذلة لائقة يُدفن بها . لقد نشأ في نفسه ذعرٌ متعاظم من ان يموت وليس على جسده غير الوزرة أو ثياب العمل .

وكانت إيدا تتحدث كثيراً عن رغبتها في شراء ثوبٍ لائق تُدفن به حين ينتهي أجلها . كانت تريد ثوباً حريرياً أحمر أو أسود – لا فرق – ما دام طوله وفق مقتضى الموضة . وكان عندها ثوبٌ صانته عدة سنوات لكي تموت به ، ولكنها كانت أبداً في همّ مقيم ، خشية ان يكون غير منسجم ، من حيث الطول ، مع الموضة الحديثة . ذلك ان طولاً معيناً يدرج في سنة من السنوات فما يحول الحول حتى تقضي الموضة ، على نحوٍ غامضٍ خفيّ ، بزيادته أو نقصه عدة بوصات . وكان من المتعذر على إيدا ان تلاحق هذه التغيّرات كلها . وهكذا حاولت على الرغم من ادخارها ليوم وفاتها ثوباً خاصاً ، ان تنتزع من جيتّر وعداً بأن يشتري لها ثوباً جديداً منسجماً مع الزي الاخير ، لكي ترتديه حين ترقد رقدتها الابدية .

واعتقدت إيدا انها سوف تموت بين يوم وآخر . وكان من عادتها ان تدهش لنهوضها في الصباح واكتشافها انها ما تزال على قيد الحياة . ولم يكن داء البلاغرا الذي اعتصر الحياة شيئاً

فشيئاً من جسدها الضامر غير موت متطاول بطيء . وكانت الجدة العجوز تشكو البلاغرا أيضاً ولكنها امتنعت بطريقة ما على الموت . لقد صارع جسدها الواهن ذلك الداء يوماً إثر يوم ، ولكن في ما عدا ذبول بشرتها ولحمها ذبولاً بطيئاً ، لم يكن في ميسور أحد ان يحزر متى ستموت . كان وزنها لا يعدو الآن اثنين وسبعين رطلاً ؛ أما في الايام الخالية فكانت امرأة بدينة ، وكان وزنها قبل عشرين عاماً مئتي رطل . وكان جيتر غاضباً عليها لبقائها على قيد الحياة ، فهو لا يقدّم اليها شيئاً من الطعام كلما وجد سبيلاً إلى حرمانها منه . وأياً ما كان ، فقد تعلّمت كيف تلتمس ما يقيم اودها ، على طريقتها الخاصة . أما كيف كان ذلك فهذا ما لم يعرفه أحد . كانت في بعض الاحيان تغلي شيئاً من أوراق الاشجار وجذورها . وكانت في بعضها الآخر تأكل الاعشاب البرية وزهرات الحقول .

وكان جيتر قد أوضح لأهله الطريقة التي يود أن تُصطنع في دفنه . ولقد أكد لكلٍ من إيدا ولوف أهمية العمل بموجب تلك الطريقة وضرورته . والحقّ انه توقع أن تموت إيدا قبله ، ولكنه مخافةَ ان يُقتل في سيارته على حين غرة ، انتزع من إيدا وعداً بأن تشتري له بذلة جديدة يُدفن بها . أما إذا تعذر عليها ذلك ، فعندئذ يتعيّن عليها ان تمضي إلى فولر وتسأل بعض التجار أن يعطوها بذلةً عتيقة يلبسها في مثواه الاخير . وكان على لوف أيضاً أن يقسم انه لن يألو جهداً في سبيل دفن جيتر ببذلة كاملة بدلاً من الوزرة أو ثياب العمل .

ولكن كان ثمة شيء آخر متصلٌ بوفاة جيتّر هذه ، وليس يقلّ عن هذا خطراً .

فقد كان جيتّر يخاف الفيران خوفاً شديداً . وكان ذلك عجيباً ، لأنه عاش طوال عمره ، وهو محاطٌ بها ، ولأنه عرف أخلاقها كما قد عرف أخلاق الرجال ، تقريباً . وكان مردّ كرهه الفيرانَ إلى حادثة وقعت يوم مات أبوه ، وكان جيتّر في ريعان الشباب .

فقد مات ليستّر العجوز في هذا البيت نفسه الذي يسكنه جيتّر الآن ، ثم دُفن في اليوم التالي . وتلك الليلة ، فيما كان جيتّر ونفر من الرجال جالسين حول جثمانه ، اقترح أحدهم أن يمضي الجمع كلهم إلى فولر فيشتّروا زجاجات الكوكاكولا وشيئاً من التبغ . كان عليهم أن يسهروا الليل كله حول الجثمان ، وكانوا قد استشعروا الحاجة إلى شيء يشربونه وشيء يدخنونه . وإذ كان جميع الرجال ، وفيهم جيتّر نفسه ، راغبين في المضيّ إلى فولر ، فقد وضعوا الجثة في عنبر الذرة وأوصدوا دونها الباب . وكان العنبر هو المكان الوحيد — في تلك المزرعة — الذي يستطيع المرء أن يوصد فيه الباب على أيما شيء ثم يعود فيجده سالماً لم يمسّ . فقد كان من عادة الزنوج والبيض ان يلموا بمنزل ليستّر ، في موهن من الليل ، ويسرقوا كل ما تقع أيديهم عليه من أشياء لم تُحط بحماية ما . ولم يكن لأيّ من أبواب المنزل قفلٌ ، ولكن باب العنبر كان يحمل قفلاً . وهكذا وضع القوم جثة الميت في الداخل ، وأوصدوا الباب ، وأخذوا المفتاح ، ثم مضوا إلى فولر التماساً للكوكاكولا والتبغ .

وبعد ثلاث ساعات أو أربع ساعات عاد القوم إلى المنزل . وما كادوا يحلون وثاق البغال ويشدونها إلى عجلات العربة حيث تمضي بقية تلك الليلة حتى فتحوا باب العنبر ، ورفعوا الصندوق الخشبي ، ورجعوا به إلى البيت . ثم انهم انفقوا سائر الليل وهم يراقبون التابوت ، ويشربون الكوكاكولا ، ويدخنون التبغ ويمضغونه .

وفي أصيل اليوم التالي ، وكان التابوت على وشك ان يوارى الثرى ، رُفع الغطاء عن الجثمان لكي يُلقي عليه الاهل والاصدقاء نظرة الوداع . ولم يكد القوم يرون إلى الجثة حتى وثبت من التابوت فأرة ضخمة من فيران عنبر الذرة واختفت في الغابة . ولم يدرِ أحدٌ كيف تسربت تلك الفأرة إلى الداخل إلا بعد ان اكتشف بعضهم ثقباً في قعر الصندوق الخشبي كانت الفأرة قد قرضته إثر وضعه في العنبر .

ومرّ القوم أمام الجثمان يلقون النظرة الاخيرة على الفقيد ، وكلما حاذى التابوت واحدٌ منهم ارتسمت على وجهه انطباعة عجيبة . وقهقهت فئة من النساء ، وكشّر الرجال ، وتطلع بعضهم إلى وجوه بعض . وأسرع جيتر إلى التابوت ورأى ما الذي حدث . كانت الفأرة قد أكلت معظم الجانب الأيسر من وجه أبيه وعنقه . وأغلق جيتر التابوت وواراه الترابَ في الحال . إنه لم ينسَ ذلك النهار قطّ .

والآن وقد غدا الموت غير بعيد من جيتر فقد راح يلحّ أكثر من ذي قبل على ان جسده ينبغي ان لا يوضع في عنبر من عنابر الذرة أو يُترك حيث تستطيع الفيران أن تبلغه . وكان لوف قد وعده ، في كثير من الصدق والاخلاص ، بأن

يبذل غاية جهده لكي يحول دون وصول الفيران اليه قبل أن يُدفن .

وكان جيتّر قد قال لصهره عشرات المرات :

ـ « ينبغي ان تقسم لي انك لن تتركني في التابوت حيث تستطيع الفيران أن تصل إليّ . أنا أُشهد الله ، يا لوف ، ان هذه ليست طريقة ملائمة يُعامل بها الميت . ولقد أسفتَ لما أصاب أبي منذ ان وقع هذا الحادث ، وما أزال آسفاً لذلك . وأنا أعلن أمام الله أني لا أريد أن يصيبني مثل ما أصاب أبي يوم أفقدُ الروح وأصبح عاجزاً عن أن أعمل شيئاً للدفاع عن نفسي . »

فأجابه لوف :

ـ « لا تخف ولا تقلق . سوف أحفر حفرةً وأنزلك فيها حالما تموت . إني لن أنتظر الى اليوم التالي . لا ، بل سأضعك تحت التراب قبل أن تنقضي ساعة واحدة على موتك . سوف أهتمّ بجثتك . لا تقلق من هذه الناحية . »

ـ « كل ما أريده هو أن لا تضع التابوت في ذلك العنبر الملعون ، يا لوف ، وافعل بعد ذلك ما تشاء . إنه خال من الفيران الآن لأني لم أضع فيه شيئاً من الذرة منذ خمس سنوات تقريباً ، ولكنها ترحل اليه بين حين وآخر من مكان اقامتها الحاليّ عساها تقع فيه على شيء من الذرة . وقبل أن تغادر البيت قرضت أطواق البغال وكل ما وجدته في متناولها ، انتقاماً مني لعدم وضعي الذرة لها ، في ذلك المكان . وكنت أضربها على رؤوسها بالعصيّ ، ولكنّ هذا لم يمنعها من العودة بين حين وآخر . ولقد كنت هناك منذ مدة قريبة أبحث عن بعض

عرانيس الذرة اليابسة المأكول حبها ، فأذا بفأرة تعضّ رجلي قبل أن أخرج من العنبر . ولا ريب في ان جماعة الفيران تبغضني حتى الموت لأني لا أضع لهـا شيئاً من الذرة تأكله في ذلك العنبر . »

وإيدا أيضاً وعدت جيتر بأن تحول دون تعريض جسده للفيران التي يكرهها إلى هذا الحد . ولكن جيتر لم يلحّ عليهـا في ذلك بقدر ما ألحّ على لوف ، لأنه اعتقد انه سوف يعمّر عدة سنوات بعد وفاة إيدا .

وكانت إيدا تبدو وكأنها ستموت قبل جيتر . لقد سقطت أسنانها كلها ، وكانت قد اعتادت تنشّق السعوط وهي في الثامنة من العمر ليس غير . ولم تعمّر أسنانها فترة طويلة بعد الزواج . وكان موتها هو الشيء الوحيد الذي يشغل بالها علاوةً عـلى رغبتها الموصولة في السعوط . فقد كان خوفها أن لا يكون عندها ساعةَ وفاتها ثوبٌ على الزي الحديث يُقلقها ليلَ نهار . ولم تكن على ثقة من أن جيتر سوف يشتري لهـا ذلك الثوب عندما يجدّ الجدّ . من أجل هذا ادخرت الثوب العتيق ، لكي تُدفن به إذا لم يشترِ لها زوجها ثوباً أحدث منه زياً .

وقالت ذات يوم :

— « ليتني أعرف ، فقط ، أين تعيش بناتي ، فلعلهـن يساعدنني على شراء فستان جديد أُدفن به . كانت ليزي بيلّ تحب أُمها العجوز حباً كثيراً . وأنا أعرف أنها ستساعدني على شراء الثوب إذا عرفتُ مكانها . وكلارا قـد تساعدني أيضاً . كانت تقول لي كم كنتُ أبدو جميلةً حين أرجّل شعري في الصباح ، وأرتدي مئزراً نظيفاً وقبعة واقية من أشعة الشمس .

ولست أدري ما إذا كان أولادي الباقون يريدون أن يساعدوني أم لا . فقد انقضى وقت طويل لم أرهم فيه ، فأنا على وشك أن أنسى هيئاتهم . ويبدو لي أنني لا أستطيع ان أتذكر أسماءهم كلها في بعض الاحيان . »

فقال جيتر :

— « من الجائز ان تكون ليزي بيلّ تكسب مالاً كثيراً في مصانع القطن . ولعلي إذا وجدتها وحدّثتها عن حالي استطعت أن أقنعها بأن تأتي إلى هنا في يوم من الايام ومعها قليل من المال . أنا أعرف أن بيلي سوف يحمل الينا شيئاً من السعوط والاغذية إذا استطعت ان أكتشف مكانه . فقد كان بيلي أحسن أولادي الذكور كلهم تقريباً . كان يعاملني معاملة حسنة حتى في عهد طفولته . ولم يسرق في يوم من الايام الدبس الذي ندّخره للعشاء ، كما كان يفعل سائر أولادنا . وأحسب أنه أصبح اليوم تاجراً كبيراً يعمل في مكان ما . ولقد كان يقول دائماً انه سوف يكسب مالاً كثيراً لكي لا يضطر إلى ان يذهب حافياً ، في فصل الشتاء ، كما ذهب توم وكلارا حين فارقا البيت . »

وتحدثت إيدا إلى جيتر كلما دار الكلام على أولادهما الغائبين عن المنزل . لقد بدت وكأنها غير مهتمة بالاشياء الأخرى اهتماماً يحملها على ان تجشم نفسها عناء التحدث فيها . كانت تجيب عن أسئلة جيتر في معظم الاحيان ، وتؤنبه حين لا يكون في المنزل ما يقيم الأود . وفي ما بقي من وقت ، لم يكن عندها شيء تقوله غير النزر اليسير . ولكن ما ان يذكر اسم بيلي ، أو ليزي بيلّ ، أو كلارا ، أو ووكر حتى تفقد عيناها سيماهما

الغائرة ، وترغب في الكلام عنهم بقية النهار . ولم يرجع أحد من الاولاد إلى المنزل لرؤية أبيه وأمه ، ولم يبعث أحدٌ منهم برسالة . وإذ لم تتلق إيدا وجيتر رسالة ما ، فقد اعتقدا أن جميع أولادهما المفارقين البيت كانوا على قيد الحياة . فلم تكن ثمة وسيلة لمعرفة ما إذا كانوا قد ماتوا أم لا .

وكان جيتر قد قال لأيدا :

— « سوف أذهب إلى مقاطعة بوزك وأرى توم . لقد عقدتُ العزم على ان أذهب إلى هناك وأراه قبل أن أموت . وكل انسان في فولر يقول لي إنه يملأ ليلَ نهار عرباتٍ كاملة بعوارض الخشب المستعملة في تدعيم الخطوط الحديدية . ويقولون ان عنده معملاً كبيراً جداً ، في تلك المقاطعة ، لصنع هذه العوارض . ومن أحاديث الناس عنه يخيّل إليّ انه صار غنياً جداً الآن . ومن المؤكد أنه سوف يعطيني بعض المال . على الرغم من انه يبدو لي في بعض الاحيان ان الغني لا يمكن ان يمدّ يد المساعدة إلى الفقير . في حين يعطي الفقراء كل ما عندهم لمساعدة من لا يملك شيئاً . ذلك ما يخيّل إليّ . والاشياء لا ينبغي أن تكون هكذا على الاطلاق ، ولكني أظن ان الاغنياء ليس عندهم متسع من الوقت حتى يضيعوه معنا نحن جماعة الفقراء . »

— « حين ترى توم ، قل له ان أمه العجوز شديدة الشوق إلى رؤيته . وقل له إنني قلت انه كان أحسن أولادنا السبعة عشر كلهم تقريباً . إن كلارا وليزي بيل أفضل البنات ، ولكن توم وبيلي هما أفضل الصبيان . قل لتوم اني قلت إنه كان أحسنهم جميعاً ، فلعله يرسل إليّ بعض المال لأشتري ثوباً على

الزيّ الحديث . »

وقال جيتر :

— « بيرل هي الاجمل . فليس لأحد من البنات الباقيات ما لها من شعر أشقر جميل . وليس لأيّ منهنّ مثل عينيها الزرقاوين الفاتحتين . إنها أول ليسترية ذات شعر أشقر شاهدتها عيناي . وانه لمن المضحك ان تكون هكذا ، أليس كذلك يا إيدا ؟ »

فقالت إيدا :

— « إن بيرل هي أفضلهن عندي . وكم أتمنى لو تأتي فتراني في يوم من الايام . أنا لم أرها منذ غادرت المنزل في الصيف الماضي لتتزوج من لوف . »

فقال جيتر :

— « سوف أذهب لأقول لتوم ان من الواجب عليه أن يعطيني بعض المال . الناس في فولر يقولون انه أصبح الآن غنياً جداً . »

— « لا تنس أن تذكر له ان أمه العجوز تحبّ أن يشتري لها ثوباً على الزي الحديث تُدفن به . وأنا واثقة من أنه لن يضن عليّ بقليل من ماله من أجل شيء تافه كهذا . »

— « سوف أذكر له ذلك حين أراه ، ولكني لا أدري بأي طريقة سوف يتقبله . يُخيّل إليّ ان له زوجة وجيشاً من الأولاد ينبغي أن يطعمهم ويكسوهم . ومع ذلك فقد يعطيني شيئاً من المال . »

— « أتعتقد ان لتوم أولاداً ؟ »

— « هذا جائز : »

— « أنا متأكدة من اني أحب أن أراهم . ولا أشكّ في انّ لي عدة حفَدَة متناثرين في مختلف الانحاء ، فهذا شيء طبيعي بعد ان فارق البيت هذا العدد الكبير من أولادي الذكور والاناث . ولعلي إذا رأيت توم ان لا أشقى كثيراً لعدم رؤيتي سائر الاولاد . كل ما أعرفه أني رُزقت من غير شك بعض الحفَدَة ، وأنهم يعيشون في مكان ما من المقاطعة . »

— « أظن ان ليزي بيلّ وكلارا قد رُزقتا أولاداً كثيرين . فقد كانتا تتحدثان كثيراً عن رغبتهما في إنجاب الأولاد . ويقول الناس ، هناك في فولر ، ان ليزي بيلّ صار عندها عدد كبير منهم . ولست أدري كيف يعرف سائر الناس عن هذه الاشياء أكثر مما أعرف أنا . فالذي يبدو لي اني يجب أن أعرف عن أولادي أكثر مما يعرف سائر الناس . »

— « لعلك تستطيع أن تحمل توم على ان يصحب أولاده إلى هنا كي أراهم . قل له اني أريد أن أرى حفدتي ، ولعله يوافق عندئذ على أن يأتي بهم . »

وكانت إيدا قد تحدثت غير مرة عن مجيء توم بأولاده لكي تراهم . وكانت تذكّر زوجها بأن يقول لأبنها ذلك ، كلما أشار إلى اعتزامه السفر إلى مقاطعة بورك حيث يقوم معمل توم . حتى إذا انقضت سنةٌ اثر سنة ، ولم يسافر جيتر لرؤية ابنه ، خفت رغبتها في الحديث عن امكانية اجتماعها بأيّ حفيد من حفدتها . لقد عجز جيتر عن إنفاذ مشروع السفر هذا . فكان يقول ، في كل يوم ، انه منطلق غداً ، ثم يرجئ

الرحلة ، دائماً ، في الدقيقة الأخيرة .

وكل يوم تقريباً كان جيتر يقوم برحلة زائفة إلى مكان ما . كان يعتزم الذهـاب إلى فولر ، أو يعتزم الذهاب إلى ماك كوي ، أو يعتزم الذهاب إلى أوغوستا ، ولكنه ما كان ليذهب حيث زعم انه ذاهب . كان إذا أخبر إيدا ذات ليلة بأنه سوف يشخص في الصباح الباكر إلى ماك كوي غيّر رأيه في اللحظة الاخيرة وقرر الذهاب إلى فولر أو أوغوستا . وكان من عادته ان يقف ثم يمضي عبر حقول القطن القديمة ليلقي نظرةً على شجرات الرتم الطويلة السمراء ، فيحمله هذا على التفكير في شيء آخر . وكان إذا ما انتهى إلى غيضة الرتم يضطجع على الأرض ويغفو إغفاءةً صغيرة . ولم يكن ليُوفّق إلى الاحتطاب وحمل ما اجتمع له من ذلك إلى اوغوستا إلا بمعجزة . فقد كان الحمل الواحد من السنديان الأسود يقتضيه قطعُهُ أسبوعاً كاملاً في بعض الاحيان .

وفي تلك اللحظة ، آذن بالابتداء فصلٌ جديد من فصول السنة كان يضطره إلى المغالاة في التردد . كان القوم قد أخذوا يُضرمون النار في الرتم والشجيرات النابتة في غابة الصنوبر ، وكان عبير تلك النار يملأ الاجواء ، يوماً بعد يوم . بـل ان بعض المزارعين العاملين هناك ، في المدى البعيد ، قد شرعوا يحرثون الارض ، ففي ميسوره ان يستروح عبق الارض المفلوحة حديثاً ، من مبعدة أميال عديدة . وكان ذلك العبق ، الذي لم يُحسّ أحدٌ قطّ به ، ينتهي إلى أنف جيتر وهو أشدّ قوةً وحدّةً من أيّ رائحة يمكن لامريء ان يلحظها في الهواء . وكان ذلك يغريه بالانطلاق ، واضرام النار في حقول القطـن

القديمة وحراثة الارض . فقد كان الناس يفعلون مثل ذلك من حوله ، ولكن من أين يستعير بغلاً ؟ ولنفرض أنه وفّق إلى هذا ، فمن أين يشتري بزر القطن وسماد الطير وليس معه شيء من المال ؟ لقد سأل تجارَ فولر أن يعطوه ذلك من طريق الدّين مرّاتٍ عديدة حتّى لقد أصبحوا يعرفون مطلوبه وهو بعدُ لم يجتز عتبات مخازنهم ، فهم يرفعون رؤوسهم علامة الرفض قبل أن يلفظ كلمته الاولى ثم يرتدّون إلى حيث لا يستطيع أن يلحق بهم . لقد أمسى لا يدري ما الذي يتعيّن عليه أن يفعله في هذه السبيل .

والواقع ان جيتر أرجأ كل ما قد يخطر في بال الانسان ، تقريباً ، ولكنه كان أشدّ ما يكون المرء إصراراً وعناداً في أمر واحد ، هو حرث الارض واستنباتها قطناً . فهو يستهل كلّ يوم من أيام العمر بحماسته المحمومة ، حتّى إذا هبط الليل كان أشدّ تصميماً ، من أيّ لحظة مضت ، على التماس بغلٍ يستعيره ، وتاجر يقدّم اليه بزر القطن وسماد الطير من غير ان يتقـاضى الثمن نقداً .

٩

لم يكن قد انقضى على إشراق الشمس غير نصف ساعة حين وفدت بيسّي إلى بيت ليستر صباح اليوم التالي لمفارقتها إياه على ذلك النحو المفاجيء . وكانت قد قالت ، آنذاك ، انها ذاهبة إلى منزلها لتسأل الله ان يجيز لها الزواج من دْيود . ولم يكن جيتر ليتوقع ان يراها قبل انقضاء أيام عديدة . وما كان أحدٌ قد خرج إلى الفيناء حين اجتازته وعدت نحو الباب الامامي منادية ديود :

— « دْيود !... ايه ، ديود ! أين أنت ، يا ديود ؟ »

وكان جيتر قد نهض من فراشه قبيل سماعه صوتها ، أول مرة . واندفعت إلى غرفة النوم فيما كان جالساً ، يشدّ حذاءه ، على كرسي من الكراسي .

وسألها في لهجة ناعسة :

— « ماذا تريدين من دْيود ، يا بيسّي ؟ لأيّ غرض تنادينه ؟ »

وطوّفت بيسّي في الغرفة منقّبةً في السُرر . كان ثمة ثلاثة

سُرُر ينام فيهـا أفراد أسرة ليستر جميعاً . وكانت إيدا وجيتر ينامان في واحـد منها ، على حين تنام إللي مـاي والجدة العجوز في واحـد ، وينام ديود وحده في الفراش الثالث .

واستوت إللي ماي قاعدةً في فراشها وقد أيقظتها الجلبة ، وأنشأت تفرك عينيها . ونترت بيسّي اللحافَ عن فراش ديود، وانطلقت إلى الغرفة المجاورة التي تداعى سقفها إلى السقوط . وكانت تلك الغرفة هي مهجع الاسرة الثاني ، حيث نام معظم أبناء جيتر قبل مفارقتهم المنزل في يوم من الايام ، وكانت قد هُجرت بسبب انهيار جانب من السقف . لقد كانت مـلأى بالادوات المنزلية المختلفة .

ورجعت بيسّي ، وفتشت تحت سرير إيدا .

وسألها جيتر :

- « ماذا تريدين من ديود في هـذه الساعة من النهار ، يا بيسّي ؟ »

ولم تأبه هذه المرة أيضاً بأسئلة جيتر ولم تجب عنها . بل راحت تعدو في المطبخ وهي تنادي ديود بأعلى صوتها .

ولم يكد جيتر يشدّ رباط نعله ويرتدي صدرته الداخلية حتى لحق بها إلى الفِناء الخلفي . كان يعتمر قبعته اللبدية السوداء المتهدلة لأن قبعته كانت أول شيء يلبسه في الصباح، وآخر شيء يخلعه عند المساء .

وكان ديُود قائماً عند البئر يمتح دلواً من الماء ، فأدركته بيسّي قبل أن يوفق إلى إمالة الدلو ليطفيء غليله . وطوّقت عنقه بذراعيها ، وقبّلت وجهه في انفعال . وحاول ديود التفلت من

بين ذراعيها ، باديء الأمر ، حتى إذا عرف انها بيسّي تبسّم لها وطوّق خصرها بذراعيه .

واقترب جيتر منهما ، أكثر فأكثر ، وأنشأ يراقبهما . وفي الحال نزعت بيسّي أحد الامشاط التي تمسك شعرها وأخذت ترجل شعر ديود الاسود القاسي وتسوّيه براحتيها . وكان شعر ديود كثاً خشناً يقفّ منتصباً مهما رُجّل وسُوّي بالفرشاة . وكان دْيود يحاول في بعض الاحيان ان يُكره شعره على الاضطجاع بضع دقائق بأن يغطس رأسه في وعاء ماء ويمشطه في سرعة خاطفة . ولكن ما ان يأخذ الماء في الجفاف حتى يقفّ الشعر من جديد وكأنه متصل بنوابض أو « راسورات » . لقد كان شعر دْيود مثل هلب الخنزير قسوةً وانتصاباً .

وقال جيتر :

— « أنا لم أر في حياتي مبشرةً تسلك هذا المسلك الشاذ مع فتى غرّ مثل دْيود ! لماذا تفعلين ذلك لدْيود ، يا بيسّي ؟ انكما على وشك ان تتعانقا ويحتك أحدكما بالآخر كما فعلتما أمس فوق الشرفة . »

وتبسّمت بيسّي لديود وجيتر . واستندت إلى إطار البئر ، وردّت شعرها عن جبينها . لقد تعجلت الخروجَ من بيتها ذلك الصباح فلم تفرغ لتثبيته بالدبابيس .

وقالت :

— « أنا ودْيود سوف نتزوج . الربّ قال لي ان أفعل ذلك . لقد استشرته في هذه المسألة فقال : « أيتها الاخت بيسّي ، ان ديود ليستر هو الرجل الذي اريدكِ أن تتزوجيه .



انهضي في الصباح الباكر واذهبي إلى بيت ليستر وتزوجي من دْيود في الحال . » ذلك ما قاله لي الربّ في الليلة البارحة ، وتلك هي كلماته نفسها التي سمعتها بأذنيّ وأنا أصلي أمس في السرير . وهكذا لم تكد الشمس تشرق حتى غادرتُ الفراش وانطلقت إلى هنا بأسرع ما أستطيع ، لأنّ الرب لا يرضى بأن نؤخر إنفاذ ما يرسمه لنا من خطط . إنه يريد أن أتزوج ديود في الحال . . »

وفي عصبية ، أجال ديود بصره في ما حوله وكأنما كان يفكر في أن يفرّ بنفسه إلى الغابة ويتوارى عن الانظار . لقد نسي كم كان تائقاً ، مساء أمس ، إلى أن يمضي مع بيسي إلى منزلها ، عندما أشارت إلى موضوع الزواج أول مرة .

وقال جيتّر :

— « هل سمعتَ هذا ، يا ديود ؟ ما رأيك في ان تتزوج الاخت بيسي ؟ »

فأجابه ديود :

— « لا ، لا ، أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك ! »

فسأله جيتّر :

— « ولمَ لا تستطيع أن تفعل ذلك ؟ هل تشكو شيئاً ؟ ألم تستكمل رجولتك بعد ؟ »

— « جائز أن أكون ، وجائز أن لا أكون . أنا أخاف أن أفعل ذلك معها . »

فقال أبوه :

— « ولكن ، يا ديود ، ليس ثمة ما يستدعي الخوف . إن بيسّي لن تؤذيك . إنها تعرف كيف تعاملك . لقد سبق لها ان

تزوجت وهي الآن ارملة . إنها تعرف جيداً كيف تعامل الرجال . »

وقالت وهي تطوّق جيده بذراعها وتحكم شدّ ذراعيه على خصرها :

— « أنا لن أؤذيك ، يا ديود . وليس هناك ما يوجب الخوف . أنا مثل أختك إللي ماي ، تماماً ، ومثل أمك . إن النساء لا يُخفن أزواجهنّ على الاطلاق . ولن تندم على الزواج مني ، لأني أعرف كيف أعامل الرجال أحسن معاملة . »

وشقت إيدا طريقها مجتازةً جيتر وديود . وكانت قد أهملت ضفر شعرها بعد ان سمعت بالذي تريده بيسّي . ووقفت إلى جانب ديود وبيسّي ، وقد انقسم شعرها فوق كتفيها إلى قسمين ، وأخذت تعقص جانباً منه وتربط طرفه بشريطة ، لتعود فتعمل الشيء نفسه في الجانب الثاني . كانت منفعلة مثل بيسي ، سواء بسواء .

وقالت :

— « بيسّي ، يجب أن تحملي ديود على غسل قدميه بين حين وآخر ، لأنكِ إن لم تفعلي وسّخ لكِ لحافكِ . إنه يقضي الشتاء كله ، في بعض الاحيان ، من غير ان يغتسل ، وعندئذ يتسخ اللحاف إلى درجة تجعلكِ لا تعرفين كيف تنظفينه . إن ديود مهمل مثل أبيه . فقد ناضلت طويلاً حتى عوّدته ان يلبس جوربه في السرير ، لأن تلك الطريقة كانت وحدها الكفيلة بأبقاء اللحاف نظيفاً . كان يأبى أن يغتسل . واحسب ان ديود سوف ينهج خطة أبيه . لذلك يكون من الأفضل

ان تعوّدي ديود لبس جوربه في السرير ، أيضاً . »

وكانت إللي ماي قد خرجت من المنزل ووقفت خلف شجرة ازدرخت لكي تسمع وترى ما الذي كان يجري حول اطار البئر . وكانت الجدة العجوز في الفناء أيضاً . كانت تسترق النظر من وراء زاوية المنزل خشية ان يراها أحدٌ فيطردها .

واقترحت إيدا في حياء :

— « لعلكِ أنتِ وديود تعينانني على شراء ثوبٍ على الزي الحديث . أنتما تدركان جيداً مقدار حاجتي إلى ثوبٍ ذي طول مناسب أموت فيه . لقد يئست منذ زمن طويل من وعود جيتر بأن يشتري لي مثل هذا الثوب . انه لن يفعل ذلك في الوقت المناسب . »

ووقفوا جميعاً قرب البئر ، وأنشأ بعضهم ينظر إلى وجه الآخر ، حتى إذا وقعت عين جيتر على عين ديود خفض ديود رأسه وحدّق إلى الارض . كان في حيرة من أمره . فقد رغب في ان يتزوج ، ولكنه كان خائفاً من بيسي . كانت أكبر منه بخمس وعشرين سنة تقريباً .

وسألتْ بيسي :

— « أتدري ما الذي سوف أعمله ، يا جيتر ؟ »

فقال جيتر :

— « ماذا ؟ »

— « سوف أشتري سيارة جديدة ! »

— « سيارة جديدة ؟ »

— « سيارة جديدة مئة بالمئة . سوف أذهب إلى فولر في هذه اللحظة وآتي بها . »

فقال جيتر في لهجة من لم يصدّق :

— « سيارة جديدة مئة بالمئة ؟ سيارة جديدة مئة بالمئة من صحيح ؟ »

وفغر ديود فاه ، والتمعت عيناه .

وتساءل جيتر :

— « وبماذا ستشترين تلك السيارة ، يا بيسي ؟ هل عندك مال ؟ »

— « عندي ثمانمائة دولار أشتريها بها . ذلك ان زوجي السابق كان قد أمّن على حياته ، فلما توفي قدّمت إليّ شركة التأمين هذا المبلغ فوضعته في المصرف ، بأوغوستا . ولقد اعتزمت أن أنفقه في الوجوه التي تمكنني من الاستمرار في اداء رسالة زوجي السابق التبشيرية الاثيرة عنده . لقد كنت دائماً شديدة الرغبة في شراء سيارة جديدة مئة بالمئة . »

فسألها جيتر :

— « ومتى ستشترين تلك السيارة الجديدة ؟ »

— « في هذه اللحظة — اليوم . سوف أذهب إلى فولر واشتريها الآن . ولسوف أستعملها أنا وديود في تطوافنا في البلاد للتبشير والصلاة . »

فسألها ديود :

— « هل أستطيع أن أقودها ؟ »

— « من أجل هذا سوف أشتريها يا ديود ؛ سوف أشتريها لك لكي تقلّني بها حين يخطر في بالنا الذهاب إلى مكان ما في المقاطعة . »

فقال جيتر :

— « متى ستقومين أنتِ وديود بهذه الرحلة كلها وبالصلاة والتبشير ؟ هل ستتزوجان قبل ذلك أم بعده ؟ »

فقالت :

— « الآن في هذه اللحظة . سوف نمشي إلى فولر ، في الحال ، ونشتري السيارة الجديدة ، ثم نمتطيها إلى دار القضاء ونعقد القران . »

فسألها في لهجة تنضح بالشك :

— « أتعتزمين ان تحصلي على إجازة من السلطة تمكنكِ من الزواج ، أم انكِ ستعيشين مع ديود من غير اجازة ؟ »

فقالت :

— « سوف أحصل على إجازة للزواج . »

فذكّرها جيتر قائلاً :

— « الاجازة تكلف دولارين تقريباً . هل عندكِ دولاران ؟ ديود لا يملك دولارين ، بل ان ديود لا يملك شيئاً على الاطلاق . »

— « أنا لا أطلب من ديود فلساً واحداً . سوف أقوم بنفقات ذلك كله بنفسي . إن عندي ثمانمائة دولار في المصرف وشيئاً إضافياً من المال . فقد ادخرتُ دراهمي أملاً في ان يقع لي شيء مثل هذا . لقد كنت أنتظر ذلك منذ زمن طويل . »

وكان ديود يلقي ، خلال الدقائق القليلة الماضية ، بعض الحصى في البئر . ولكنه ما لبث ان كفّ عن ذلك ونظر إلى بيسي . لقد تطلّع إلى وجهها مباشرةً ، فأثار مشهد منخريها الكهفيّيْن المدورين ابتسامه . لقد رأى إلى أنفها من قبل ، ولكن

الثقبين ظهرا هـذه المرة أكثر اتساعاً وأشدّ استدارةً منهما في أيّ وقت مضى . لقد خيّل اليه تلك اللحظة ، أكثر مما خيّل اليه في أيمـا لحظة سابقـة ، أنه ينظر إلى فوهة بندقيـة ذات اسطوانتين . فلم يتمالك عن الاسترسال في الضحك .

فسألته وهي مقطبة الجبين :

— « علامَ تضحك ، يا ديود ؟ »

فقال لها :

— « على الثقبين اللذين في أنفكِ . أنا لم أر في حياتي قبل اليوم أيّ إنسان لا رأس لأنفه ، على هذه الشاكلة . »

وغدا وجه بيسي أبيض شاحباً . وخفضت رأسها رجاةَ ان تخفي ، جهد الطاقة ، منخريها المكشوفين . كانت شديـدة الحساسية من هذه الناحية ، ولكنها لم تهتدِ إلى طريقة تعالج بها أنفها . لقد وُلدت وليس في أنفها عظمٌ البتة ، ثم انقضت اربعون سنة تقريباً من غير أن ينمو ذلك العظم .

ووضعت يدها على وجهها ، ومسحت الدمع المتحدّر من زوايا عينيها ، قائلة :

— « أنا خجلة منك ، يا ديود . أنت تدري انه لا حيلة لي بهيئتي هذه . فقد كنتُ هكذا منذ نشأتي الأولى . واحسب ان أنفي لا يريد أن ينمو على الاطلاق . »

وأقحم ديود مقدّمي حذائه في الرمل ، وحاول أن يضحك . ولكنه ما لبث ان كفّ عن الضحك وزوى ما بين عينيه بمثل الفجاءة التي تطلّع فيها ، باديء الامر ، إلى وجـه بيسّي وابتسم . كانت ذكرى السيارة الجديدة هي التي جعلته يقلع عن السخرية ببيسي . فما دامت تعتزم شراء سيارة جديدة فهو

خليق بأن لا يجد في وجهها ذاك أيّ بأس . وحتى لو كانت لها شفة مشرومة ، مثل إللي ماي ، فلن يكون ذلك محل اعتراض عنده ، بعد ان أصبح في ميسوره ، الآن ، أن يمتطي متن السيارة ويمضي بها حيث يشاء . إنه لم يقد سيارة جديدة من قبل ، وكان ذلك شيئاً يرغب في القيام به أكثر مما يرغب في القيام بأي عمل آخر .

وقال لها في قلق :

— « أنا لم أقصد إلى ان أجرحكِ . أُقسم لكِ بالله اني لم أقصد . أنا لا أبالي بشكل أنفكِ على الاطلاق . »

وتبسمت بيسي من جديد ، وطوّقت خصره بذراعيها . ورفعت بصرها اليه كرةً أخرى ، وأدنت وجهها من وجهه إلى درجة جعلته يحس بأنفاسها . وكان عليه ان يكفّ عن النظر من خلال أنفها لأنّ التحديق إلى شيء لا يبعد عنه أكثر من بضعة إنشات كان يؤذي عينيه ، ويوقع الصداع في رأسه . فلم يكن منخرا بيسي ، حين تقف على مثل هذا القرب منه ، غير لطختين سوداوين على وجهها .

وسألها ديود كرةً أخرى راجياً ان لا يكون في مسلكه ما حملها على ان تغير رأيها :

— « هل أستطيع أن أقود السيارة الجديدة ؟ أتعتزمين ان تسمحي لي بأن أقودها ؟ »

— « من أجل هذا سوف اشتريها ، يا ديود . سوف اشتريها لكي يكون في وسعك ان تقودها وأنت تطوّف في البلاد . سوف نتزوج نحن الاثنين ، وعندئذ سيكون في استطاعتنا ان نقضي الوقت كله متنقّلين بالسيارة من مكان إلى مكان إذا شئنا.

أنا لن أحول بينك وبين الذهاب إلى أيّ مكان ترغب في ان تقصد اليه . في استطاعتك أن تركب السيارة طول الوقت . »

— « وهل سيكون لتلك السيارة زمور ؟ »

— « أظن ذلك ، أليس لكلٍّ من السيارات الجديدة زمورٌ مركّبٌ فيها ؟ »

فقال :

— « هذا جائز . وعلى كل حالٍ ، تأكدي حين تشترين السيارة ان لها زموراً . لأن السيارة من غير زمور لا تساوي شيئاً . »

فقال جيتر :

— « ديود ولدٌ محظوظ إلى حد لعين . أنا لم أحصل على شيء من الاشياء ، حين تزوجت إيدا . لم يكن عندها غير بعض الفساتين ، وكان أهلها من الفقر بحيث اضطروا إلى ان يأكلوا الطحين وشحم الخنزير كما نفعل نحن اليوم . أنا لم أحصل ، حين تزوجتها ، إلا على مجموعة من المتاعب . »

واقتربت إيدا نحو بيسي ، ووضعت يدها على ذراعها ، وقالت :

— « إذا كنتِ تملكين كل هذا المال يا بيسي ، فقد يكون في استطاعتك ، أنتِ وديود ، ان تشتريا لي وعاء من السعوط في فولر . ألا ترغبين في ان تقومي بهذه الخدمة اكراماً لأم ديود العجوز ؟ فما دام ديود ولدي ، يتحتّم عليكِ أن تأتيني بجرة من السعوط مهما كلف الأمر . واني لأكون مسرورة جداً إذا استطعت ان تشتري لي ثلاث جرار أو أربع جرار من

السعوط ، ما دمتِ ذاهبةً إلى فولر . إن السعوط يهدئ أوجاع معدتي حين لا يكون عندنا شيء نأكله . »

فقال جيتر :

— « منذ مدة طويلة وأنا محتاج إلى وزرة جديدة ، يا بيسي . وأقسم لكِ اني صرت أخاف الابتعاد عن منزلي بعد اليوم لأني لا أعرف في أي لحظة تسقط ثيابي عن بدني من غير ان أنتبه لذلك . فإذا استطعتِ ان تشتري لي ، من فولر ، وزرة جديدة شكرتُ لكِ ذلك أعظم الشكر . »

وأمسكت بيسي بيد ديود وقادته بعيداً عن البئر . واستدارا حول المنزل ، حتى إذا غابا عن العيون وقفت خلفه وضمته إلى صدرها ضمةً جعلته غير قادر على التنفس إلا بعد ان خلّت سبيله .

وقال لها :

— « لماذا تفعلين بي هكذا ؟ إن أحداً لم يضمني على هذا الشكل من قبل . »

— « أنا وأنت سوف نتزوج يا ديود . ألا تعرف ذلك ؟ »

واستدار فوقف خلفها ، ونظر إلى مؤخر رأسها ، ثم انقلب إلى موقفه الأول .

وسألها :

— « متى ستشترين السيارة الجديدة ؟ »

— « في هذه اللحظة ، يا ديود . سوف نذهب إلى فولر ، في الحال ، ونشتريها . »

ولم يعرف ديود ، في حياته كلها ، مثل الانفعال الذي استبد به كلما خطر له انه سوف يقود سيارة جديدة . فقد كانت

جميع السيارات التي رآها عتيفة كسيارة جيتّر ، باستثناء هاتيك التي كان يقودها الاغنياء في أوغوستا . وما كان بقادر على ان يُقنع نفسه بأنه سوف يسوق ، فعلاً ، واحدةً من مثل تلك التي رآها في المدينة . لقد أراد أن ينطلق إلى فولر من غير ان يضيع دقيقة واحدة من الزمان .

وقال :

— « هيا بنا . ليس عندنا وقت نضيعه . »

فقالت :

— « ألستَ سعيداً بأنا سوف نتزوج ؟ سيكون ذلك شيئاً رائعاً حقاً ، أليس كذلك يا ديود ؟ »

وكان سائر أفراد اسرة ليستّر قد لحقوا بهما إلى الفناء الأمامي ، ووقفوا عند زاوية البيت منتظرين ان يروا ديود وبيسي يتخذان سبيلهما إلى فولر . وتبعتهما إللي ماي فاجتازت نصف ميل من الطريق تقريباً ، قبل ان تستدير وتنقلب راجعة إلى البيت .

ومشى ديود في المقدمة ، وتخلفت بيسي بضع ياردات وراءه . حتى إذا بلغا قمة الكثيب الرملي الأول ، تمهلا وتلفتا نحو بيت ليستّر ليريا ما إذا كانت إيدا وجيتّر لا يزالان يراقبانهما . وأنشأت بيسي تلوّح بيدها حتى سألها ديود ان تعجّل كي يصلا إلى فولر بأسرع وقت مستطاع .

واقتضاهما السير الطويل إلى فولر نحواً من ساعتين ، لأنّ بيسي كانت مضطرة إلى أن تقف عدة مرات ، لكي تستريح عند جانب من الطريق . كانت أشعة الشمس شديدة الاتقاد ، فهما لم يغادرا بيت ليستّر إلا في الساعة العاشرة تقريباً ، وكان

السير عبرّ الرمل العميق شاقاً عسيراً ، وبخاصة بالنسبة إلى بيسي. ففي بعض المواطن كان عمق الرمل قدماً ، وكانت قدماها تغرقان إلى درجة جعلت الرمل يملأ حذاءها . وما كان لديود ان يقعد ريثما تنشط بيسي للسير من جديد . كان ينتظرها على مبعدة بضع مئات من الاقدام ، حاثاً إياها على الاسراع.

وكان ديود قد أخذ يبطئ الخطى لكي يكون في ميسور بيسي أن تلحق به . ولكنْ ما إن اقتربا من فولر حتى لم يعد في امكان ديود ان يكبح جماح نفسه . فراح يركض حتى اتسعت الشقة ما بينه وبين بيسي فبلغت بضع مئات من الاقدام . ثم إنه اضطر إلى أن ينقلب ماشياً حتى يلتقي بيسي . كان في ميسوره أن يمضي إلى البلدة وحده ، ولكنه لم يكن يدري أيّ شيء يتعين عليه ان يفعله حين ينتهي اليها . وكان يحاذر أيضاً أن يبتعد عن بيسّي كثيراً ، خشية أن تنقلب على عقبيها وترجع من غير أن تشتري السيارة الجديدة .

ولم يتكلم أيّ منهما طوال تلك الرحلة . لقد همهمت بيسّي فيما بينها وبين نفسها بأحدى التراتيل ، رافعةً صوتها حيناً بعد حين حتى يبلغ تلك الطبقة الجهورية التي تؤثرها بالحب ولكنها لم تحاول ان تتحدث إلى ديود . كان كل منهما مستغرقاً في أفكاره ، فهو في شُغل عن الكلام .

١٠

وانتظر دْيُود أمام المرأب ، وانشأ يتأمل السيارة الجديدة المعروضة في الواجهة . كانت بيسّي قد دخلت المحلّ ، بعد أن قال لها ديود إنه سوف يبقى في الشارع ويلقي نظرةً على واجهة العرض .

وبقيت بيسّي بضع دقائق واقفةً في منتصف المحل قبل ان يخرج أحدٌ من الغرفة الخلفية فيسألها ما تريد . وأخيراً تقدّم نحوها أحد الباعة وسألها أيّ شيء تبغي . ولاحظ أوّل ما وقعت عينه عليها ان لها أنفاً عجيباً غير سويّ .

وقالت بيسي :

— « لقد جئت لأشتري سيارة فورد جديدة . »

وإذْ كان البائع منهمكاً غاية الانهماك في النظر إلى منخريها فقد فاته ان يدرك مرادها ، وسألها ان تكرر على مسمعه ما قالت :

— « لقد جئت لأشتري سيارة فورد جديدة . »

— « وهل عندكِ شيء من المال ؟ »

وألقى نظرةً على ما حوله ليرى ما إذا كان أحدٌ من الرجال الآخرين في الغرفة . كان يريد ان يُريهم أنف بيسي العجيب .

— « عندي ما يكفيني لشراء سيارة جديدة إذا لم يتجاوز ثمنها ثمانمئة دولار . »

ورفع بصره ، للمرة الأولى ، إلى عينيها . لقد كان عسيراً عليه أن يصدق ، بسبب من مظهرها ، انها تملك بنساً واحداً . وسألها :

— « من أين أتيتِ بذلك المال ؟ »

— « الربّ يغدق عليّ نِعمه . إنه لا ينسى أحداً من أولاده . »

— « إنه لم يرسل إليّ شيئاً في يوم من الأيام ، ولقد سلختُ في هذا المكان ثلاثين عاماً . ينبغي ان تكون لكِ واسطة ، كما يقولون . »

وضحك البائع مما قاله ، وأنعم النظر كرة أخرى إلى منخري بيسّي .

— « ذلك لأنكَ لا تثق بالربّ ثقة كافية . »

— « إنكِ لا تملكين حقاً هذا المقدار من المال ، أليس كذلك ؟ »

وأخرجت بيسّي دفتر الشيكات من جيب ثوبها ، وأرته إياه . وفيما كان يلقي نظرةً على اسم المصرف والمبلغ المسجل لحسابها على الارومة تقدمت بيسي نحو الباب وأشارت إلى ديود أن يدخل .

وسألها الرجل :

— « من هذا ؟ أهو ولدكِ ؟ »

— « هذا ديود ليستر . إن كلّ الناس قد سمعت بآل ليستر المقيمين عند طريق التبغ . ولسوف نتزوج ، أنا وديود، اليوم. وحالما نحصل على السيارة الجديدة سوف نقصد إلى دار القضاء ونستصدر إجازة الزواج . »

وألقى البائع دفتر الشيكات في يدها ، وركض إلى باب المكتب . وقال :

— « تعالَ إلى هنا ، يا هاري ! عجّل ! إن عندي منظراً يستحق أن تراه . »

وخرج من المكتب رجلٌ أكبر من زميله سناً ، ومضى إلى حيث كانت بيسي والبائع واقفين .

وقال وهو ينقّل طرفه من أحدهما إلى الآخر :

— « ما القصة ؟ »

— « هذه المرأة سوف تتزوج هذا الصبيّ ، يا هاري . ما رأيك في ذلك ؟ هل رأيت شيئاً مثل هذا من قبل ؟ »

والتفت الرجل الأكبر سناً إلى ديود وسأله ما عمره .

وكان ديود على وشك ان يقول له إن عمره ستة عشر عاماً عندما دفعته بيسي خلفها .

— « ليس هذا من شأنك . أنا أريد أن أشتري سيارة جديدة . ذلك هو الشيء الذي جئت من أجله . لقد مشيت خمسة أميال ، هذا الصباح ، لكي أصل إلى هنا . »

وحين أتمت كلامها ، كان الرجلان يتهامسان . لقد نظر الاكبر سناً إلى وجهها ، وحين رأى الثقبين المدورين الكبيرين في أنفها تقدّم إلى أمام وحاولَ أن ينعم النظر من خلال منخريها . وغطت بيسي أنفها بيدها .

وقال الرجل :

— « يا الـهي ! »

فقال البائع :

— « إنه مشهد عجيب ، أليس كذلك ؟ »

وسأله هاري :

— « هل عندها شيء من المال ؟ لا تضع الوقت معها إذا كانت لا تملك المبلغ الكافي . إن ثمة كثيراً من أمثالها يأتون إلى هنا ، من الريف ، ثم لا يشترون شيئاً . »

— « عندها دفتر شيكات على « بنك فارمرز » في أوغوستا ، ولقد قالت إن رصيدها يبلغ ثمانمئة دولار . إن الارومة تُظهر ذلك أيضاً . »

فقال هاري :

— « من الافضل أن تتلفن ، قبل كل شيء ، لكي تتأكد من ذلك . جائز ان تكون صادقة ، وجائز ان تكون كاذبة . إن بعض أهل الريف يقومون ببعض الحيل أحيانـاً . ومـن يدري ، لعلها وجدت دفتر الشيكات في مكان ما ، وملأته هي بنفسها . »

ومضيا إلى المكتب ، وهما يتحدثان عن أنف بيسي ، وأغلقا الباب . حتى إذا اتصل البائع بالمصرف رجعا من جديد إلى حيث كانت بيسي وديود ينتظران .

وسألها البائع :

— « كم تريدين أن تدفعي من أجل الحصول على سيارة ؟ »

فأجابته بيسي :

— « ثمانمئة دولار . »



ووكز هاري البائع بمرفقه ، وقال وهو مستند إلى حائل احدى السيارات المكشوفة ذات الخمسة مقاعد :

— « دونكِ هذه . فهي صغيرة وجميلة . في استطاعتكِ ان تأخذيها الآن ، إذا شئتِ . ولن تكوني في حاجة إلى ان تنتظري الاوراق . فسوف آتيكِ بها في خلال الاسبوع القادم . في استطاعتكِ ان تسوقي سيارة جديدة في أيّ مكان من الولاية ، طوال سبعة أيام ، ريثما تصل الأوراق الرسمية من آتلانتا . »

وتغامز الرجلان . كانا يلجآن إلى تلك الكذبة الخاصة بقوانين التسجيل كلما رغبا في اجراء صفقة عاجلة .

ومضى ديود إلى السيارة وقرع زمورها عدة مرات . وأعجبه صوت الزمور ، فنظر إلى بيسي وابتسم .

— « هل أعجبك ، يا ديود ؟ »

فقال وهو يُعمل الزمور كرةً أخرى :

— « ليس له علة . »

وقالت بيسي مشيرة إلى السيارة :

— « إذن ، سوف نأخذ هذه . »

فقال الرجل الآخر وهو ينتزع دفتر الشيكات من يد بيسّي من غير أن يترك لها الوقت الكافي لتقدمه هي بنفسها اليه :

— « دعيني أرى دفتر شيكاتك . »

ثم انه قطع إحدى أوراقه ، وملأها على عجل بقيمة ثمانمئة دولار .

وبينا كان يُعدّ الشيك لكي توقعه بيسي قبل ان تغير رأيها أو تغادر المرأب كان البائع يحاول ، من جديد ، ان ينظر عبر أنفها . إنه لم يرَ شيئاً مثله قط ، في حياته كلها .

وقيل لها :

— « وقّعي هنا . »

فقالت :

— « أنا مضطرة إلى ان أكتفي برسم اشارة الصليب . » *

— « ما اسمك ؟ »

— « الاخت بيسي رايس . »

فقال الرجل :

— « لا شك انكِ مبشرة ، أليس كذلك ؟ »

— « أنا أبشر وأصلي . أقوم بالعملين معاً . »

ومسّت طرف القلم ، بينا رُسم الصليب بعد اسمها الذي يمهر الشيك .

وقيل لها :

— « أصبحت السيارة ملككِ ، الآن . هل يعتزم هذا الصبي ان يقودها لكِ إلى المنزل ؟ »

فقالت بيسي :

— « إنتظر قليلاً . لقد نسيت ان أصلي . فلنركع جميعاً على الارض ولنقم بصلاة صغيرة قبل ان نُتم الصفقة . »

فقال أحد الرجلين :

— « لقد قضي الأمر الآن . »

فأصرّت بيسي :

— « لا ، إنها لم تتمّ . ولن تتمّ إلا بعد ان يباركها الله . »

وضحك الرجلان لأصرارها ، ولكن بيسي كانت قد ركعت على الارض ، وكان ديود في سبيله إلى ان يركع إلى جانب

* يعني انها أمية لا تحسن القراءة والكتابة .

السيارة . ووقف الرجلان خلفها لكي لا يتعين عليهما ان يركعا على الارض .

— « يا الـهي ، نحن الآثمين المساكين نركع هنا في هـذا المرأب ملتمسين ان تبارك شراءنا هذه السيارة الجديدة ، وتقرّ ما نفعله ، أنا وديود . هذه السيارة الجديدة اشتريتها لي ولديود لكي نطوّف بها في البلاد ، ونقوم بالعمل الذي تريد انت ان يُعمل من أجلك في هذه الديار الآثمة . اللهم احفظنـا مـن الاصطدامات لكي لا نصاب بأذى . أنت لا تريد لنا ان نُقتل في اللحظة التي ننطلق فيها للتبشير بأنجيلك ، أليس كذلك ؟ وهذان الرجلان اللذان باعانا السيارة الجديدة محتاجان إلى بركتك أيضاً لكي يكون في ميسورهما ان يبيعا عدداً آخر من السيارات للصالح العام . إنهما خاطئان مثلنا جميعـاً ولكني أعلم انهما لا يقترفان الخطيئة بأرادتهما . وينبغي ان تبارك عملهما وتريهما كيف يبيعان النـاس سيارات جديـدة للصالح العام ، كما تفعل أنت تماماً لو كنت تبيع السيارات بنفسك ، ههنا في فولر . هذا كل ما هنالك . نجّنا من الشيطان ، واحفظ لنا مـكاناً في السماء . آمين ! »

وكان ديود أسبق إلى النهوض . لقد وثب ونفخ الزمور ست نفخات أو سبع نفخاتٍ طويلة . وتقدّم الرجلان فوقفا أمـام بيسي ، وهما يمسحان العرق عن وجهيهما ، ويضحكان لمشهد ديود وبيسي . لقد نظرا إلى أنفها مرةً أخرى ، فاضطرت إلى أن تحجبه بيدها .

وامتطى ديود وبيسي متن السيارة ، وجلسا . ونقر ديود الزمور ، كرةً أخرى ، نقراتٍ متعددة .

وقال البائع :

— « إنتظر دقيقة . ينبغي ان نكرّها أولاً إلى الخارج ونملأ خزانها بالبنزين . انك لا تستطيع ان تسوقها على هذه الحال . »

وترجلت بيسي ، ولكن ديود رفض أن يترك المقود والزمور. لقد أقام في مكانه ، وقاد السيارة عبرَ الباب ، فيما كان الرجلان يدفعانها إلى الخارج .

حتى إذا مليء الخزان بالبنزين ، أدار ديود المحرك ، واستعدّ للانطلاق . وامتطت بيسي متن السيارة ، من جديد ، وجلست وسط المقعد الخلفي .

وسأل البائع بيسي :

— « إلى أين ستذهبان الآن ؟ لعقد القران ؟ »

فقالت :

— « نحن ذاهبان إلى دار القضاء لكي نستصدر إجازة من السلطة وبعد ذلك سنتزوج . »

وتهامس الرجلان :

— « هل رأيت في حياتك مثل هذا الأنف ، يا هاري ؟ »

— « مطلقاً ، أنا لم أشهد مثله وأنا صاحٍ . »

— « أنظر إلى فتحتيه الكبيرتين المدورتين اللتين تخترقان وجهها . إني لاتساءل ما الذي تصنعه لكي تحول بين المطر وبين الدخول اليهما ؟ »

— « لعنني الله اذا كنتُ أعرف . لعلها تسدهما بفلّينتين تمنعان الماء من التسرب اليهما . ولا ريب في ان عليها أن تعمل شيئاً مثل هذا حين يكون المطر غزيراً . »

وانحنت بيسي إلى أمام ، ونخست ديود بأصبعها ، قائلة :

– « انطلق ، يا ديود ! ليس ثمة سبب لبقائنا هنا بعد الآن . »

واعملَ ديود ناقل السرعة ، وفتح البنزين . وإذْ لم يكن متعوداً قيادة السيارات الجديدة ، فلم يُحسن تقدير الكمية الضرورية من البنزين ، فانطلقت السيارة في سرعة كادت ترتفع بها عن الارض . ولولا ان ابتعد الرجلان ابتعاداً خاطفاً من طريقها إذن لأصابهما حائلها بأذى كبير .

ودلت بيسي صاحبها على الطريق المؤدية إلى دار القضاء . حتى إذا انتهيا اليه ترجّل ديود من السيارة ، في تبرّم ، وتبع بيسي إلى داخل البناء . كاد ديود يودّ لو يبقى في السيارة ، ويُطلق الزمور ، ولكن بيسي قالت إن عليه ان يمضي معها لكي تحصل على الاجازة .

وكان مكتب الموظف قائماً في الدور الاول ، عند أقصى الردهة ، ففتحا الباب ودخلا . وكانت على الباب لوحة من الورق المقوّى ذكرت بيسي انها رأتها يوم أقبلت إلى ذلك المكان مع زوجها الأول .

وقالت :

– « أريد إجازة تمكنني من ان أتزوج ديود . »

فنظر الموظف اليها وبسط على الطاولة صحيفة من الورق . وقدّم اليها ريشة وأفهمها كيف تملأ الفراغ بالاجوبة المطلوبة .

– « يجب أن تكتب ذلك لي . أنا لا أستطيع ان اخط الكلمات على الورق . »

فسألها :

– « ألا تعرفين الكتابة ؟ ألا تستطيعين أن تكتبي اسمك ؟ »

فقالت :

— « أنا لم أتعلم ذلك في يوم من الأيام . »

وكان على وشك ان يقول شيئاً ، عندما رفع بصره ورأى إلى أنفها وحملق كالمشدوه ، وقال :

— « لا بأس ، سوف أكتب ذلك لكِ . ولكن ليس من وظيفتي ان أقوم عنكِ بهذه المهمة . ينبغي ان تفعلي ذلك بنفسكِ . أنا لا أتناول راتبي لقاء كتابة أسماء الناس بالنيابة عنهم . »

فقالت :

— « سوف أحفظ لك جميلك إذا خدمتني هذه الخدمة . »

— « ما اسمك ؟ »

— « الأخت بيسي رايس . »

— « أنتِ أرملة المبشر رايس ، أليس كذلك ؟ »

— « كان زوجي السابق . »

— « ومن ستتزوجين ، أيتها الاخت رايس ؟ »

— « هذا الواقف ، هناك ، عند الباب . »

— « ومن ذاك ؟ »

— « ديود . اسمه ديود ليستر . »

— « أنتِ لن تتزوجيه ، في ما أظن ؟ »

— « لقد جئت إلى هنا لكي أحصل على الاجازة التي تمكنني من ذلك . أنا وديود سوف نصبح زوجين . »

— « من ؟ ذلك الغلام ؟ أهذا هو الذي سيتزوجك ؟ »

— « لقد قال ديود إنه ... »

— « هذا الغلام لم يبلغ بعد سنّ الزواج ، أيتها الاخت رايس . »

— « هو في السادسة عشرة . »

— « لا أستطيع أن أعطيكِ إجازة . ينبغي أن تنتظري فترة ، ثم تعودي في العام القادم ، على وجه التقريب . »

فخرّت بيسي راكعةً على الارض وقالت :

— « يا إلـهي . هذا الرجل يقول انه لن يعطيني إجازة للزواج من ديود . يا إلـهي ، ينبغي أن تحمله على ذلك . لقد قلت لي ، الليلة البارحة ، أن أتزوج ديود وأجعل منه مبشراً ، وإن عليك ان تساعدني على تحقيق ما طلبت . لقد أثار الزواج أعصابي . وإذا لم تجبر السلطة على منحي الاجازة فلست أدري أيّ خطيئة سوف .... »

فصاح الموظف :

— « إنتظري دقيقة ! أوقفي هذه الصلاة ! أنا أفضل ان أعطيكِ الاجازة على أن أستمع إلى هذا كله . لعلنا ان نجد حلاً للمشكلة . »

ونهضت بيسي مبتسمة ، وقالت :

— « كنت واثقة من ان الله سوف يسرع إلى نجدتي . »

— « هل حصل ذلك الغلام على موافقة أبويه ؟ إنه لا يستطيع أن يتزوج ما لم يحصل على موافقة كلّ من أبويه ، وفقاً للقانون الخاص بمن كانوا في مثل سنه . وعلى أية حال ، فمن أجل ماذا يريد أن يتزوجكِ ؟ إنه أصغر من أن يتزوج امرأة عجوزاً مثلكِ . تعال إلى هنا ، يا بنيّ ... »

فقالت بيسي :

— « لا تحاول أن تحمله على تغيير رأيه . إذا فعلت ذلك فعندئذ أعاود الصلاة . إن الله لن يسمح لك بأن تقف حجر عثرة في

طريق زواجنا . »

— « ماذا تقصد من مجيئك إلى هنا للزواج من هذه المرأة العجوز ، يا بنيّ ؟ يجب أن تنتظر حتى تكبر وعندئذ تتزوج من احدى الفتيات . »

فقال ديود :

— « لست أدري . إن بيسي هي التي أخذتني معها . »

فقال الموظف :

— « حسناً . أنا لا أستطيع أن أعطيك إجازة زواج . لأن زواج الغلام الذي لم يبلغ الثامنة عشرة ، من غير موافقة أبويه ، عملٌ يحرّمه القانون . وليس في استطاعة هذه الصلوات كلها أن تغيّر القانون ؛ إنه مدوّن في الكتب ، ولا سبيل إلى محوه . »

فعاودت بيسي صلاتها :

— « يا إلهي ، أنت لن تدع هذا الرجل يعرقل زواجنا ، أليس كذلك ؟ أنت تدري مقدار حاجتي إلى الزواج من ديود ، واعتمادي عليه . يجب أن لا تدع شيئاً يعرقل ... »

فقال الموظف :

— « إنتظري دقيقة . لا تستأنفي الصلاة من جديد . من هم أهل هذا الغلام ؟ »

فقالت بيسي :

— « أبوه وأمه لا اعتراض عندهما . إنهما سعيدان بهذا الزواج . لقد تحدثت اليهما معاً في ساعة مبكرة من هذا الصباح في طريقي إلى فولر . »

— « ما اسم أبيه ؟ »

— « جيتر ليستر اسم أبيه . ولست أظن انك سوف تعرف أمه إذا قلت لك اسمها . إنها تدعى إيدا . »

— « طبعاً ، أنا أعرف جيتر ليستر ، ولست أظن أنه يبالي كثيراً . وكذلك امرأته أيضاً . لقد كان عليّ أن أعطي لوف بنسي إجازة للزواج من احدى الفتيات الصغيرات لأن جيتر قال إنه راغب في ذلك . ولم تكن سنّها تزيد على الثانية عشرة آنذاك ، وكان من العار أن تُزوّج في مثل تلك السنّ . ولكن هذا يتفق مع نصوص القانون ، وكان عليّ أن أقوم به . كانت فتاة صغيرة مليحة الوجه . ولست أذكر اني رأيت في حياتي كلها فتاة لها مثل شعرها الاشقر الجميل ، وعينيها الزرقاوين . لقد كانت عيناها مثل عيني ابي الحنّ * ، تماماً . واقسم ، إنها كانت فتاة رائعة الجمال . »

فقالت بيسي :

— « ديود أكبر سناً من ذلك . إنه في السادسة عشرة . »

— « كم عمركِ ، أيتها الاخت رايس ؟ أنتِ لم تخبريني ما عمركِ ؟ »

فقالت :

— « ليس من واجبي ان أقول لك ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ »

— « هذا هو القانون . أنا لا أستطيع ان أمنحكِ الاجازة إذا لم تقولي لي ما عمركِ . »

— « حسناً ، لقد كنت في الثامنة والثلاثين ، منذ مدة غير بعيدة جداً . »

* ابو الحناء او ابو الحن طائر صغير احمر الصدر . (المعرب)

— « ما عمركِ الآن ؟ »
— « تسعة وثلاثون ، ولكني أبدو أصغر من ذلك . »
فسألها الموظف :
— « ومن سيعيلكما معاً ؟ إن هذا الغلام لا يزال عاجزاً عن أن يكسب اجراً مثل أجور الرجال : »
— « وهل ينص القانون على هذا السؤال أيضاً ؟ »
— « حسناً ، لا . إن القانون لا يحتم هذا السؤال ، ولكني أحببت ان أعرف ذلك رغبةً في الاطلاع الشخصي ليس غير . »
— « الرب يغدق علينا من فضله . إنه لا ينسى أولاده لحظةً واحدة . »
فقال الموظف :
— « ولكنه لا يبدي كثيراً من الاهتمام بي وبأهلي . ولقد كنت عضواً مناصراً في الكنيسة المعمدانية منذ ان بلغت العشرين ، أيضاً . إنه لا يعمل شيئاً كثيراً من أجلي . »
فقالت بيسي :
— « ذلك لأنك لا تدين بالمعتقد الصحيح . المعمدانيون آثمون مثل سائر الناس ، ولكن ديني يسدّ جميع حاجاتي . »
— « وما اسم هذا الدين ؟ »
— « ليس له اسم نظاميّ . أنا أكتفي بتسميته « مقدّس » في معظم الاحيان . وأنا العضو الوحيد فيه ، الآن ، ولكن ديود سوف يكون عضواً ، هو الآخر ، عندما نتزوج . إنه سوف يصبح مبشراً ، أيضاً . »
فقال الموظف وهو يكتب على صحيفة الورق :
— « ينبغي أن تعطيني دولارين لقاء الاجازة . هل عندك

دولاران ؟ »

— « أجل إنهما معي هنا . وعلى كل حال ، فلست أفهم لماذا يتعين على الناس أن يدفعوا رسماً على الزواج ؟ إنه شيء من صنع الله ! »

— « هناك شيء آخر أحب أن أسألكِ عنه . القانون لا ينصّ على هذا السؤال ، وبعض الموظفين لا يوجّهونه على الاطلاق . ولكني بوصفي معمدانياً صالحاً أحس دائماً بأن من واجبي أن أسأله . »

— « وما ذلك السؤال ؟ »

— « هل يشكو أحد منكما مرضاً من الامراض ؟ »

— « لست أعرف اني مصابة بمرض ما . وأنت يا ديود ، هل تشكو شيئاً ؟ »

— « ماذا ؟ »

فقال الموظف ، كرةً ثانية ، وهو يلفظ الكلمة في أناة :

— « مرض . مثل البلاغرا ، أو جدريّ الماء ، أو أي شيء من هذا القبيل . هل تشكو علةً ما ، يا بنيّ ؟ »

فقال ديود :

— « لست أعرف اني أشكو من علة ما . وعلى كل حال ، فأنا لا أفهم عن أي شيء تتكلم . »

فسأل الموظف بيسي :

— « أواثقة أنتِ من انكِ سليمةٌ تماماً ؟ ألم يُعْدِكِ زوجك بأيّ مرض من الامراض ؟ بأيّ داء مات ؟ »

— « أغلب الظن انه مات بالشيخوخة . كان على وشك ان يبلغ الخمسين عندما تزوج . »

— « هل يشكو أحدٌ منكما مرضاً تناسلياً ؟ »

فسألته بيسي :

— « ماذا تقول ؟ »

فأجابها الموظف :

— « أنتِ تعلمين جيداً ... الامراض التناسلية . لعلكِ تطلقين عليها اسم الاضطرابات الجنسية . »

— « لقد كنت آخذ عدداً كبيراً من زجاجات الـ « تانلاك » ولكني انقطعت عن ذلك في الفترة الاخيرة لأني لم أجد المال الذي يمكنني من شرائها . »

— « لا ، لست أعني هذا . إن ما أتكلم عنه ينشأ من مضاجعة النساء للرجال في بعض الأحيان . »

— « كان جسم زوجي السابق مليئاً بالحشرات الصغيرة أحياناً وكان عليّ ان أغسله وان أغتسل أنا نفسي بالكيروسين لكي نتخلص منها . »

— « لا ، أنا لا أقصد الحشرات . إن كثيراً من الناس تسرح الحشرات في أجسادهم . إنه شيء آخر — ولكني اظنّ انكِ غير مصابة به ما دمتِ لم تفهمي عن أي شيء أتكلم . »

فقالت بيسي :

— « وماذا تريد أن تعرف أيضاً ؟ »

— « هذا كل ما هنالك ، في ما أحسب . والآن ، أعطيني الدولارين . »

وناولته بيسي ورقتي الدولار المتسختين الباليتين اللتين كانت تقبض عليهما بيدها . وكانت تحمل في جيب فستانها عدة دولارات أخرى كانت ملفوفةً في منديل ، وقد رُبطت

بعض أطرافها ببعضها الآخر . كان ذلك كل ما قد بقي معها من مال ، بعد أن دفعت الثمانمئة دولار ثمناً للسيارة الجديدة .

وقال الموظف :

— « حسناً ، أرجو أن يكون التوفيق حليفكما . فقد تتفاهمان ، وقد لا تتفاهمان . »

وسألته بيسي :

— « هل أنت متزوج ؟ »

— « أنا متزوج منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر . لماذا ؟ »

فقالت :

— « حسناً ، يخيّل إليّ اذن أنك تعرف مقدار سعادتي أنا وديود بأن نتزوج . إن جميع المتزوجين من الناس يعرفون قيمة الزواج . »

— « إنه جميل جداً في أول الأمر ، ولكنه لا يستمرّ على هذه الحال فترةً طويلة . فبعد سنة تنقضي على الزواج ، أو سنتين ، يتوق الانسان إلى أن يتخلص من امرأته ويفكّر في زواج جديد ، ولكن ذلك شيء متعذر . فالقوانين تحول بين المرء وبين القيام بهذا العمل بعد المرة الأولى ، إلا إذا ماتت زوجتك أو فرّت ، وهما حالتان نادرتان إلى درجة تجعل الاستفادة منهما شبه معدومة . »

— « أنا وديود سوف نحيا معاً طول العمر ، أليس كذلك يا ديود ؟ »

وتبسّم ديود ، ولكنه لم ينبس بكلمة .

حتّى إذا تسلّمت بيسي الاجازة ، لم تدع للموظف فرصة تمكّنه من أن يقول شيئاً جديداً . لقد جذبت ديود إلى خارج

الغرفة ، فغادرا دار القضاء ، وركضا إلى السيارة الجديدة .

وامتطيا السيارة ليشخصا نحو البيت . وقرع ديود الزمور عدة مرات قبل أن يدير المحرك ، وقبل أن يُعمل ناقل السرعة . ثم انه استدار في الشارع وقادها من فولر في اتجاه طريق التبغ .

واعتدلت بيسي في جلستها على المقعد الخلفي ، ضاغطة بيديها الاثنتين على رخصة الزواج خشية أن تخطفها الريح وتذروها في الفضاء .

١١

وسمع آل ليستر ديود يقرع الزمور من أقصى طريق التبغ قبل أن تبدو السيارة الجديدة للعيان ، فهرعوا جميعاً إلى أبعد زاوية من زوايا الفِناء ، بل إلى غيضة الرتم ، لكي يروا إلى ديود وبيسي عائدين بسيارتهما . حتى الجدة العجوز غلب عليها الاهتياج فانتظرت خلف شجرة ازدرخت لكي تكون في عداد السابقين إلى رؤية السيارة الجديدة .

وصاح جيتر :

— « ها هما ! انظرن اليهما قليلاً ! انها سيارة جديدة مئة بالمئة ، من غير شك — ألقين مجرد نظرة على الدهان الأسود اللماع ! ألقين مجرد نظرة عليهما وقد أقبلا من هناك ! »

كان ديود يسوق السيارة بسرعة عشرين ميلاً في الساعة ، تقريباً ، وكان منهمكاً في نقر الزمور إلى حد جعله ينسى التمهل عندما انعطف نحو الفِناء ، ووثبت السيارة عبر الفِناء ، قاذفة بيسي ، ثلاث مرات متعاقبة أو أربعاً ، إلى أعلى ، صادمة رأسها بغطاء السيارة ، محطمة جزءاً من النوابض (الراسورات)

الخلفية . وعندئذ خفّف ديود السرعة ، وكرّت السيارة عبر الفِناء ، لتقف إلى جانب المنزل .

وكان جيتّر أول من انتهى إلى السيارة الجديدة . لقد ركض خلفها فيما كان ديود يُعمل المكبح ، وتعلّق بالرفرف الخلفيّ لكي لا تفوته . ولم تتخلف إللي ماي وإيدا كثيراً عنه . وأقبلت الجدة العجوز بأسرع ما تستطيع .

وقال جيتّر :

— « أنا لم أرَ في أيامي كلها سيارة أجمل من هذه السيارة . ولا شك في انه يسعدني من جديد أن أشاهد مثل هذه العربة البديعة . ألا تظنين ، يا بيسي ، ان في استطاعتكِ أن تأخذيني بها في نزهة قصيرة ؟ أنا أحبّ ، طبعاً ، ان أركبَ فيها مسافة غير طويلة . »

وفتحت بيسي الباب ، وترجلت من السيارة . وكان أول ما عملته ان أمسكت بأدنى ثوبها ومسحت الغبار عن الحائل الأمامي .

وقالت :

— « يبدو لي ان في استطاعتنا ان نُركبك فيها في وقت من الاوقات . ولسوف يكون في امكانك ان تقوم بنزهة فيها عندما أرجع أنا وديود . »

— « إلى أين ستذهبين أنتِ وديود يا بيسي ؟ »

فأجابت في اعتزاز :

— « سوف نقوم بجولة في المنطقة مثل العرسان . فعندما يتزوج الناس يحبون دائماً أن يمتطوا السيارة ويطوفوا قليلاً في البلاد . »

وألقت إيدا وإللي ماي نظرة مشدوهة على السيارة ، وقد عقل الاعجاب لسانيهما . وما لبثت كل منهما أن جمعت أطراف فستانها وصقلت الأبواب والحائلين الأمامي والخلفيّ . حتى إذا انتهيا من ذلك توهجت السيارة الجديدة تحت أشعة الشمس المشرقة وكأنها المرآة .

ووثب ديود إلى الباب وأمر أمه وأخته بأن تبتعدا عن السيارة ، قائلاً :

— « أنتِ وإللي ماي سوف تخربانها . لا تضعا أيديكما عليها ، ولا تقفا قريباً جداً منها ! »

وسأل جيتر بيسي :

— « هل تزوجتِ أنتِ وديود في فولر ؟ »

فقالت :

— « لا ، ليس زواجاً كاملاً . لقد حصلت على إجازة من السلطة على كل حال . ولقد كلفتني هذه المسألة الصغيرة دولارين اثنين . »

— « ألن تستدعي مبشراً لاتمام ذلك الزواج ؟ »

— « لا ، طبعاً . ألست أنا مبشرة بالانجيل ؟ سوف أقوم بهذه المهمة بنفسي . لن أدع معمدانياً عنيداً يتدخل في شؤوننا الخاصة . »

فقال جيتر :

— « كنت واثقاً من انكِ ستفعلين ذلك على أحسن وجه . أنتِ لا شك مبشرة ممتازة ، أيتها الاخت بيسي . »

وتقدمت بيسي نحو السقيفة الامامية ، قاتلةً إجازة الزواج بيدها . وكان سائر القوم لا يزالون يتأملون السيارة الجديدة .

ووقفت إللي ماي وإيدا على مسافة امينة تجعل من المتعذر على ديود أن يطردهما بأحدى العصيّ . وكانت الجدة العجوز قد اختبأت خلف شجرة ازدرخت ، كرةً أخرى ، وقد روّعها المشهد .

ومشى ديود مشياً دائرياً لكي يكون في ميسوره أن يرى جوانب السيارة كلها . كان يريد أن يطمئن إلى ان أحداً لن يضع يده على السيارة ويشوّه لمعانها .

وجلس جيتر القرفصاء وراح يتأمل السيارة في إعجاب .

وكانت بيسّي قد ارتقت نصف درجات السلم ، وحاولت أن تلفت انتباه ديود . لقد سعتْ عدة مرات ، وحكّت الألواح الخشبية برجليها ، ونقرت السقيفة بمفاصل أصابعها . وسمعها جيتر ، فتلفّت نحوها ليرى ما الذي كانت تفعله .

ثم إنه قال واثباً على قدميه :

— « وحقّ الله وحقّ المسيح ! أليس هذا العمل أشبه بعمل المجانين ؟ »

وتلفّت سائر أفراد الاسرة ، ونظروا إلى بيسي . وقهقهت اللي ماي من وراء شجرة الازدرخت .

وقال جيتر :

— « إيدا ، الاخت بيسي تريد الدخول إلى المنزل . دُلّيها على الطريق . »

ومضت إيدا فدخلت المنزل ، وفتحت النوافذ . كان في ميسور المرء أن يسمعها وهي تسحب الكراسي حول الغرفة وتردّ السّرر إلى الزوايا .

وسأل جيتر الاخت بيسّي :

— « ألم تتوقفي أنتِ وديود في الغابة أثناء عودتكما من فولر ؟ »
فقالت :
— « كان يتعجّل العودة إلى هنا . لقد لمّحتُ له بشيء من ذلك ، ولكنه كان منهمكاً في نفخ الزمور فلم يسمع شيئاً من كلامي . »
فقال جيتر :
— « ديود ، ألا ترى مقدار رغبة الاخت بيسي في الدخول إلى المنزل ؟ إذهب اذن معها ، ولسوف أحرس السيارة بنفسي . »
وفيما كان ديود يُحرَّض على الذهاب إلى المنزل ، مضت بيسي متمهلة إلى الباب ، عبرَ السقيفة الأمامية ، وانتظرت لترى ما إذا كان ديود قد لحق بها .
ورفعت إللي ماي نفسَها على رؤوس أصابعها وحاولت أن تلقي نظرةً على حجرة النوم خلال النافذة المفتوحة . وكانت إيدا ما تزال تسوّي الغرفة وترتبها ، وتدفع بين الفينة والفينة احد الكراسي من مكان إلى مكان ، وتغيّر أوضاع السّرر .
وتساءلت إللي ماي :
— « ما الذي سوف يفعلانه هنا ؟ »
وتقدمت إيدا نحو النافذة ، وأطلت منها . لقد ردّت يدي إللي ماي عن إطار الشباك وأشارت اليها بضرورة الابتعاد ، قائلةً :
— الاخت بيسي وديود أصبحا زوجين . فليس عليكِ إلا أن تذهبي وتكفّي عن محاولة النظر إلى الداخل . إن هذه المسألة

ليست من شأنك . »

حتّى إذا غادرت إيدا النافذة ، تعلقت إللي ماي كرةً ثانية باطار الشبّاك وأخذت تسترق النظر إلى الداخل .

وكاد ديود قد بلغ الباب الامامي ، ولكنه تمهل هناك لكي يلقي نظرة أخرى على السيارة . وظل واقفاً هكذا حتّى خرجت إيدا وحملته على أن يدخل الغرفة التي سبقته بيسي اليها .

ولم يكن في الغرفة أثاث يُذكر . فعلاوة على السرر الثلاثة المزدوجة كانت في الزاوية منضدة عرجاء تُصطنع كطاولة ومغسلة في آن معاً . وفوقها كانت تتدلى على الجدار مرآة مصدوعة . وفي الجانب المقابل من الغرفة ، كان الموقد . وكانت تقف خلف الباب مكنسة من مكانس الرتم ، على حين كانت مكنسة أخرى بالية بلىً كاملاً تحت سرير إيدا . وكان في الغرفة أيضاً كرسيان مستقيما الظهر . واذْ لم يكن في البيت خزانة ما فقد كانت الثياب تُعلّق على الجدران بمسامير دُقت في الاعمدة .

ولم يكد ديود يبلغ الغرفة حتّى أغلقت بيسي الباب في عنف ودفعت الشاب إلى الداخل . ثم انها أخرجت إجازة الزواج من جيب فستانها ونشرتها أمامها .

— « أمسكْ أنت ، يا ديود ، بطرف هذه الورقة ، وأنا بطرفها الآخر . »

— « ماذا تريدين أن تفعلي ؟ »

فقالت :

— « نتزوج ، يا ديود . »

— « ألم نعمل ذلك في المحكمة ، هناك في فولر ؟ »

— « لم يكن ذلك كل شيء . أريد أن أفعل الباقي الآن . »
فسألها :
— « ومتى سنقوم بنزهة في السيارة ؟ »
— « في أقرب وقت . نريد أن نبقى هنا فترة قصيرة ، قبل كل شيء . وامامنا متسع من الوقت للتنزه في السيارة ، يا ديود . »
— « وهل ستتركينني أسوقها دائماً ؟ »
— « طبعاً . تستطيع أن تقودها دائماً . أنا لا أعرف كيف أسوقها ، على كل حال . »
— « أنتِ لن تتركي أحداً غيري يسوقها ، أليس كذلك ؟ »
فقالت :
— « أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يسوقها . ولكن ينبغي ان نعجل ونُنهي زواجنا . امسكْ بطرف الاجـازة بينا أقوم أنا بالصلاة . »
ووقف ديود إلى جانبها ، منتظراً أن تنجز صلاتها . وصلّت عدة دقائق صلاة صامتة فيما وقف هو تجاهها .
— « أنا أعلن اننا صرنا زوجاً وزوجة . ليكن ذلك . هذا كل ما هنالك ، يا الـهي . آمين ! »
وعقب الصلاةَ صمت طويل كانا خلاله يتبادلان النظرات .
وقال ديود :
— « متى سنقوم بنزهة في السيارة ؟ »
— لقد صرنا زوجين الآن ، يا ديود . لقد اتممنا الزواج. ألست سعيداً بذلك ؟ »
فقال ديود :

— « متى سنقود بنزهة في السيارة ؟ »

فقالت :

— « يجب ان أصلي الآن . إركعْ على الارض فيما أصلي أنا صلاة صغيرة . »

وركعا للصلاة . وخرّ ديود على يديه وقدميه ناظراً مباشرة في أنف بيسي وهي مغمضة العينين .

— « يا الـهي ، ها قد تزوجنا ، أنا وديود . صرنا امرأةً وزوجاً . إن ديود فتىً صغير طاهر ، لم يتعود أخلاق هـذه البلاد الآثمة ، وأنا مبشرة بالانجيل . ينبغي لك ان تجعل ديود مبشراً أيضاً ، وان تتركنا نستعمل سيارتنا الجديدة في الطواف بأنحاء البلاد لكي نصلي للخاطئين . يجب أن تجعل منه مبشراً ممتازاً لكي نحوّل جميع الذئاب إلى خراف . هذا كل ما هنالك، هذه المرة . نحن مستعجلان الآن . نجّنا من الشرير ، واحفظ لنا مكاناً في الجنة . آمين ! »

وسمع حفيف فستان عندما وثبت الاخت بيسي على قدميها وراحت تعدو مهتاجة حول الغرفة . ثم انها انكفأت وأمسكت بتلابيب ديود ، وأغرته بأن يطوّق خصرها بذراعيه .

وهناك ، في الفِناء ، كان جيتّر وإللي ماي واقفين على رؤوس أصابعهما ليريا من خـلال النافذة ما الذي يفعله ديود وبيسي . ولم تكن لنوافذ البيت ستائر ،وكانت المصاريع الخشبية العريضة قد أُشرعت لكي يتسرب النور إلى الغرفة .

ووقف ديود بضع دقائق يراقب بيسي وهي تحاول أن تجذبه إلى الجانب الآخر من الغرفة . وأخيراً قعدت على أحد السرر وحاولت ان تحمله على أن يجلس قربها .

وسألها :

– « أنتِ لن تنامي الآن ، أليس كذلك ؟ إن وقت الذهاب إلى الفراش لم يحن بعد . نحن ما زلنا في فترة الظهيرة . »

فقالت :

– « لحظة واحدة ليس غير . وبعدئذ نستطيع أن نخرج ونذهب في نزهة بالسيارة . »

وركض ديود إلى النافذة ليرى السيارة . كان منذ لحظة قد نسيها تماماً . حتى إذا بلغ النافذة رأى جيتر وإللي ماي متعلقين بأطراف أصابعهما ، باطار النافذة ، يحاولان ان يريا ما الذي يجري في الداخل .

وسأل أباه :

– « لماذا تفعل هذا ؟ ما الذي تريد أن تراه ؟ »

وأشاح جيتر بوجهه وانشأ يتأمل شجرات الرتم . وركضت إللي ماي إلى ما وراء المنزل ، ودخلت الرواق ، من خلال المطبخ على رؤوس أصابعها .

ومضت بيسي إلى النافذة ، وفتلت ديود حتى واجهها . ثم انها ردّته إلى وراء وأجلسته على السرير .

وفجأة ، ومن غير أن يعرف كيف حدث ذلك ، وجد ديود نفسه في السرير ، وعلى جسده غطاء . كانت بيسي قد طوّقته بذراعيها تطويقاً جعله عاجزاً عن أن يتحرك في ايما اتجاه .

وخارج البيت سمع سلّماً تئط على الجدار . كان جيتر قد وجد السلّم تحت العنبر ، فحملها إلى النافذة .

١٢

وحين رفع ديود بصره رأى الباب مفتوحاً ، ورأى إللي ماي وإيدا والجدة العجوز يحتشدن حوله . ولم يدر ما يصنعه ، ولكنه حاول أن يشير اليهن بالابتعاد عن الغرفة .

وما كان في ميسوره ان يرى جيتر ، لأن جيتر كان واقفاً خلفه ، مطلاً بنصف جسمه من النافذة ، وقد أسند قدميه إلى إحدى درجات السلم . ورأت بيسي جيتر ، ولكنها لم تكن قادرة على ان ترى سائر الجماعة .

وسمع ديود جدته تغمغم وتمضي لسبيلها . كان في وسعه ان يسمع إلى حركة قدميها المسحوبتين سحباً على أرض الرواق ذات الالواح الصنوبرية، وقد أحدث نعلاها المصنوعان من أحد اطواق الخيل ، فيما هي تتجه نحو المطبخ ، صوتاً مثيراً للاعصاب . ولم يلق ايما بال إلى الآخرين .

وبعد لحظة تنحنح جيتر ونادى بيسي ، فلم تجب بيسي بشيء . فأعاد النداء ، فاعتصمت بالصمت كذلك . كانت هي وديود راغبين في ان لا يزعجا على الاطلاق .

حتى إذا أصرت على عدم الاجابة هبط جيتر ، الغرفة ، من خلال النافذة ، وتقدّم نحو السرير . وهزّ ديود من قبة قميصه حتى استدار .

بيد ان جيتر ما كان يريد ان يقول شيئاً لديود . كانت بيسي هي التي يبتغي ان يوجّه اليها الخطاب :

— « لقد كنت أفكر في ذلك ، هذه اللحظة بالذات ، أيتها الاخت بيسّي . وكلما أدرتُ المسألة في عقلي ازددتُ يقيناً بأنكِ كنتِ على صواب في ما تحدثنا حوله أمس ، على السقيفة الامامية . »

فسألته :

— « ماذا تريد مني يا جيتر ؟ »

— « أريد أن أسألكِ عن ذلك الموضع من الكتاب المقدس حيث يقول إذا اغضبت عين الانسان الرب فيجب ان يقتلعها. »

فأجابته :

— « ذلك ما يقوله الكتاب المقدس . »

— « أعرف هذا . وهذا ما يزعج روحي غاية الازعاج في هذه اللحظة . »

فقالت :

— « ولكنك رجل تقي ، يا جيتر . وليس هناك ما ينبغي ان يقلق ضميرك الآن . لقد صليت لك من أجل كيس اللفت الذي انتزعته من لوف . ولقد نسيَ الرب كل ما يتصل بهذه المسألة الآن . إنه لن يعذبك مطلقاً بسبب ذلك . »

— « أنا لا أتحدث عن أقراص اللفت . ولكني أتحدث عن ضرورة قطع جزء من جسدي . لقد أدركت الآن ، جيداً ،

ان ما قلته حقّ . فينبغي ان أذهب وأقوم بذلك . »

واستدار ديود ، وحاول أن يدفع جيتّر إلى الارض . ولكن جيتّر تعلق بخشب السرير ، وأبى ان يتزحزح من مكانه .

وقالت بيسي :

— « ولماذا تريد أن تفعل ذلك ؟ »

— « لقد كنت أفكر كثيراً في ما سبق لكِ ان قلتِه حتّى أدركت الآن ان من الواجب عليّ ان أسارع فأقتطع جزءاً من جسدي لكي لا يتركني الرب فريسةً للأغراء ، بعد اليوم. لقد أغضبتُ الله ، وأنا أعلم ان من الواجب عليّ ان أقتطع جزءاً من جسدي لكي لا أعاود هذه الخطيئة كرةً أخرى . أليس هذا صحيحاً أيتها الاخت بيسي ؟ »

فقالت :

— « هذا صحيح . ذلك ما يقول الكتاب المقدس إن على الانسان ان يعمله حين يكون آثماً كبيراً . »

ونظر جيتّر إلى بيسي . وردّ اللحاف لكي يكون في ميسوره أن يراها على نحوٍ أوضح .

وبعد بضع دقائق من التفكير ، قال :

— « لعلي أستطيع أن اؤجل ذلك فترة من الزمان . فقد لا يكون الأمر على مثل هذه الخطورة التي توهمتها . إن هذا الفصل من السنة يلقي شعوراً عجيباً في نفس الانسان . فهو يقول أشياء كثيرة من غير تفكير . فلا يحين موعد حراثة الارض وإلقاء البذور فيها حتى يحسّ المرء وكأنّ ليس له سيطرة على لسانه ، ولا يريد أن تكون له سيطرة مثل هذه .

والشيء نفسه يصحّ في أعماله . فأنا احسّ هكذا في أواخر شباط وأوائل آذار من كل عام . ومهما يكن عند الرجل من أبناء فأنه يشعر دائماً بالحاجة إلى إنجاب أولاد آخرين . »

ورانَ الصمت على المنزل فترةً طويلة . ولم تُحدث إللي ماي وإيدا أيّ صوتٍ عند عتبة الباب . وجلس جيتّر على الفراش ، مستغرقاً في التفكير ، حتى دفعه ديود وأكرهه على الوقوف . ثم إن ديود نهض فوقف خلفه .

وحين أمسوا كلهم في فِناء الدار ، من جديد ، امتطى ديود متن السيارة وأنشأ يزمر . كانت النسوة منهمكات في مسح الغبار الذي استقر على غطاء المحرك وحائلي السيارة . بيد ان الجدة العجوز لم تقترب من السيارة . لقد اتخذت لها موقفاً وراء شجرَة من شجرات الازدرخت وراحت تراقب كل حركة من حركات الجماعة .

وجلس جيتّر القرفصاء إلى جانب المدخنة وفكّر في الذي قالته الاخت بيسي في المنزل . لقد غدا أكثر اقتناعاً من ذي قبل بأن الله يتوقّع منه ان يقوم بهذا الصنيع لكي لا تراوده، منذ اليوم ، أيما أفكار آثمة تتصل بالاخت بيسي .

ومع ذلك فقد عزم على ان لا يتعجل تنفيذ خطته ، قائلاً لنفسه إن أمامه متسعاً من الوقت يستطيع ان يتقدّم بعده إلى اقتطاع جزء من جسده ، شرط أن يقوم بذلك قبل أن يغضب الرب كرةً أخرى . ولسوف يكون لديه ، في الوقت نفسه ، مهلة جديدة يحاول خلالها ان يُقنع ذاته، إقناعاً أرسخ ، بضرورة القيام بهذا العمل .

كان لا يزال ثمة قليل من شحم الخنزير ، في المطبخ . وكانت إيدا قد أعدّت شيئاً من خبز الذرة . ولقد صُنع الخبز من الطحين ، والملح ، والماء ، وشيء من الدهن .

وجلسوا كلهم إلى المائدة القائمة في المطبخ ، وأكلوا شحم الخنزير وخبز الذرة في شهية تامة . كانت أول مرة أصابوا طعاماً منذ ان أشرقت شمس ذلك النهار ، ولعلها ان تكون هي المرة الاخيرة . وبعد ان أتوا على طبق اللحم فلم يغادروا فيه ذرةً من الدهن ، وبعد ان التهموا آخر قطعة من خبز الذرة ، انطلقوا إلى الفناء ، كرة ثانية ، لكي يمتعوا الطرف بمشهد السيارة الجديدة . وكانت الجدة قد خبأت قطعة من الخبز في جيب مئزرها ، فوضعتها تحت فراشها لكي يكون لديها في اليوم التالي شيء تأكله إذا ما عجز جيتّر عن شراء شيء إضافيّ من اللحم والطحين .

وكان جيتّر يرغب في ان يقوم بنزهة عاجلة في السيارة . فأخبر بيسّي برغبته تلك ، وبأنه مستعد أتمّ الاستعداد للذهاب .

بيد ان بيسي كانت قد رسمت خططاً مخالفة . لقد قالت انها تعتزم ان تقوم هي وديود ، وحدهما ، بنزهة صغيرة ذلك الاصيل لكي يستطيعا أن يتحدثا حديث زواجهما في حرية كاملة . ووعدت جيتّر بتحقيق رغبته تلك عندما يرجعان .

وامتطى ديود وبيسي السيارة . وتقدم ديود بها من فناء الدار إلى طريق التبغ ، في اتجاه طريق الولاية العريضة . وظنّ جيتّر انهما ذاهبان إلى أوغوستا ، ولكنهما تواريا عن الانظار قبل ان يوفق إلى سؤالهما عن ذلك .

والتفت جيتّر إلى إللي ماي وقال :

— « ديود هو أكثر الناس حظاً في العالم . أليس كذلك ؟ »
واندفعت إللي ماي نحو الطريق ، وسط سحابة من الغبار ، لكي تراهما ينطلقان . لقد سمعت جيتر يخاطبها ، ولكنها كانت قد استغرقت في النظر إلى السيارة الجديدة ، والاصاخة إلى ديود وهو يزمر ، فلم تسمع إلى ما كان جيتر يقوله .
وأردف جيتر :
— « صار عند ديود سيارة جديدة يركبها ، كما صارت له زوجة في الوقت نفسه . أقول لك ان قليلاً من الناس يستطيعون أن يحصلوا على ذلك كله في يوم واحد . إن السيارة الجديدة شيء نفيس يتمنى المرء أن يقتنيه . ولست أعرف أحداً غير ديود يملك مثل هذه السيارة الجديدة في المنطقة الممتدة من هنا إلى النهر . كما لا أعرف رجالاً كثيرين عندهم زوجة لا تزال مليحة الوجه في مثل هذه السن ، كالاخت بيسي ، أيضاً . إن بيسي امرأة جميلة جديرة بأن تكون زوجة لرجل — أيّ رجل — في جميع البلاد . ولكني أخشى ان تكون فوق ما يستحق ديود . إذ يبدو لي ان المرأة الشابة مثلها ، التي لا يزيد عمرها كثيراً على عمر فتاة صغيرة ، محتاجة إلى من يشبع رغباتها الكثيرة ، بطريقة من الطرق . واست أدري ما إذا كان ديود قادراً على ذلك أم لا ، ولكن بيسّي لن تلبث ان تكتشف ذلك . ولو كنت أنا محل دْبود ، لما كان هذا السؤال وارداً على الاطلاق . لو كنت أنا محله ، إذن لأسعدتُ الاخت بيسي ، قدرَ ما تشاء ، منذ اللحظة الأولى ، ولواظبت على ذلك حتى النهاية . »
وسمعت إللي ماي ، الآن ، ما كان جيتر يقوله ، فشاقها

ذلك ، وانتظرت حتى تسمع مزيداً من هذا الحديث .

— « وأنتِ أيضاً ، يا إللي ماي ، لقد آن لكِ ان تقعي على رجل يتزوجكِ . لقد تزوج أولادي الآخرون كلهم . وهكذا جاء دوركِ أنتِ . اجل لقد جاء دوركِ من زمن طويل ، قبل ان تتزوج بيرل ويتزوج ديود ، ولكني أعذركِ بسبب العاهة التي في وجهكِ . أنا أعرف أن زواجكِ أصعب من زواج أيّ فتاة أخرى ، ولكن كل انسان في هذه البلاد يجب أن يتزوج . يجب أن تذهبي وتبحثي عن رجل يتزوجكِ في الحال ، ولا تنتظري أكثر مما فعلت . لقد يفوتك القطار ، بعد قليل ، وهو شيء لا يرضيكِ . ولن يفيدكِ في شيء ان تضيعي وقتكِ مع لوف ، كما فعلتِ في المرة الاخيرة ، لأنكِ لن تستطيعي الاستيلاء عليه بهذه الطريقة . إنه رجل متزوج وان عليكِ أن تبحثي عن زوجكِ المقبل بين العزاب من الرجال . وهناك عدد كبير من الفتيان في منشرة الخشب بـ « بيغ كريك » . وفي استطاعتكِ ان تقصدي إلى هناك ، يوماً من الأيام ، وتحاولي أن تلفتي أنظارهم إليكِ . وليس ذلك صعباً . فالنساء يعرفن كيف يلفتن أنظار الرجال ، ولقد بلغتِ سناً تمكنكِ من معرفة ذلك كله . إن الفتيان العاملين في المنشرة ، هناك في « بيغ كريك » ، لا بدّ ان يعجبوا بكِ على الرغم من العاهة التي في وجهكِ . لأنه حين ينظر الانسان اليكِ ، من وراء ، لا يفكر في غير الزواج منكِ ، في تلك اللحظة بالذات . هذا ما سمعت لوف يقوله في يوم من الايام ، وهو لا شك يعرف جيداً ، لأنه صار رجلاً متزوجاً . كل ما عليكِ أن تفعليه هو ان لا تُظهري وجهكِ

كثيراً للناس ، وعندئذ لا يتردد الفتيان في الجري وراءكِ . »

وحين نظر جيتر إلى إللي ماي ، كرةً أخرى ، وجد انها كانت تسفح الدمع . كانت تلك أول مرة ، تقريباً ، شاهدها فيها وهي تبكي ، منذ أن كانت طفلة صغيرة . ولم يدرِ جيتر ما الذي ينبغي ان يفعله ، أو يقوله ، إذ لم يقدّر له من قبل ان يكفكف عبرات النساء . إن إيدا لم تبكِ في حياتها قط . بل انها لم تفعل ، في حياتها ، شيئاً قط .

وقبل ان يوفّق إلى سؤالها عن السبب الذي تبكي من أجله ، انطلقت نحو حقل القطن القديم . لقد ركضت في اتجاه الغابة القائمة وراء البيت ، واثبةً وسط شجرات الرتم مثل ارنب مذعور .

— « أنا لم أرَ شيئاً مثل هذا من قبل . اني لاعجب ما الذي قلته لها حتى تتصرّف مثل هذا التصرف ؟ »

١٣

ظل جيتر نصف ساعة جالساً القرفصاء ، قرب المدخنة ، بعد ذهاب إللي ماي وهي تبكي وتنتحب . لقد حدق إلى الآثار التي خلفتها السيارة الجديدة في الفناء ، وقد أذهله وضوح الانطباعات التي أحدثتها العجلات المطاطية في صفحة الرمل . كانت دواليب سيارته هو ، التي ما تزال واقفة في الفناء بين المنزل وعنبر الذرة ، مبرية بسبب من طول الاستعمال فهي لا تترك ، حين تجري على الرمل ، غير شريطين متوازيين من رملٍ ناعم . وكان يتساءل الآن كيف يحلّ مسألة الدواليب هذه. فلو انه وُفّق إلى ان ينفخها كلها دفعةً واحدة إذن لكان في ميسوره ان ينقل حملاً من الحطب إلى أوغوستا فيبيعه فيها . ولقد يستطيع ان يكسب نحواً من دولار كامل في هذه الصفقة .

وكانت المدينة تبعد خمسة عشر ميلاً عن منزله . فلو انه اشترى مقداراً من البنزين والزيت يكفيه للقيام بالرحلة ذهاباً واياباً إذن لما بقي له من الدولار شيء يذكر . جائز ان لا

يبقى منه غير خمسة وعشرين سنتاً يستطيع أن يشتري بها جرتين أو ثلاثاً من السعوط ، وكمية وافرة من طحين بزر القطن . ذلك بأنه يعجز عن أن يشتري ، بالخمسة والعشرين سنتاً كلها ، مقداراً من دقيق الذرة كافياً لأشباعهم . وكان قد تعوّد منذ عهد قريب ان يشتري دقيق بزر القطن ، لأن دقيق الذرة غالٍ جداً . على حين يستطيع ان يشتري ، بخمسة عشر سنتاً ، كمية من دقيق بزر القطن تكفي الاسرة اسبوعاً كاملاً .

ولكن جيتر ما كان واثقاً من ان هذه القيمة الزهيدة تستحق كلّ هذا العناء . فهو مضطر إلى أن ينفق نحواً من نصف نهار في شحن السيارة بالسنديان الأسود ، ونصف نهار آخر في الطريق إلى أوغوستا . حتى إذا وصل إلى هناك كان من الجائز أن لا يجد أحداً يشتري منه حمله ذاك .

وفي الوقت نفسه كان جيتر لا يزال معتزماً أن يزرع شيئاً من القطن ، تلك السنة . انه لم يتخلّ عن مشروعه ذاك بأية حال . وإن في ميسوره ان يزرع عشرة أكرات أو خمسة عشر أكراً إذا ما وُفّق إلى الحصول على بزر القطن وسماد الطير . وكان ثمة قرب فولر بغلٌ اعتقد جيتر أن في وسعه استعارته ، وكان لديه محراث قادر على النهوض بهذه المهمة . ولكن شراء بزر القطن وسماد الطير يحتاج إلى مالٍ أو إلى تاجر مستعدّ أن يبيع البضاعة لجيتر من غير ان يتقاضى ثمنها نقداً . ولقد كان التجار في فولر قد أعلنوا أنهم لن يبيعوه شيئاً بعد اليوم ، إلا نقداً ، وكان من العبث الذي لا طائل تحته ان يسعى إلى الحصول على قرض من احد المصارف في أوغوستا .

لقد حاول ذلك من قبل ، ثلاث مرات ، أو أربع مرات ، وفي كل مرة كان أصحاب المصرف يسألونه ، أول ما يسألونه ، عمّن سوف يوقّع على سنداته وما الضمانات التي سيقدمها . وههنا كانت المحاولة تقترن بالفشل دائماً . إن أحداً ما كان يرتضي ان يوقّع على سنداته ، ولم يكن عنده من ضمانة يقدّمها . وكان رجال المصرف قد أشاروا عليه بأن يلجأ إلى شركة من شركات التسليف .

وكان القائمون على شركات التسليف قوماً لم يعرف جيتر أشد منهم وطأة وأقسى . لقد حصل ذات يوم على قرض من احدى تلك الشركات قيمته مئتا دولار ، ولكنه أقسم ان لا يعود بعدها إلى تقييد نفسه بمثل تلك الاتفاقية . كان مندوبو الشركة يفدون عليه مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع . وكانوا يحاولون ان يعلّموه كيف يزرع القطن ، ويعيّنوا له مقدار السماد الذي ينبغي أن يستعمله لكلّ أكرٍ من الارض . ثم كانوا ينقلبون اليه ، عند مطلع كل شهر ، لكي يأخذوا منه فائدة القرض . وإذْ كان دائماً أعجز من أن يدفعها ، فقد كانوا يضيفون الفائدة إلى رأس المال ثم يبتزون منه فائدة على أساس المبلغ الجديد ، أيضاً .

حتى إذا كان الخريف ، وباع محصوله من القطن ، لم يكن قد بقي له غير سبعة دولارات . فقبل كل شيء ، كانت فائدة القرض تبلغ ثلاثة بالمئة في الشهر الواحد ، فما انقضت عشرة شهور حتى كان عليه ان يدفع فائدة قدرها ثلاثون بالمئة ، وان يدفع فوق ذلك ثلاثين بالمئة أخرى على الفائدة غير المدفوعة . ولكي تطمئن الشركة إلى سلامة القرض فرضت على جيتر أن

يدفع اليها خمسين دولاراً . ولم يكن في مستطاعه أن يفهم السبب الذي من أجله يتعيّن عليه دفع هذا المبلغ ، ولم تجشّم الشركة نفسها عناء شرح المسألة له . وحين تساءل أيّ شيء تمثّله هذه الخمسون دولاراً قيل له انها مجرد رسم يُقتضى لقاء عقد القرض . وحين صفي الحساب نهائياً تبيّن لجيتر انه دفع ما يزيد على ثلاثمئة دولار ولم يربح غير سبعة دولارات، وبدا له أن سبعة دولارات يجنيها من عمل سنة بكاملها في زراعة القطن لم تكن حصةً عادلة ، خاصة وأنه قام بالعمل كله بنفسه ، وقدّم الارض والبغل أيضاً . وكان لا يزال رازحاً ، حتى في ذلك الحين ، تحت وطأة الدين ، لأنه كان مضطراً إلى أن يدفع عشرة دولارات اجرة لصاحب البغل الذي استعمله في حراثة الارض . وبمعاونة إيدا ولوف ، اكتشف آخر الامر انه خسر ثلاثة دولارات ولكنه ظل يطالب بالثلاثة الدولارات الباقية وفاءً لدينه .

وأقسم جيتر انه لن يعامل منذ اليوم رجال اوغوستا الاغنياء مهما كلف الأمر . لقد طاردوه كل يوم تقريباً محاولين ان يعلّموه كيف يزرع القطن ، ثم جاءوا آخر الأمر فانتزعوا المحصول كله منه ، وتركوه مديناً بثلاثة دولارات لصاحب البغل . لقد نهض بعبء العمل كله ، وقدّم البغل والارض ، ومع ذلك فقد استولت شركة التسليف على عائدات القطن كله ، وجعلته يخسر ثلاثة دولارات . وقال لمن رآه بعد ذلك إن الله لا يقرّ من غير شك تلك الصفقات الخاسرة . وكذلك قال الشيء نفسه لممثلي مصرف التمويل :

— « أنتم يا جماعة الاغنياء ، في أوغوستا ، تمتصون دماء الفقراء حتى الموت . إنكم لا تشتغلون شيئاً ، ولكنكم تستولون على جميع الاموال التي نكسبها نحن المزارعين . لقد اشتغلت أنا نفسي طول السنة ، وحرثتّ ديود الارض ، واقتلعت إيدا وإللي ماي الاعشاب المؤذية من حول القطن ، وقامتا بجنيه في الخريف ، فما الذي حصلتُ عليه من ذلك كله ؟ لم أحصل على فلس واحد ، وفوق هـذا أصبحت مديناً بثلاثة دولارات . هذا ليس عدلاً ، أقول لكم . إن الرب ليس في جانبكم . إنه لن يحتمل مثل هذا الخداع أكثر مما فعل . وهو لا يحبكم ، أنتم الاغنياء ، بقدر ما تظنون . الرب الالـه لا يحب غـير الفقراء . »

واستمع جباة شركة التسليف لحديث جيتر ، حتى إذا انتهى ، سخروا منه ، وامتطوا سيارتهم الجديدة عائدين إلى أوغوستا .

ذلك كان أحد الأسباب التي جعلت جيتر غير واثق من ان في استطاعته أن يزرع شيئاً من القطن تلك السنة . ولكنه قال في نفسه : إذا استطعت أن أحصل على البزر والسماد ، مـن رجل في فولر ، من غير ان أدفع اليه الثمن نقداً ، فعندئذ لن أكون عرضة للابتزاز والسرقة . فقد كان الناس في فولـر مزارعين ، كما كان هو تماماً ، أو كما حاول أن يكون ، ولم يكن ليعتقد أنهم يخدعونه . ولكنه ما قصد إلى اولئك التجار مرة وحدثهم عن رغبته في زرع القطن إلا طردوه ، وأبوا ان يسمعوا لكلامه .

وكانوا يقولون :

— « لا فائدة من أن تقول شيئاً إضافياً ، يا جيتر . هناك مزارعون يأتون إلى فولر كل يوم ، من جميع أنحاء البلاد ، طالبين الشيء نفسه . إن عددهم يبلغ المئة . ولكنا لا نستطيع ان نساعدكم على الاطلاق . ففي العام الماضي أعطينا بعض المزارعين حاجتهم من بزر القطن وسماد الطير ولم نتقاضَ الثمن نقداً ، فلما جاء الخريف لم تُنبت الارض غير شيء قليل من القطن الرديء ما زادت قيمة الرطل منه على سبعة سنتات . وفي مثل هذه الحال لا يكون من المنطق ان تُحرث الأرض وتزرع . وليس في استطاعتنا ان نغامر أكثر مما فعلنا . إن علينا جميعاً ان ننتظر حتى يردّ الاغنياء تلك الاموال التي يحبسونها عنا . »

— « ولكنْ ، كرامةً لله ، إنني وأهلي نتضور من الجوع هناك في طريق التبغ . ليس عندنا ما نأكله ، وليس عندنا ما نبيعه لنشتري بثمنه الطحين واللحم . إنكم أيها التجار أغلقتم في وجوهنا باب الدّين منذ ان رحل الكابتن جون ، فما الذي نستطيع ان نعمله ؟ أنا لا أدري ما سيحدث لي ولأهلي إذا لم يكفّ الاغنياء عن استنزاف دمائنا . لقد استولوا على الاموال كلها ، وحبسوها في المصارف ، فهم لا يُخرجونها منها إلا إذا قطع الانسان ذراعيه وقدّمهما اليهم ضمانةً . »

وكانوا قد قالوا له :

— « أفضل ما تعمله يا جيتر هو أن ترحل أنت وأسرتك إلى أوغوستا ، أو عبر النهر في كارولينا الجنوبية إلى وادي هورسكريك ، حيث توجد مصانع القطن كلها ، وان تعمل في واحد من تلك المصانع . تلك هي الطريقة الوحيدة الباقية أمامك . وليس هناك

طريقة غيرها . »

وكان جيتر قد أجابهم بقوله :

— « لا ! وحقّ الرب وحق المسيح ، لا ! هذا شيء لن أعمله ! إن الرب خلق الارض ، ووضعني هنا لكي أزرع القطن فيها . لقد قمت بهذا العمل ، وقام به أبي من قبلي ، في السنوات الخمسين الأخيرة ، لأننا لم نُخلق إلا لهذا . إنّ مصانع القطن اللعينة جُعلت لتشتغل فيها النساء . وليست محلاً للرجال يضيعون فيه أوقاتهم في اللعب بالدواليب الصغيرة والخيوط. وأقسم انها لمهنة جهنمية ان يقضي الرجل نهاره في لفّ الخيوط على البكرات . لا ! لقد وُضعنا هنا على هذه الارض التي سينبت فيها القطن ، ومن واجبي أن أجعله ينبت . ولن أهدر وقتي في مصانع القطن حتى ولو أعطتني خمسة عشر دولاراً في الاسبوع . سوف أظلّ في أرضي حتى يأتي اليوم الذي أموت فيه . »

— « إفعل ما تريده ، يا جيتر ، ولكن من الافضل أن تفكر في الأمر من جديد وتذهب للعمل في مصانع القطن . ذلك ما فعله كل الناس تقريباً في المنطقة المحيطة بفولر . إن بعضهم في أوغوستا وبعضهم الآخر في وادي هورسكريك ، ولكنهم جميعاً يعملون في مصانع القطن على حدّ سواء . وفي استطاعتك ان تكسب أنت وزوجتك ، إذا عملتما في تلك المصانع ، عشرين أو خمسة وعشرين دولاراً في الاسبوع . إن البقاء هنا لا يعود عليكما بشيء . ولسوف تجدان نفسيكما مضطرين إلى الذهاب إلى ملجأ الفقراء ، في وقت قريب ، إذا بقيتما هنا وحاولتما زرع القطن . »

وكان جيتّر قد قال :

— « وعندئذ يكون الاغنياء هم الذين أجبرونا على الذهاب إلى هناك . إذا اضطررنا إلى أن نعيش في ملجأ الفقراء فسوف يكون ذلك لأن الاغنياء احتكروا جميع الاموال التي كان من الواجب ان توزّع علينا كلنا ، ولم يطلقوا سراحها ويعطوني شيئاً من بزر القطن وسماد الطير بالدّين . »

— « ليس عندك ذرة من العقل ، يا جيتّر . كان يجب ان تُدرك ، بعد هذه التجارب كلها ، انك لا تستطيع ان تزرع الارض . ينبغي ان تكون رجلاً غنياً لكي تستطيع ان تزرع الارض في هذه الايام . أما الفقير فليس له إلا أن يشتغل في المصانع . »

— « جائز ان لا يكون عندي كثير من العقل ، ولكني اعرف اني لم أُخلق للعمل في المصانع . لقد وُضعت ، منذ ولادتي ، على هذه الارض ، وأنا عازم على أن أبقى فيها حتى النهاية . »

— « ولكنْ ، حتى أولادك كانوا أعقل منك ، يا جيتّر . انهم لم يبقوا هنا فريسة للجوع . لقد ذهبوا للعمل في المصانع . خذ ليزي بيل ، مثلاً ... »

— « هذا صحيح ، ولكنّ ذلك لا يعني أنهم كانوا على صواب . إن ديود لم يذهب على الاطلاق . إنه لا يزال هنا . ولسوف يزرع الارض في يوم من الايام ، كما يتحتم علينا كلنا ان نعمل . »

— « ديود ليس عنده من الذكاء ما يحمله على الذهاب . ولو كان ذكياً مثل سائر أولادك لما بقي هنا ، ولأدرك مقدار

الحماقة التي تنطوي عليها محاولة القيام بعمل زراعي في مثل هذه الظروف . إن الاغنياء لن يفكوا عقال أموالهم ويدينّوها للفقراء. إنهم سوف يعضون عليها بالنواجذ لكي يديروا بهـا مصانع القطن . »

وتذكـّر جيتر كل ما قد قيل حول هذا الموضوع ، فيما كان جالساً القرفصاء قرب المدخنة ، مستنداً إلى آجرّها الدافيء ، تحت أشعة شمس شباط في أيامه الاخيرة . لقد سمع الناس في فولر يقولون أشياء من مثل هذه عشرات المرات ، فكانت محاولاته تنتهي دائماً بمغادرته مخازنهم مخيّب الآمال . إن أحداً منهم لم يفهم أيّ شعور يستحوذ عليه عندما يحين موسم حراثة الارض كلّ ربيع .

وعاوده هذا الشعور من جديد . وإنمـا أحسّ به هذه المرة أعمقَ ممـا أحسّ به في أيمـا وقت مضى ، لأنه كان من دأبه كلما أراد ان يزرع قطناً في السنوات الستّ أو السبع الماضيات ان يحول بين خيبة الأمل وبين سحق روحه بالتطلـع إلى سنة قادمة يستطيع فيها أن يزرع الارض كما يحبّ . ولكنه في هذا العام ، استشعر أنه إذا لم يوفق إلى الحصول على بزر القطن وسماد الطير فلن يكون قادراً على القيام بمحاولة جديدة أبداً . لقد أدركَ أنْ ليس في استطاعته أن ينتظر إلى ما لا نهاية من يُقرضه ما هو في حاجة اليه ثم لا يجد ذلك الشخص في سنة من السنوات ، لأنه كان يزداد ضعفاً عاماً بعد عام ، ولن يلبث ان يعجز عن السير بين يدي محراثه حتى ولو قُدّر له أن يفوز ببزر القطن وسماد الطير .

وبسبب من قنوطه هذا بدت رائحة الخشب والاعشـاب

المحروقة وبدا عبير الارض المحروثة من جديد ، وكانا يملآن الجو في تلك اللحظة ، أقوى منهما في أيّ وقت مضى ، وأشدّ حرّيفية . ففي كل مكان كان المزارعون يحرقون الغياض وحقول الرتم ويحرثون التربـة في مزارع القطن وفي الأراضي العذراء .

وفي الحق ان الحافز الذي كان يحدوه على حراثة الارض وزرعها قطناً ثم القعود في الظل طوال الاشهر الحارة مراقبـاً النبات وهو ينبجس وينمو – ان ذلك الحافز كان أقوى حتّى من آلام الجوع التي تعانيها معدته الفارغة . فقد كان في ميسوره ان يجلس في هدوء ويحتمل غصص الجوع ، ولكن العذاب المبرّح الذي ما كان ليعتقد ان في طاقته احتماله بضعة أيام أخرى هو ان يمتد به العمر إلى زمان يضطر فيه إلى ان يقعد ، شأنه الآن، ويحدّق كل يوم إلى الحقول غير المحروثة ، ثم لا يستطيع أن يفعل شيئاً .

١٤

ورجع ديود والأخت بيسي عند غروب الشمس . وكان ديود يقرع الزمور على مبعدة ميل تقريباً عندما سمعه جيتر أول مرة ، فانطلق هو وإيدا إلى الطريق لكي يريا اليهما عائدين إلى المنزل . وطرب جيتّر لصوت الزمور وأعجبته طريقة ديود في قرعه . كان يضغط على زرّ الزمور ثم يرفع إصبعه عنه مرةً كل بضع ثوان ، كما يفعل سائقو الشاحنات الذين يطلقون صفارات ماكيناتهم كلما غادروا مستودع الفحم .

وقال جيتّر :

— « هذا ديود يقرع الزمور . إنه يقرعه قرعاً جميلاً ، أليس كذلك ؟ لقد كان دائماً يحب أن يقرع الزمور بقدر ما يحب أن يسوق سيارة . وكثيراً ما كان يلعن ويشتم لأن زمور سيارتي ما كان يُطلع أقل صوت . لقد ارتخت أسلاكه ، ولم أجد أيّ فرصة تمكّنني من تسويتها وشدّها . »

ووقفت إيدا في الطريق تراقب السيارة الجديدة اللماعة في

طريقها إلى المنزل . لقد بدت ، كما قالت ، مثل مركبة كبيرة سوداء تفرّ من عاصفة هوجاء . وكان الغبار الثائر من خلفها أشبه شيء باقتراب العاصفة .

وقالت :

— « أليس هذا أجمل منظر يمكن أن يراه الانسان ؟ »

فقال :

— « إن دْيود هو الذي يسوقها ، وهو الذي ينقر الزمور أيضاً . انه يطلع صوتاً جميلاً ، أليس كذلك يا إيدا ؟ »

كان جيتر فخوراً بابنه .

وقالت إيدا :

— « ليت أولادي كلهم كانوا هنا لكي يروها . كانت ليزي بيل تحبّ النظر إلى السيارات ، والركوب فيها أيضاً ، أكثر من أي إنسان آخر رأيته في حياتي . ومن الجائز ان يكون عندها الآن ، هي أيضاً ، سيارة . آه ، ليتني أعرف ! »

وتقدّم ديود وبيسي بسيارتهما ، في أناة ، وانعطفا نحو الفناء . وركض جيتر وإيدا في محاذاة السيارة حتى وقفت قرب مدخنة المنزل . وشاهدت إللي ماي كل شيء من زاوية البيت .

وسأل جيتر الاخت بيسي وهي تفتح الباب وتترجل من السيارة :

— « ما المسافة التي قطعتماها في هذه الرحلة ؟ لقد غبتما فترة ما بعد الظهر بطولها . هل ذهبتما إلى أوغوستا ؟ »

وأمسكت بيسي بفضل ردائها وأنشأت تمسح الغبار عن

السيارة . وكانت إيدا وإللي ماي قد اندفعتا إلى العمل من جانب العربة الآخر . أما الجدة العجوز فوقفت على مبعدة ثلاثين قدماً خلف شجرة ازدرخت ، وراحت تختلس النظر من وراء الجذع إلى السيارة الجديدة . وظلّ ديود مكانه ، خلف المقود ، ينقر الزمور .

وقالت بيسّي :

— « لقد سرنا ، وسرنا ، حتّى وصلنا إلى ماك كوي . إننا لم نتوقف إلا بعد أن وصلنا إلى هناك . »

فسألها جيتر في انفعال :

— « تلك مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً ، أليس كذلك ؟ هل قطعتما كل هذه المسافة الطويلة ذهاباً وإياباً ؟ »

فقال ديود :

— « ذلك ما فعلناه بالضبط . أنا لم أبتعد عن المنزل هذه المسافة كلها في يوم من الايام . والمنطقة جميلة هناك ، أيضاً . »

وسأله جيتر :

— « لماذا لم تذهبا إلى أوغوستا ؟ لقد هبطتما نحو مفترق الطرق ، فقلت في نفسي انكما قاصدان إلى أوغوستا حتماً . »

فأجابه ديود :

— « نحن لم نسلك تلك الطريق . لقد سلكنا الطريق الاخرى — في اتجاه ماك كوي ، ثم انطلقنا حتّى ماك كوي ، أيضاً . »

ومضى جيتر إلى مقدمة السيارة ، وألقى نظرةً عليها . وترجّل ديود وكفّ عن قرع الزمور لحظةً قصيرة .

وقال جيتر :

ـ « يا الهي ، من الذي فعل هذا ؟ »

وأشار إلى المصباح وإلى الرفرف الامامي الايمن . وكفّ الجمع كلهم عن مسح الغبار وتحلّقوا حول جهاز التبريد . كان الرفرف قد التوى وتجعّد إلى حدّ بدا معه وكأن امرءاً حملَ مطرقة كبيرة وحاول أن يرى إلى أيّ مدى يستطيع أن يسحقه . وكان المصباح الامامي الايمن قد اقتُلع ، ولم يبق في مكانه غير قطعة من حديد ملتوٍ وجديلة صغيرة من أسلاك معزولة . وكان الرفرف قد غرز في غطاء المحرك .

وقال ديود :

ـ « لقد فعلتْ ذلك إحدى العربات . كنا راجعين من ماك كوي ، وكنتُ أتأمل في مصفاة كبيرة من مصافي زيت البطم عندما شعرت فجأة اننا اصطدمنا بمؤخرة عربة ذات حصانين . »

ونظرت بيسي إلى الرفرف المسحوق والمصباح المفقود ، ولكنها لم تقل شيئاً . وما كان في ميسورها ، هذه المرة ، ان تنحي باللائمة على الشيطان بسبب من انها كانت تمتطي هي نفسها متن السيارة عند وقوع الحادث ، ولكنْ بدا لها وكأنما كان على الرب الاله ان يُعنى بالسيارة عناية أكبر ، وخاصةً بعد أن ركعت وصلّتْ من أجل سلامة السيارة عندما اشترتها ذلك الصباح في فولر .

فتساءل جيتر :

ـ « ولكن هذا لا يؤثر في جريها على الاطلاق، أليس كذلك ؟ »

فقال ديود :

— « إنها تجري وكأنها لا تزال جديدة مئة بالمئة . ولم يُصب الزمور بأي أذىً على الاطلاق . إنه يزمر تزميراً جميلاً كما فعل هذا الصباح . »

وكان الرفرف قد حُطّم تحطيماً يستعصي على الاصلاح . لقد انقلب فوق غطاء المحرك ، ولولا الجوانب المثلّمة لظنّ المرء انه قد نزع . وفي الظاهر ، لم يُصب أي شيء آخر ، باستثناء المصباح الامامي ، بأذىً ما . فليس ثمة أيّ انبعاج في جسم العربة ، وبدت العجلات مستقيمة على محاورها . بيد ان النابض المكسور جعل جانب المؤخرة الأيسر يميل شيئاً قليلاً .

فقال جيتر :

— « إنها لا تؤثر فيها على الاطلاق . لا تفكري في ذلك ، أيتها الاخت بيسي . دعيها كما هي ، ولن تلاحظي أيّ فرق بين حالة السيارة الآن وحالتها ساعة اشتريتها جديدة . »

فقالت بيسي :

— « هذا صحيح . أنا لا أدعها تقلقني مطلقاً ، لأنها لم تكن غلطة ديود . كان ينظر إلى مصفاة زيت البطم الكبيرة القائمة على جانب الطريق ، وكذلك كنت أنا ، عندما اصطدمنا بالعربة ذات الحصانين . وكان المفروض في سائقها الزنجي أن يكون من حسن الفهم بحيث يفسح لنا الطريق حين سمعنا نقترب منه . »

فقال جيتر :

— « ألم تكن تزمر ، آنذاك ، يا ديود ؟ »

— « لا ، لم أكن أزمر ، لأني كنت أتأمل في تلك المصفاة الكبيرة . أنا لم أرَ مصفاة في مثل ذلك الكبر ، من قبل . كانت في حجم مصنع من مصانع الويسكي تقريباً ، ولكنها لم تكن لمّاعة كتلك المصانع . »

فقالت بيسي ، وقد عاودت مسح الغبار عن السيارة :

— « من العار أن تُسحق السيارة الجديدة في مثل هذه السرعة. كانت جديدة تماماً قبل الظهر ، وها نحن الآن ما نزال في فترة المساء الأولى . »

فقال ديود :

— « كانت غلطة ذلك الزنجي . لو لم يكن نائماً في العربة لما حصل هذا الحادث مطلقاً . ظلّ يغط في نومه حتّى أيقظته الصدمة وقذفت به في الخندق . »

فسأله جيتر :

— « إنه لم يصب بأذى كبير ، أليس كذلك ؟ »

فقال ديود :

— « لست أدري . فحين سقنا السيارة من جديد ، كان لا يزال ملقىً في الخندق . وانقلبت العربة عليه فسحقته . كانت عيناه مفتوحتين طوال الوقت ، ولكني لم أستطع ان أحمله على ان يقول كلمة واحدة . لقد بدا وكأنه قد مات . »

— « الزنوج لا يعدمون وسيلة يقتلون أنفسهم بها . ويبدو وكأن من المستحيل وضع حد لذلك . »

كانت الشمس قد غربت منذ نصف ساعة ، وكانت الرطوبة الباردة المألوفة في أيام الربيع الاولى تلفّ الارض لفاً .

وكانت الجدة العجوز قد آثرت أن تنقلب إلى المنزل وتضطجع في سريرها . وارتقت إيدا درجات الشرفة وهي تُمرّ يديها على صدرها التماساً للدفء . وكذلك دخلت بيسّي إلى المنزل أيضاً .

وظل ديود وجيتر واقفين حول السيارة حتى غدا الظلام دامساً إلى درجة جعلت من المتعذر عليهما رؤية السيارة . وعندئذ مضيا هما أيضاً إلى المنزل .

وما هي إلا فترة حتى أخذ وهج النار المضرمة في الاعشاب ينير السماء ، عند الأفق ، وملأت رائحة دخان الصنوبر هواء المساء الرطب . كانت النيران تشتعل في النواحي جميعاً ، وكان بعضها قد أُضرم منذ أسبوع أو يزيد ، على حين لم يُضرم بعضها الآخر إلا في أصيل ذلك اليوم نفسه .

ففي الربيع كان المزارعون يوقدون النار في أراضيهم كلها . لقد قالوا ان النار تأكل دودة القطن . بذلك كانوا يعللون احراقهم الغابات والحقول كلما سألهم امرؤ لماذا لا يقلعون عن إضرام النار في شجيرات الصنوبر والأدواح الصالحة لأن تُقطع وتُتخذ منها ألواح الخشب . أما السبب الحقيقي فهو ان الناس جميعاً تعوّدوا ان يحرقوا الغابات والحقول كلّ ربيع ، ولم يجدوا ايما داعٍ يحملهم على الاقلاع عن عادات ألفوها طوال العمر . لقد بدا ذلك لهم عملاً ضرورياً مثل نثر سماد الطير في حقول القطن رغبةً في اجتناء محصول وافر . ولو ان الشجرات الـتي أُحرقت نُشرت ألواحاً أو اتخِذت وقوداً ، بدلاً من ان تحوّل إلى رماد تذروه الرياح ، لكان عندهم شيء يبيعونه . ولم تكن النيران لتقتل ديدان القطن في أعداد

كبيرة ، ومن هنا كان من الضروري ان تُرشّ نباتات القطن بالسمّ ، في أشهر الصيف ، على أية حال . ولكن كلاًّ منهم تعوّد أن يضرم النار في الارض كلما أطلّ الربيع ، فهم يقيمون على ذلك ولو لمجرد ان آباءهم فعلوه من قبلهم . وكان جيتّر يحرق أرضه دائماً ، على الرغم من انه لم يكن ثمة سبب يدعوه إلى ذلك ، على الاطلاق . فهو لم يزرع القطن من سنوات عديدة . وهذا ما جعل الارض عارية من كل شيء ، ما خلا الرتم والسنديان الاسود . فالرتم كان ينمو كل عام من جديد ، ولم يكن في وسع أكثر النيران اتقاداً أن تسيء إلى تلك البلوطات الخشنة الدانية .

وفي داخل البيت اجتمعت النسوة في حجرة النوم ، وسط الظلام ، ورحن ينتظرن جيتّر وديود . وكانت الجدة العجوز قد آوت إلى فراشها ، وغطت جسدها باللحاف الممزق البالي . وكانت إللي ماي قد قصدت إلى غيضة الرتم ولمّا تعد . أما بيسي وإيدا فقعدت كل منهما في فراشها تنتظر .

وكانت السُرر الثلاثة تضمّ دائماً أفراد أسرة ليستّر كلهم ، حتى في تلك الفترات التي انتظم البيت خلالها ثمانية نفرٍ منهم أو تسعة نفر . وأحياناً كان بعضهم ينام في فُرشٍ تمدّ على الارض أيام الصيف ، أما في الشتاء فكان النوم في السرر أدعى إلى الدفء ، ومن هنا كان القوم كلهم يؤثرون ان يحشروا أنفسهم ويناموا فيها . والآن ، وقد غادر المنزل أبناء جيتّر جميعاً ، ما عدا ديود وإللي ماي ، فقد صارت السرر تتسع لكل فرد منهم . وكان لبيسي منزل خاص بها ، منزل ذو ثلاث غرف ، قائم على الكثيب الاخير ، قرب النهر .

ولكن السقف كان متهرئاً ، وكانت ألواحه الخشبية قد اقتلعتها الرياح ، فلا يكاد المطر يهطل حتى يُنقع كل ما في الغرف بماء السماء .

وفي بعض الاحيان ، حين كانت الريح تعصف فُجاءةً عند منتصف الليل ، كانت بيسي تستيقظ لتجد الفراش حافلاً بالماء ، ولتجد كل قطعة من ثيابها ندية مبلّلة . وقد انصبّ مقدار من الماء جديد من خلال السقف وكانت قد أخبرت إيدا انها لا تريد البقاء هناك بعد اليوم إلى أن يصبح في ميسورها اصلاح السقف . وكان البناء والارض المحيطة به ملكاً للكابتن جون هارمون . ولكنه كان قد أقلع عن المجيء إلى طريق التبغ وامتنع عن اجراء أيّ اصلاح في الابنية . لقد قال لجيتر وبيسّي ، ولكل من كان يعيش في ذلك المكان ، ان في استطاعتهم ان يمكثوا في تلك البيوت حتى تتداعى إلى السقوط ، وانه لن يتقاضى منهم على ذلك اجراً ما . ولقد فهموا الوضع جيداً . فما كان الكابتن يعتزم ان يجري أيّ اصلاح في السقوف والشرفات ، والاسس المتهرئة ، وكل ما يتصل بالابنية . وكان قد قال لهم انه إذا سقطت البيوت على رؤوسهم فسوف يكون ذلك من سوء حظهم ، أما إذا ظلت قائمة فعندئذ يستطيع جيتر وبيسّي وسائر الجماعة ان يبقوا فيها ما أحبوا البقاء .

وانقلب جيتر وديود إلى المنزل ، متعثّرين في الظلمة . كان في البيت مصباح ، ولكنّ جيتر لم يشتر شيئاً من الكيروسين طوال ذلك الشتاء . وكان آل ليستر يأوون إلى فُرشهم حالما تسقط العتمة ، إلا في شهور الصيف عندما كان الحر يدفعهم إلى القعود على الشرفة . وكانوا يفيقون مع مطلع

الفجر . ومن هنا لم يكونوا في حاجة إلى الكيروسين على أية حال .

وقعد جيتر على سريره قرب إيدا ، ونزع حذاءه الضخم الثقيل . ووقع الحذاء على أرض الغرفة وكأنه آجرّ يسقط من ارتفاع متر .

وقالت بيسّي :

— « لقد وقفنا عند كل بيت مررنا به ، وفي كل مرة كنا نترجل من السيارة ونقوم بزيارة صغيرة . كان بعضهم في حاجة إلى صلاة ، وكان بعضهم غير محتاج اليها . ولم نجد في ذلك أي بأس ، لأنني كنت أنا وديود شديدي الرغبة في الطواف بالسيارة . وأحب بعضهم ان يعرف من أين جئت بالمال الكافي لشراء سيارة جديدة مئة بالمئة ، ولماذا تزوجت ديود . فأخبرتهم كل شيء . أخبرتهم ان زوجي السابق ترك لي ثمانمئة دولار ، وقلت إنني تزوجت ديود لاني أريد ان أجعل منه مبشراً . ولم يكن ذلك طبعاً غير واحد من الاسباب التي تزوجته من أجلها ، ولكني أدركت اني إذا قلتُ لهم ذلك فلن يسألوني مزيداً من الشرح . »

فسألها جيتر :

— « ألم يقل أحدٌ شيئاً ضدكِ ، أيتها الاخت بيسّي ؟ إن لبعض الناس طريقة في الحديث عن أمثالنا من الفقراء . »

— « أجل ، لقد قال بعضهم شيئاً عن زواجي من ديود . لقد قالوا انه أصغر من أن يتزوج امرأة في مثل سني ، ولكنهم ما كادوا يتحدثون على هذه الطريقة حتى ركبنا سيارتنا الجديدة وانطلقنا بها . لقد قال بعضهم ان من الاثم والعار ان آخذ

أموال زوجي السابق وأشتري بها سيارة جديدة وأتزوج غلاماً صغيراً مثل ديود ، غير اننا كنا نركب السيارة حالما يبدأون ذلك الحديث . أليس كذلك يا ديود ؟ »

ولم يُجب ديود بكلمة .

وقال جيتر :

ــ « أحسب ان ديود قد نام . لقد تعب كثيراً اليوم ، بعد أن ساق تلك السيارة إلى ماك كوي ذهاباً واياباً . »

واستوت إيدا قاعدة في السرير ، وقالت مغضبةً :

ــ « إخلع هذه الوزرة يا جيتر . أنا لم أرَ مثلها من قبل . وأنت تعرف جيداً انني لن أسمح لك بأن تنام في السرير وأنت لابس بنطلوناً وسخاً مثل هذا . ويظهر انه يجب عليّ ان أعيد ذلك عليك كل يوم تقريباً . إن ثيابك هذه توسّخ السرير كله . ويجب أن تعرف انني لن أحتمل هذا بعد اليوم . »

فقال جيتر :

ــ « الجو بارد في هذه الليلة أيضاً . وأنا أبرد إذا نمتُ بعد خلع ملابسي هذه . ويظهر اني صرت لا أستطيع ان أعمل ما يعجبني بعد اليوم . إن النوم في الوزرة لن يوسخ شيئاً على كل حال . »

ــ « أنا لا أعرف انساناً غيرك يحب أن ينام والوزرة على جسمه . أنت الرجل الوحيد الذي يرغب في ذلك . »

ولم يجبها جيتر . لقد نهض من فراشه ، وخلع وزرته ، وعلقها على طرف السرير . حتى إذا اندسّ تحت اللحاف كان يرتجف من شدة البرد .

وفي الجانب الآخر من الغرفة كان في امكانهم ان يسمعوا بيسي وهي تمشي مرتدية جواربها ، وقد استعدت للنوم . ولم تكن قد خلعت حذاءها إلا بعد أن أتمت نزع ملابسها .

ورفع جيتر رأسه من تحت الغطاء وحاول أن يرى إلى ما حوله وسط ظلام الغرفة .

وقال :

– « تعرفين يا بيسي ، يخيّل إليّ وكأنّ نوم إحدى المبشرات في منزلي يجعلني أستعيد ذلك النشاط الذي كان لي قبل ان أفقد صحتي . وأنا أحسّ بشعور رائع كلما فكرت في انكِ ستبقين معنا هنا . »

فقالت :

– « صحيح اني مبشرة ، ولكني لا أختلف مطلقاً ، من سائر النواحي ، عن جميع النساء . أنت تعرف هذا ، يا جيتر ، أليس كذلك ؟ »

فرفع جيتر نفسه على مرفقه ، وأجهد عينيه لكي يرى من خلال العتمة إلى أقصى الغرفة . ثم قال :

– « آمل ان لا تفارقينا في وقت قريب . واني سوف أكون سعيداً جداً بأن تنامي هنا دائماً ، يا بيسي . »

وأقحمت إيدا مرفقها في أضلاعه ، بأقصى ما استطاعت من قوة ، فسقط على السرير – إلى جانبها – وهو يئن من الألم .

وسُمِعت بيسّي وهي تأوي إلى السرير . لقد خشخش الفراش المصنوع من ورق الذرة الخارجي المجفّف ، وصرّت الالواح الخشبية الموصّلة فيما كانت تضطجع وتمدّ قدميها .

وظلّت بيسّي ساكنة بضع دقائق ، ثم شرعت تبسط يديها نحو الجانب الآخر ، فضاعفت وطأتها صريرَ الالواح الخشبية .

وفجأةً استوت قاعدةً في السرير ، ودفعت اللحاف جانباً . وتساءلت مغضبةً ، في صوتٍ خشن غير طبيعي :

— « أين ديود ؟ أين أنتَ يا ديود ؟ »

وران على الغرفة صمت عميق . كانت إيدا قد استوت قاعدةً ، وكان جيتر قد وثب فجلس على جانب السرير . وخشخش فراش بيسي المحشو بورق الذرة خشخشةً إضافية ، ثم كان من الميسور أن يُسمع خبط قدميها الحافيتين على أرض الغرفة الصنوبرية في ارجاء المنزل كله . وظل جيتر معتصماً بالسكون فلم يحاول ان يتكلم أو يتحرك . لقد تربّص لكي يسترق كل صوت ينبعث في البيت .

وصاحت بيسي من وسط الغرفة محاولةً ان تتلمّس طريقها من سرير إلى سرير :

— « ديود !... إيه ، ديود ! أين أنت يا ديود ؟ — لماذا لا تردّ عليّ ؟ من الافضل لك أن لا تحاول الاختباء ، يا ديود ! »

فقال جيتر :

— « ما بالكِ يا بيسي ؟ »

— « ديود ليس في السرير . أنا لا أجده في أيّ مكان . »

وبسط جيتر يده نحو وزرته ، ووثب واقفاً على قدميه ، وراح يبحث في جيوبه عن عود ثقاب . وأخيراً وجد عوداً ، وانحنى ، فحكّه بالارض .

وأيقظ وهج الكبريتة كل من في الغرفة . كانوا جميعاً هناك، ما عدا إللي ماي وديود . وكانت بيسي على مبعدة بضعة أقدام من جيتر ، الذي حاول جهده أن ينظر اليها . وكانت هي تقي وجهها من وهج الضوء .

وانسلّت إيدا من الفراش ، ووقفت خلف جيتر حالما وقعت عينها على بيسي .

وأصدرت أمرها إلى جيتر :

— « إلبسْ ثيابك . أنا لا أعلم ما الذي تريدان أن تفعلاه ، أنت وهي ، ولكني أراقبُكما . البسْ ثيابك في هذه اللحظة . وليس كونها مبشرةً يشكل سبباً كافياً يجعلها تقف أمامك على أرض الغرفة هكذا . »

وتردد جيتر ، وكاد عود الثقاب يحرق أصابعه . ثم إنه سارع إلى ارتداء ثيابه وراح يبحث في جيبه عن عود ثقاب جديد .

كانت بيسي لا تزال واقفة إلى جانب جيتر ، ولكنه ما إن حكّ عود الثقاب بالارض حتى انطلقت إلى سرير الجدة العجوز. ورفعت الغطاء ، فاذا بها تجد ديود غارقاً في نوم عميق . كانت الجدة العجوز مستيقظة ، وقد تمددت مرتجفة الأوصال في ثيابها العتيقة الممزقة السوداء .

وهزّ جيتر ابنه هزاً أيقظه من رقاده وطرحه أرضاً . ووكزته إيدا بذراعها .

وسأله جيتر وقد أمسك بخناقه وأنشأ يهزه هزاً عنيفاً :

— « ماذا تقصد بعدم النوم مع بيسي في السرير ؟ »

وأجال ديود بصره في ما حوله مضيّقاً عينيه . لقد كان غير

قادر على أن يرى شيئاً في وهج عود الثقاب .

وتساءل وهو يفرك عينيه :

ـ « ماذا تريدون ؟ »

فقالت الأخت بيسي في رقة :

ـ « مسكين ديود ، إنه لم يعرف في أيّ سرير يجب أن ينام . لقد بلغ بـه التعب والنعاس حداً جعله لا يكلف نفسه عناء البحث عن السرير الذي سننام فيـه ، أليس كـذلك يا ديود ؟ »

فقال جيتّر :

ـ « ديود ، ما هكذا يفعل الناس . يجب أن تُبقي عينيك مفتوحتين عندما تتزوج . إن بيسي أصبحت عصبية جداً حين لم تجدكَ في السرير . »

وانقلبت إيدا إلى سريرها ، وتبعهـا جيتّر . إنه لم ينزع ثيابه عن جسده ، واستسلمت إيدا للرقاد من غير أن تفكّر فيها .

ودخلت إللي ماي الحجرة بعد لحظة ، ومضت لتنام إلى جانب جدتّها . ولم يقل لها أحد شيئاً .

وكانت الجدة العجوز يقظةً طوال هذه الفترة ، ولكن أحداً لم يوجّه اليهـا أيّ كلمة ، ولم تحـاول هي أن تقول لبيسي ان ديود كان راقداً في سريرها . فما كان أيّ فرد من أفراد الاسرة ليكلمها إلا إذا أراد ان يقول لها ان تزيـح من الطريق ، أو ان تكفّ عن أكل الخبز واللحم .

ومضى ديود وبيسي إلى فراشهما واضطجعا عليه . وحاولت الاخت بيسي ان تتحدث إلى ديود ، ولكن ديود كان متعبـاً ناعساً . فلم يجبها بكلمة . وظلّ الفراش المحشوّ بأوراق الذرة اليابسة ، يخشخش معظم ساعات الليل .

١٥

كرع جيتر كأسه الثالثة من نقيع الهندباء ، وتنحنح . وكان ديود قد غادر المطبخ ، قبل ذلك ، ومضى إلى الفناء ، بينا كانت الاخت بيسّي واقفة على السقيفة الخلفية تَمشط شعرها . وهبط جيتر الدرجات الخلفية واستند إلى البئر ، ثم قال :

— « في استطاعتي أن أقوم بصفقة حسنة جداً إذا نقلتُ حملاً من الحطب إلى أوغوستا ، اليوم . إن عندي ، أنا وديود ، كومة ضخمة منه تنتظر من ينقلها . والآن ، لو وضعنا هذا الحطب في السيارة الجديدة فلن نحتاج إلى وقت طويل حتى ننقله إلى المدينة ، أليس كذلك يا بيسي ؟ »

وأنجزت تسريح شعرها ، وغرزت فيه نصفَ دزينة من الدبابيس ومشطَها المرصع بالماس الزائف المعروف بجواهر الراين ، ثم تقدمت مع جيتر نحو السيارة .

وقالت :

— « من الجائز أن تتسع لحمل . ومع ذلك ، فليس هناك

فسحة كبيرة في المقعد الخلفي . »

- « إن سيارتي تتسع لحمل كامل ، وهي ليست أكبر من هذه . كلتا السيارتين من نوع واحد . الفرق الوحيد بينهما هو ان سيارتكِ تكاد تكون ، الآن ، جديدة تماماً . »

وأدار ديود محرك السيارة ، فهدر هديراً معجباً كاملاً . كان التوتر الذي أزعج ديود ، أمس ، قد زال الآن ، وكان المحرك يدور في سلاسة . ونقر الزمورَ عدة مرات مبتسماً لجيتر .

وقالت بيسي :

- « يبدو لي اني أحب أن أقوم برحلة حتى أوغوستا . لقد كنت أنا وديود ذاهبين البارحة إلى هناك قبل أن نغير رأينا ونقصد إلى ماك كوي . »

فقال جيتر :

- « لن نحتاج إلى وقت طويل حتى نضع حملاً من الحطب في القسم الخلفي . وفي استطاعتنا ان نسافر بعد فترة قصيرة جداً . ديود ، سق السيارة عبر ذلك الحقل حتى تصل بنا إلى كومة الحطب التي قطعناها في الاسبوع الماضي ، ولسوف آتي ببعض اسلاك البالات لأربط الحمل ربطاً شديداً فلا يقع .

وامتطت بيسي السيارة إلى جانب ديود ، وانطلقا نحو غيضة السنديان الاسود ، عبر حقل القطن القديم . وكان الرتم البالغ طوله أربعة أقدام قد غطى صفحة الحقل في السنوات القليلة الماضية . لقد كان ذلك الحقل ، في يوم مضى ، أجمل بقعة من بقاع طريق التبغ في المنطقة كلها .

وكانت اثلام المحصول الاخير لا تزال قائمة هناك . وفيما كانت السيارة تأخذ نصيبها من السرعة شيئاً بعد شيء ، كانت وثباتها في تلك الارض الوعرة لا تني ترفع ديود وبيسي وتخفضهما على حين غرة وفي تعاقب كثير حتى لقد تعذر عليهما الاحتفاظ بمقعديهما . وأمسك ديود بمقود السيارة ، في شدة وإحكام ، وقاوم تلك الخضات أكثر مما استطاعت بيسي أن تفعل . كانت بيسي تقفز كالكرة فيما كانت السيارة تنطلق من ثلم إلى ثلم ، في حقل القطن القديم ، فيرتطم رأسها بغطاء السيارة عند كل صدمة . وكانا قد اجتازا ربع ميلٍ تقريباً ، وكادا يبلغان حافة الغيضة حيث كانت كومة السنديان الاسود ، عندما سُمع صوت كسر مدوٍّ توقفت معه السيارة عن الحركة توقفاً تاماً .

وقُذِف بديود فوق مقود السيارة ، ودُفعت بيسي إلى أمام فارتطم رأسها بالحاجز الواقي من الريح والمطر . وحيث أصابت جبهتها الزجاج انتشرت شقوق تبلغ المئة أو تزيد ، وتفرعت مثل نسيج عنكبوت رطب في وضح النهار . ومع ذلك فقد ظل الزجاج متماسكاً لم يتناثر ، وظل الحجاب الواقي سليماً . ولم تدرِ بيسي ما الذي حدث .

وصاحت وهي تنهض من على أرض السيارة حيث طرحتها الصدمة :

— « ليكن المجد لله . ما الذي فعلناه هذه المرة يا ديود ؟ »

فقال ديود :

— « أظن أننا اصطدمنا بساق شجرة منقصف . لقد نسيت كل شيء عن هذه الجذوع الميتة في هذا المكان . أنا لم أستطع أن أرى شيئاً على الاطلاق وسط الرتم . إنه يغطي كل شيء

فوق هذه الارض . »

وترجلا من السيارة وهرعا إلى مقدمتها . كان جذع شجرة يابس يبلغ طوله قدمين هو الذي عاقهما عن المسير .

كانت ارومة الصنوبر الضاربة إلى السواد ، المحجوبة عن النظر بجدار الرتم البالغ طوله اربعة أقدام ، قائمةً تجاه المحور تماماً . وكان الفساد قد دبّ فيها بعض الشيء ، ولولا قلبها المتماسك لكان في وسع السيارة أن تسحقها وتتابع سبيلها من غير ما انزعاج . ولم يُصب المحور بالتواء كبير . والواقع ان السيارة كانت تمضي بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة فحسب ، ولم يكن ثمة قوة كافية لاصابة المحور بعطب خطير . لقد دُفعت الدواليب بضعة إنشات إلى الامام ، ولكن لم يكن هناك في ما عدا ذلك ، ما يدعو إلى القلق . كانت السيارة لا تزال جيدة وكأنها جديدة تقريباً .

وفي تلك اللحظة بالذات أقبل جيتر ويداه وذراعاه مليئة بأسلاك الحديد الصدئة التي وجدها خلف عنبر الذرة .

وما كانا في حاجة إلى ان ينبئاه بالذي حدث ، لأنه كان في استطاعته أن يرى ، مثلهما ، ان المحور الامامي قد صدم ارومة الصنوبر ، وان العجلات تقدّمت إلى الامام بضع بوصات .

وقال :

— « لا يبدو أنها أصيبت بأذى كبير . ولعلها لم تصب بأذى على الاطلاق . يجب علينا أن ننقل حملاً من الحطب إلى أوغوستا اليوم ، لأنه لم يبق في المنزل لا طحين ولا هندباء . »

وراقبت بيسي ديود وهو يدير المحرك ويبتعد عن ارومة الصنوبر متراجعاً إلى الوراء . ثم إنه دار من حولها وقاد السيارة في احتراس بقية الياردات القليلة التي كانت تفصله عن ركام السنديان الأسود . وشرع جيتر يجمع قطع الحطب ويلقي بها ، وكأنها الحراب الخشبية التي يلعب بها الرياضيون ، في المقعد الخلفي من السيارة .

وقال ديود :

— « أظن أن علينا أن نُنزل غطاء السيارة . فهي لن تتسع لكثير من الحطب إذا تركنا الغطاء هكذا . »

وراح يحلّ البراغي التي تشد الغطاء إلى الحجاب الواقي من الريح والمطر ، بينا كان جيتر وبيسي يواصلان القاء الحطب على المقعد الخلفي .

وقال جيتر :

— « لن يكون هناك متسع يمكننا من أن نأخذ إيدا معنا ، أيضاً ، أليس كذلك ؟ ولسوف تستاء كثيراً عندما ترانا ننطلق بالسيارة نحو أوغوستا من غير أن نقف ونصطحبها . ففي المرة الاخيرة التي ذهبتُ فيها ، أنا وديود ، بسيارتي إلى هناك كاد ان يغمى عليها هي وإللي ماي ، ولكن ذلك لم يفدهما شيئاً ، لأنا كنا في حاجة إلى أن نملأ السيارة كلها بالحطب . »

فقالت بيسي :

— « حسناً ، أنا لا أعتزم البقاء في البيت . سوف أذهب كما سيذهب غيري . ليس في استطاعتكما ان تبقياني هنا . »

فقال ديود :

— « أنا ذاهب . ليس هناك من يستطيع أن يبقيني هنا .

أنا الذي سوف أسوق . »

وكان قد ردّ غطاء السيارة إلى وراء ، وحاول أن يثبّته في وضعه ذاك . وكان قد طوى القسم الاعظم منه ، ولكن جزءاً منه ظل متدلياً حتى المحور الخلفي . لقد عجز عن أن يهتدي إلى وسيلة تبقيه مطوياً ، وهكذا تركه يتدلى إلى وراء .

فقال جيتر :

ـ « أنا لن أدع هذه الرحلة تفوتني طبعاً . انه حطبي أريد أن أبيعه . سوف أكون أول من يذهب . »

وكان حطب السنديان قد اقتُطع على أطوال متفاوتة في الاسبوع الماضي عندما قضى جيتر وديود نهاراً كاملاً في الغيضة وهما يجمعان حملاً من الحطب استعداداً لبيعه . كان طول بعضه قدماً ، ولكن طول بعضه الآخر كان يتراوح ما بين ثلاثة أقدام وستة أقدام . والحق ان الطول الذي اقتُطعت عليه كان طول الاشجار الضعيفة النمو بعد ان تعمل الفأس في جذوعها على غير هدى . فما تكاد احدى تلك الشجرات تُقتطع حتى يجردها جيتر من أغصانها ، وعندئذ تصبح وقوداً جاهزاً للنقل . ولم يرتفع ذلك السنديان الاسود ، في يوم من الايام ، إلى أعلى من قامة الانسان . فقد كان نوعاً من البلوط قزماً يصطنع عصارته الحيوية في تقسية الالياف بدلاً من ان ينمي بها طبقات جديدة ، ويوسّع الطبقات القديمة كما تفعل سائر الاشجار . وكانت أعواد السنديان ضامرة يتراوح قطر كل منها ما بين بوصتين أو ثلاث بوصات ، وكانت شائكة خشنة مثل قطع الاسلاك الثقيلة ، أو أنابيب المياه الحديدية الصغيرة .

وسلخا نصف ساعة تقريباً في تعبئة المقعد الخلفي بالحطب . وبعد ذلك شرع جيتر يشدّ الحمل ، بأسلاك البالات ، إلى جسم السيارة لكي لا يقع شيء منه في بعض الطريق إلى أوغوستا . وكانت أطراف السنديان الاسود مُنْشَبَةً في كل ناحية ، ناتئةً بضعة أقدام من جانب ، ومن وراء أيضاً . وكان بعض الحطب قد ألقي فوق المقاعد المنجدة تماماً فكان هذا القسم وحده ، في ما يبدو ، غير محتاج إلى ربط . وكانت أسلاك البالات الصدئة تنقطع كلما حاول جيتر ان يشدّها إلى أيدي الابواب ، فكان يتوقف ويصل ما بين طرفي السلك فاتلاً إياهما حتى يتماسكا . واستغرق نقل الحطب إلى السيارة وشدّه بالاسلاك نحواً من ساعتين ، ومع ذلك فقد كانت عدة قطع من الحطب تسقط على الارض حين يمس واحدٌ منهم السيارة ، أو يتكيء عليها .

حتى إذا تمّ ذلك كله ارتدّ ديود بسيارته المثقلة ، عبرَ الحقل ، متجهاً نحو المنزل ، مصطنعاً سرعةً لا تعدو سرعة السائر على قدميه . ومع ذلك فقد أصرّ الحطب على أن يتساقط من هنا وهناك . ومشى جيتر وبيسي خلف السيارة ، وأخذا يلتقطان ما وقع من الحطب ويحملانه إلى البيت .

وكانت إيدا وإللي ماي في الفِناء عندما انتهوا إلى هناك . وانتظرت الجدة العجوز خلف شجرة ازدرخت لترى ما الذي سوف يعملونه . ووقفت إيدا أمام السيارة مباشرةً ، مرتقبةً أن تعرف في أيّ مكان سوف تقعد . ومضت الجدة إلى زاوية البيت ووقفت هناك ، وقد احتجبت كلها عن النظر ما عدا وجهها .

وقالت إيدا :

ـ « أين سأجلس وأركب ؟ أنا لا أرى أيّ محلّ يستطيع ان يجلس فيه الانسان بعد أن ملأتم السيارة بهذا الحطب كله . »

وانتظر جيتر بضع دقائق راجياً أن تتولى بيسي الجواب عن سؤال إيدا . حتى اذا اعتصمت بالصمت امتطى متن السيارة إلى جانب ديود ، وقال :

ـ « لم يبق لكِ مكان . »

ـ « لماذا لم يبق لي مكان ما دام هناك محلّ لك ولديود ولتلك الساقطة ؟ »

فقال جيتر :

ـ « الأخت بيسي ليست ساقطة . لا ، ليست كذلك على الاطلاق . إنها مبشرة . »

ـ « كونها مبشرة لا ينفي أنها ساقطة . إن ذلك يساعدها على ان تكون ساقطة كبيرة . وهي لا تتصرف هذا التصرف إلا لأنها ساقطة كبيرة عجوز . »

فقال جيتر :

ـ « ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك عن بيسي ؟ »

ـ « الليلة البارحة كانت تذرع الغرفة وليس عليها شيء من ثيابها . ولو لم أجبرك على أن تلبس وزرتك عندما فعلتُ ذلك ، لما كان في استطاعتي ان أحزر أي شيء يمكن ان تعمله . إنها امرأة ساقطة . »

فقال جيتر :

ـ « كفى ، يا إيدا . يجب ان لا تتحدثي هكذا عن بيسي . إنها مبشرة ، وفوق ذلك فهي زوجة ديود أيضاً . »

— « هذا لا يغيّر شيئاً من الحقيقة . إنها ساقطة ، على كل حال . فهي تضيع وقتها كله حائمة حول الرجال . وهي لا تبقى في بيتها أبداً لتنظفه كما يجب عليّ أنا ان أفعل . إنها تحوم حول الرجال لأنها امرأة ساقطة . وحين تذهب للتبشير تجدها لا تعظ إلا الرجال ولا تلتفت إلى النساء على الاطلاق. »

— « ليس عندي ما أقوله ضدّ الاخت بيسي . إنها مبشرة ، وهي لا تفعل إلا ما يوحيه اليها الرب . إنه هو الذي يوجّه خُطاها . »

فقالت بيسي لجيتر :

— « إيدا مغتاظة لأني تزوجت ديود ولأني جئت لأسكن معكم . إن إقامتي معكم في الغرفة لا تعجبها . »

فقال جيتر :

— « إخرسي الآن ، يا إيدا ، واتركينا نذهب . يجب أن أبيع هذا الحمل اليوم ، في أوغوستا . »

وأدار ديود المحرك ، وامتطت بيسي السيارة فجلست على حافة المقعد إلى جانب جيتر . وفي صعوبة بالغة اتسع المكان لثلاثتهم جميعاً .

واندفعت إيدا نحوهم ، محاولةً ان تثب على عتبة السيارة ، ولكن ديود ضاعف سرعة السيارة فلم تستطع اللحاق بها . حتى إذا عطف المقودَ فجأة ، لكي يغادر الفِناء في اتجاه طريق التبغ ، كاد الدولاب الخلفي ان يدهس قدمي إيدا . وصاحت إيدا خلفهم ، ولكن السيارة كانت قد انطلقت آنذاك في سرعة جعلت محاولة اللحاق بهم ومنعهم من السير ضرباً من العبث . فانقلبت إلى الفِناء ووقفت هي وإللي ماي تشاهدان سحابةَ

الغبار التي حجبت السيارة عن الابصار . واقبلت الجدة العجوز من خلف زاوية البيت ، واذْ تناولت كيس الخيش العتيق مضت في اتجاه الغابة التماساً للأغصان الميتة . كان الجوع قد عضّها من جديد ، على الرغم من انها شربت كأساً من نقيع الهندباء منذ ساعتين أو ثلاث ليس غير .

وخفّف ديود السرعة عندما اقتربوا من مفرق الطرق حيث كان عليهم أن يغادروا طريق التبغ ليسلكوا الجادة العامة إلى أوغوستا . بيد انه لم يخفف السرعة تخفيفاً كافياً ، وهكذا أمالت قوةُ التباعد عن المركز حملَ الحطب إلى جانب ، فسقطت ذروة الحمل كلها على الطريق ..

وقضى جيتر وديود نصف ساعة في إعادة الحطب المتساقط إلى مكانه . وبعد ان ساعدتهما بيسي مساعدة طفيفة هي كل ما كانت قادرة عليه ، صار في ميسورهما أن يشدّا الحمل إلى السيارة كرةً أخرى . واجتاز جيتر الحقل إلى كوخ من أكواخ الزنوج واستعار حبلين من حبال المحاريث . حتى إذا رجع طرحهما فوق الحطب وربط أطرافهما ربطاً محكماً . ثم قال :

— « أظن ان هذا السنديان الاسود اللعين لن يسقط بعد الآن . ليس هناك شيء في العالم مثل حبال المحاريث ، وأسلاك البالات . وإذا استطعنا ان نجمع الاثنين معاً كان ذلك خير ما نعمل به الاشياء . اعطني قليلاً من كل نوع تجدني قادراً على القيام بجميع الاعمال على اختلافها . »

وانطلقوا من جديد ، هابطين الجادة العريضة نحو أوغوستا ، في سرعة . كانت المدينة قد أصبحت الآن على بُعد اثني عشر ميلاً ليس غير .

وكان ديود سائقاً صالحاً من غير شك . كان يتخذ جانب الطريق الايمن ، في الوقت المناسب تماماً ، كلما التقى سيارة أخرى . ومرتين أو ثلاث مرات فقط كان على وشك ان يشق طريقه إلى جوف بعض السيارات الاخرى . وكان شديد الانهماك في قرع الزمور حتى لقد نسي ان يسوق السيارة إلى الجانب الايمن من الطريق طوال الرحلة . وكانت معظم السيارات التي التقوا بها تفسح لهم سبيل المرور حين تسمع صوت زمور ديود .

ولم يكن في وسع جيتر ان يتكلم لأنه كان منقطع النَفَس معظم الوقت . لقد أوقعت سرعة السيارة ذعراً شديداً في فؤاده فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة بيسّي . وكانت تتطلع إلى الامام ، معظمَ الوقت ، مقطبةَ الجبين ، فخورةً بسيارتها راجيةً ان يعرف الزنوج والمزارعون الذين رأوهم في الحقول القائمة على جانبي الطريق انها ملكٌ لها وليست ملكاً لجيتر أو ديود .

وفي ما بين الظهر والساعة الواحدة بلغوا منتصف الطريق . كانت أوغوستا قد غدت الآن على بعد سبعة أميال أو أكثر قليلاً ، ليس غير . ولسوف يكون في ميسورهم ، حين يبلغون قمة الكثيب الأخير ، ان يروا إلى المدينة تحتهم ، في الوادي ، إلى جانب النهر الكبير الموحل .

وكانت التلة الاخيرة التي تعيّن عليهم ارتقاؤها قبل ان يبلغوا تلك النقطة طويلة جداً . وكان ثمة نحوُ ميلٍ ونصف بين جدول الماء الجاري في أدناها ومحطة البنزين القائمة في أعلاها . ولم يكادوا يجتازون نصف هذه المرحلة تقريباً حتى تباطأت

السيارة ، فجأة ، فلم تزد سرعتها على بضعة أميال في الساعة . كانت المياه تغلي في المحرك وفي جهاز التبريد ، وانبجس البخار إلى ما فوق الحجاب الواقي من الريح . وكان المحرك يُحدث ضجةً كبيرة ، ولقد بدا وكأنما كان يقرقع كما يقرقع محرك سيارة جيتّر العتيقة ، ولكنْ في صوت أعلى بعض الشيء وأشدّ قسوة .

وقالت بيسي وهي تطلّ من الباب لترى ما حولها :

— « ماذا أصابنا ؟ »

فقال ديود :

— « لقد حمي المحرك ونحن نصعد التلّ . ولست أدري ما إذا كانت هناك علة أخرى . »

وتقدموا مئة ياردة ثم توقفت السيارة . واختنق المحرك ، واندفع البخار من الانابيب مطلقاً صَفرة كتلك التي تطلقها مكابس المضخات في قُطُر الشحن ، عند مستودع الفحم .

ووثب جيتّر من السيارة وأقحم صخرة كبيرة تحت الدولاب الخلفي قبل أن يوفق ديود إلى إعمال المكبح . ووقفت السيارة وكرّت إلى الوراء .

وقالت بيسي من جديد :

— « ماذا أصابنا ، يا ديود ؟ هل كُسِر شيء ؟ »

فقال :

— « أظن ان المحرك قد حمي ، لا أكثر . »

ولم يبذل أيّ جهد للنزول من السيارة . لقد قعد وراء المقود ، قابضاً عليه في إحكام ومديراً إياه إلى أقصى مداه ذات اليمين وذات الشمال . ثم انه راح يقرع الزمور من

جديد .

وقال جيتر :

– « هذا لن يفيدنا شيئاً ، يا ديود . إنك سوف تتلف هذا الزمور اللعين من غير ان تعلم ، إذا بقيت تنقره هكذا طوال الوقت . لماذا لا تنزل وتحاول ان تفعل شيئاً ؟ »

ومرّت بهم عدة سيارات منطلقة في سرعة بالغة ، بعضها يصعد الكثيب وبعضها يهبطه ، ولكن أياً منها لم تتمهل أو تقف وتبدي استعدادها للمساعدة .

وكانت سيارة أخرى تصعّد خلفهم في اناة . كانت تتقدم بطيئة جداً ، وكان البخار ينبعث منها كما ينبعث من سيارة بيسي الجديدة . وإذ مرّت بهم على رسلها مقرقعة مفرقعة فقد أطل بعض الزنوج منها ، وألقوا نظرةً على السيارة المتوقفة عن الحركة .

ونادى أحدهم جيتر وقال :

– « ما بال سيارتكم يا جماعة البيض ؟ يبدو انها لن تسير بعد الآن . »

فقال جيتر مغضباً :

– « باسم الله واسم المسيح ! ما اسمك أيها الزنجي ؟ ومن أين أنت آتٍ ؟ »

فقال :

– « لقد جئنا من مقاطعة بورك . لماذا تريدون أن تعرفوا ذلك يا جماعة البيض ؟ »

وقبل أن يُوفَّق جيتر إلى أن يقول كلمة إضافية كانت سيارة الزنوج قد واصلت تصعيدها في الكثيب ، مبتعدة

عنه مئة ياردة ، وضاعفت سرعتها . وكان جيتّر يعتزم ان يحملهم على دفـع سيارة بيسي إلى أعلى التلّ لو استطاع أن يوقفهم .

وأدار ديود المحرك وأعمل ناقل السرعة . ووثب جيتّر وبيسي على عتبة السيارة ، في الوقت المناسب ، لأن ديود ما لبث ان انطلق بالسيارة في سرعة . لقد برد المحرك ، فهـم يتقدمون بأسرع مما تتقدم سيارة الزنوج . وأدركوا السيارة التي أمامهم وكانوا يستعدون لتخطّيها عندما أخذ المحرك يقرقع من جديد ، قرقعةً ذات دويّ لم يصدر عنها أعنف منه في ما مضى ، ثم توقفت السيارة عن الحركة .

وقال جيتّر :

ــ « هذه العن سيارة شهدتّها في حياتي . إنها لا تفعل الشيء نفسه مدة طويلة تمكّنني من أن أتعوّد طباعها ! »

وكانوا قـد توقفوا ، هذه المرة ، عند قمـة الكثيب . وكان ديود على أهبة ان يدع السيارة تكرّ نزولاً ، عندما أبصر جيتّر محطة البنزين ، وقال لدْيود ان ينتظر لحظةً :

ــ « سوف آتي بقليل من الماء وأصبه فيها . »

وعبَرَ الطريق قاصداً إلى محطة البنزين . وبعد بضع دقائق رجع حاملاً بيده دلو ماء . وأقبل الرجل المشرف على المحطة معـه .

وفيما كان جيتّر يكشف عن جهاز التبريد كان ذلك الرجل قد رفع غطاء المحرك ليقيس الزيت :

وقال الرجل :

ــ « أتدري ما هي العلة أيها الاخ ؟ هي انه ليس عنـدك

قطرة واحدة من الزيت في سيارتك . إن « وسائد الآلات » قد حميت . من أين أنت قادم ؟ »

وأخبره جيتر انهم يعيشون قرب فولر ، على طريق التبغ القديمة .

فقال :

— « لقد اتلفت سيارتك الجديدة . هذا شيء معيب . أكره أن أرى أناساً لا يعرفون شيئاً أحسن من إتلاف السيارات . »

فقالت بيسي :

— « وما علتها الآن ؟ »

— « لقد تلفت سيارتك الجديدة ، أيتها الأخت . إنها تحتاج إلى غالون ونصف من الزيت حتى تسير من جديد . هل تريدين ان املأها لكِ بالزيت ؟ »

فقالت بيسي :

— « وكم يكلف ذلك ؟ »

— « دولاراً ونصف . »

— « ما كنت اعتزم أن أنفق عليها شيئاً اضافياً من المال . »

— « حسناً ، إنها لن تجري إلا إذا وضعتِ الزيت فيها . ويبدو لي أنكِ لم تزوديها بالمقدار الكافي من الزيت منذ البدء. »

فقالت بيسي :

— « ليس عندي غير دولارين اثنين . كنتُ أريد أن اشتري شيئاً من البترين بالقسم الأكبر منهما . »

فقال جيتر :

— « أنا وديُود ليس عندنا فلس واحد . ولكن حين أبيع هذا الحمل من الحطب فقد يصبح معي دولار ونصف . »

فقالت بيسي :

— « صب الزيت فيها . أنا لا أريد أن أتلف سيارتي الجديدة . لقد اشتريتها أمس في فولر ، وكانت جديدةً مئة بالمئة . »

— « لقد تلفت وانتهت ، أيتها الاخت . ولكن يجب ان تصبي الزيت فيها إذا كنت تريدين ان تذهبي إلى أوغوستا ثم تعودي إلى فولر من جديد . »

وانتظروا ريثما صبّ الزيت فيها ، ثم أعطته بيسي الثمن . كانت قد لفت الاوراق المالية بمنديل لها فاقتضاها حلّ العُقَد المحكمة دقائق عديدة .

وأدار ديود المحرك ، فتقدمت بهم السيارة ، وئيدةً ، عبرَ قمة الكثيب ، ثم هبطت الطريق الطويل إلى أوغوستا . حتى إذا بلغوا أدنى التلّ كانت السيارة تجري كما قد جرت وهي بعدُ جديدة ، ولكن المحرك أطلق ضجة أكبر من تلك التي كان يطلقها محرك سيارة جيتر . كانت « وسائد الآلات » و « أذرع الدافعات » رخوةً إلى حد جعلها تحدث صوتاً مدوياً حين انطلقت السيارة ، هابطةً الكثيب ، بسرعة تزيد على خمسة عشر ميلاً في الساعة .

١٦

كان جيتّر قد سلخ ثلاث ساعات ، حتى الآن ، وهو يحاول بيع حمل السنديان الاسود . فلم يكن ثمة ، في ما يظهر ، رجل واحد في أوغوستا راغبٌ في أن يشتريه . وفي بعض المنازل التي قصد جيتّر اليها قال الناس أولاً إنهم يريدون حطباً ، ولكنهم ما ان سألوه عن المال الذي يطلبه ثمناً له حتى عراهم الشك . لقد قال لهم جيتّر إنه لا يطلب غير دولار واحد ، وعندئذ سألوه ما إذا كان يبيع حطب صنوبر مشقّفاً بهذا الثمن الزهيد . وكان عليه ان يوضح أن بضاعته من السنديان الاسود ، وأنها لم تُنشر على قياس الموقد . وهكذا كانوا يوصدون الباب في وجهه ، فيضطر للمضيّ إلى البيت المجاور ، ويعيد المحاولة من جديد .

وتجاوزت الساعة السادسة والحطب لا يزال مركوماً على مقعد السيارة الخلفيّ ، ولم يظهر مشترٍ واحد للعيان . عندئذ شرع جيتّر يوقف الناس في الشوارع محاولاً محاولةً أخيرة يائسة ان يغريهم بشراء الحمل بنصف دولار . ولكنّ اولئك الرجال

والنساء كانوا يلقون نظرةً على السنديان الاسود المركوم في السيارة ثم يتابعون طريقهم ، وقد حسبوا من غير ريب ان المسألة لا تعدو ان تكون مزاحاً من ضرب ما . فلم يكن أيّ منهم من الخبل بحيث يشتري السنديان الاسود وهو يعلم ان حطب الصنوبر أحسن اشتعالاً ، وأيسر تناولاً .

وقال جيتر لبيسي :

— « لست أدري ما الذي سنعمله . ولقد كدنا نتأخر إلى درجة تجعل عودتنا إلى البيت متعذرة ، وليس هناك من يريد ان يشتري الحطب بعد الآن . لقد كنت أبيعه من غير جهد كلما جئت بحمل إلى هنا ، وفي أيّ وقت . »

وقال ديود إنه جائع ، وانه يود ان يذهب إلى مكان ما ويأكل . وكانت بيسي تملك نصف دولار . ولم يكن مع جيتر شيء . وديود طبعاً ، لم يكن معه شيء أيضاً .

وكانت خطة جيتر تقضي بأن يبيع الحطب بدولار ، ثم يشتري شيئاً من اللحم والطحين يعود به إلى البيت فتسدّ به الاسرة جوعها ولكنه لم يعرف أيّ شيء يجب ان يفعله الآن . فالتفت إلى بيسي مستطلعاً رأيها ، فقالت :

— « لعل من الافضل ان نرجع إلى فولر . إن في استطاعتي ان أشتري غالونين من البنزين ، وهو شيء يجب ان يكفينا . »

فقال ديود :

— « ألن نأكل شيئاً ؟ إن أحشائي المسكينة جافة كالقحط . »

وقال جيتر وهو ينظر إلى السيارة :

— « لعلنا نستطيع أن نبيع شيئاً آخر . ولكني لا أدري ما الذي ينبغي أن نبيعه . »

فسارعت بيسي إلى القول :

— « لن نبيع سيارتي الجديدة على كل حال . لقد كانت حتى البارحة فقط جديدة مئة بالمئة . هذا شيء لن يفكر أحد في بيعه . »

وأجال جيتر بصره في السيارة من مقدمتها إلى مؤخرتها ، ثم قال :

— « لا ، أنا لا أفكر بالقيام بعمل مثل هذا . ولكن ، تعرفين يا بيسي ، لعلنا نستطيع أن نبيع قطعة صغيرة منها ، كما يقولون . »

واستدار حول السيارة وجس بيديه دولاب التبديل ، وهزه هزاً عنيفاً . ثم قال :

— « إنه على وشك ان يقع ، على كل حال . ولن يكون في الاستغناء عنه ما يضرّ سيارتكِ الجديدة مطلقاً ، يا بيسي . »

فقالت في أناة :

— « حسناً ، يبدو لي اننا مضطرون إلى ذلك . فهذا الدولاب لا يفيدنا شيئاً ، على كل حال . فنحن لا نستطيع ان نركب على أكثر من أربعة دواليب في وقت واحد . ويخيل إليّ ان اقتناء خمسة منها هو اسراف كبير . »

وانعطفوا بسيارتهم حول الشارع حتى وجدوا مرأباً . ودخل جيتر واستعلم . وفي الحال خرج رجلٌ فنزع الدولاب وكرّه عبرَ باب المرأب .

ورجع جيتر فعبرَ الشارع في خفة ونشاط وقد أمسك بيده عدة أوراق نقدية خضراء . وعدّها واحدةً واحدةً أمام بيسي

وديود ، ثم قال :

— « ألم نكن محظوظين ، برغم ذلك ؟ »

فسألته بيسي :

— « بكم بعته ؟ »

— « لقد قال لي : ثلاثة دولارات تكفي وزيادة ، ولقد بدا ذلك في نظري مبلغاً ضخماً جداً . وها هو ذا ! أليست هذه الاوراق جميلة وجديدة ؟ فهناك في فولر كانت جميع الاوراق النقدية التي رأيتها في حياتي بالية على وشك ان تتمزق. أما هنا في اوغوستا فعند الناس أوراق نقدية جديدة . »

وكانت وقفتهم الثانية عند دكان بقالة صغير . وترجّل جيتر واشترى كيساً كبيراً من البسكويت الرقيق ورطلين من الجبن الهولندي الاصفر . ثم انقلب إلى السيارة فقدّم الطعام إلى ديود وبيسي . فقطع كل منهما شيئاً من الجبن ، وحشا فمه بالبسكويت .

وقال جيتر :

— « كلي جيداً يا بيسي . خذي كل ما تريدين . مدّي يدكِ إلى الكيس وكلي حتى تشبعي . إن ديود قد يلتهم البسكويت كله إذا لم تأخذي حاجتكِ أولاً . »

وكان جيتر مبتهج الفؤاد . فهو لا يذكر أبداً أنه زار أوغوستا ، قبل اليوم ، وكان في استطاعته ان يأكل شيئاً ساعةَ يشاء . وابتسم لبيسي وديود ، ولوّح بيده للسّابلة . حتى إذا اجتازت الشارع امرأة رفع لها قبعته وانحنى .

وقال :

— « أوغوستا مدينة جميلة . إن جميع هؤلاء الناس هم

مثلنا تماماً . صحيح انهم أغنياء ولكن ذلك لا يقدم ولا يؤخر عندي . أنا أحب كل الناس اليوم . »

وقالت بيسي :

— « إلى أين سوف نذهب الآن ؟ »

فقال جيتر :

— « هناك مكان نستطيع أن ننام فيه فوق المخزن تماماً . ولنفرض أنا بتنا فيه هذه الليلة ثم بعنا حمل الحطب غداً صباحاً — أليس هذا ما يجب علينا أن نفعله ؟ »

واعجب الاقتراح ديود ، ولكن بيسي ترددت . لقد بدا لها ان المبيت في الفندق ، تلك الليلة ، سوف يكلفها غالياً جداً ، فقالت :

— « قد يكلفنا ذلك غالياً جداً . إصعد السلم واسأل كم يكلفنا المبيت . »

وحشا جيتر فمه بحفنة أخرى من البسكويت والجبن ، وارتقى السلم إلى الفندق . كانت على الباب لوحة صغيرة مضاءة إضاءة قاتمة ، تقول إن ههنا فندقاً .

حتى إذا رجع جيتر قال :

— « سوف يسمحون لنا بأن ننام مقابل خمسين سنتاً لكل رأس . هناك كثير من الناس ، وليس في الفندق غير غرفة واحدة شاغرة ولكن في استطاعتنا أن نبقى إذا شئنا . إن لي رغبة في ذلك ، من غير شك . ألا ترغبين في ذلك أيضاً يا بيسي ؟ أنا لم أنم قط ليلة كاملةً في الاوتيل ، قبل اليوم . »

وفي تلك الاثناء كانت بيسي قد وطنت النفس على ان تقضي ليلةً في احد فنادق المدينة ، وكانت على اتم الاستعداد لأن

ترتقي السلم عندما قال جيتر ان المبيت يكلف كل واحد منهم خمسين سنتاً .

وقالت بيسي :

— « تشبّثْ جيداً بالمال الذي معك ، يا جيتر . انه مبلغ كبير لا يجوز التفريط فيه . انت لن تدعه يفرّ من بين يديك . »

وارتقوا السلم الضيق ، فوجدوا أنفسهم في غرفة صغيرة مغبرّة . كانت تلك ردهة الفندق ، وكانت في الغرفة المنارة إنارة قاتمة نصف دزينة من الكراسي ذوات الظهر المستقيم ، وطاولة . وقادهم صاحب الاوتيل إلى الطاولة ، وسألهم ان يوقّعوا على السجل . فقالوا انهم لا يعرفون الكتابة ، وان في استطاعتهم ان يوقّعوا على شكل صليب كما يفعل الاميون .

وسأل صاحب الاوتيل جيتر :

— « ما اسمك ؟ »

— « جيتر . »

— « جيتر ماذا ؟ »

— « جيتر ليستر ، من هناك قرب فولر . »

— « وما اسم الصبي ؟ »

— « ديود يدعى ديود . ان اسمه مثل اسمي . »

— « ديود ليستر ؟ »

— « اجل . »

فسأله صاحب الفندق وهو يرفع بصره إلى بيسي :

— « وما اسمها ؟ »

وابتسمت بيسي له ، ونظر هو إلى رجليها . ودفعت كتفها اليسرى إلى أمام ، وطأطأت رأسها . وعاود صاحب الفندق النظر إليها .

وقال جيتر :

— « اسمها مسز ديود . »

وتطلع الرجل إلى ديود ثم إلى بيسي ، وابتسم . كان يقدم اليهما الريشة ليمسَّاها فيما هو يرسم إشارة الصليب تجاه اسميهما .

وأعطاه جيتر المال ، فصعد الرجل وإياهم إلى الدور الثالث. كانت الاروقة مظلمة ، والغرف معتمة فاسدة الهواء . وفتح لهم أحد الابواب ودعاهم إلى الدخول .

وسأله جيتر :

— « في هذا المكان سننام ؟ »

— « نعم ، هنا ستنامون . إنها الغرفة الوحيدة الباقية. لقد امتلأ الفندق بالزبائن هذا المساء . »

وقال جيتر :

— « هذا مكان جميل ، من غير شك. أنا لم أكن أعرف ان الفنادق جميلة إلى هذا الحدّ . وكم أتمنى لو كان لوف هنا ليراني في هذه اللحظة . »

ولم يكن في الغرفة غير سرير واحد . كان واسعاً ، ممهداً، حسن الارتفاع عن الارض .

وقال جيتر :

— « أظنّ ان في إمكاننا أن نحشر أنفسنا في السرير بطريقة من الطرق . أنا سوف أنام في الوسط . »

فقال الرجل :

ــ « هناك متسعٌ لكم جميعاً ، ولكن قد يكون في استطاعتي ان أجد فراشاً آخر لواحد منكم . »

وغادر الغرفة موصداً الباب خلفه .

وقعد جيتر على السرير ، وخلع حذاءه الغليظ المغبرّ فسقط على أرض الغرفة العارية محدثاً صوتاً قوياً . وجلس ديود على الكرسي وأنشأ يقلّب بصره في الغرفة ، والجدران ، والسقف . كان بعض الجبس الاصفر قد تساقط في عدة مواضع ، وكان بعضه الآخر قد تدلى في مواضع ، فهو عرضة للسقوط عند حدوث أقل ارتجاج .

وقال جيتر :

ــ « في استطاعتنا الآن ان نأوي إلى الفراش فلست أدري ما الذي يحملنا على ان نبقى قاعدين هكذا . »

وعلق قبعته المصنوعة من اللبد الاسود على يد السرير ، واستلقى . وكانت بيسي منهمكة في حلّ شعرها أمام المرآة .

وقال جيتر :

ــ « كان ينبغي أن تراني إيدا الآن ! أنا لم أنم ليلة واحدة في الفندق طوال سنوات حياتي . وأنا أراهن ان إيدا لن تصدق اني أقول الحقيقة عندما أخبرها بذلك . »

فقال ديود :

ــ « لا داعي لأن تنام معي ومع بيسي في فراش واحد . يجب ان تنزل وتنام على الارض . »

ــ « والآن يا ديود ، ينبغي أن لا تبخل عليّ بنومة ليلة واحدة ، أليس كذلك ؟ وهذه بيسي هناك ترغب في ذلك ،

أليس هذا صحيحاً يا بيسي ؟ »
فقالت :
– « أغلق فمك ، يا جيتر ! إنك تجعلني أشعر أني بلهاء حين تقول أشياء مثل هذه ! »
وقال جيتر :
– « لا يوجد غيري وغيرك ، يا ديود . وهذا يختلف عما لو كان هناك شخص آخر . ولقد رغبت في أن أنام معك ومع بيسي منذ فترة طويلة جداً . »
وقرع شخص الباب ، وقبل أن يتمكنوا من الرد عليه دخل الرجل الغرفة وسأل بيسي :
– « ما الاسم الذي قلتِ انكِ تحملينه ؟ »
وتقدّم إلى طاولة الزينة حيث كانت تحلّ شعرها ووقف قربها تماماً .
وقال جيتر :
– « مسز ديود ... لقد قلت ذلك لك من قبل . »
– « أدري ... ولكن ما اسمها الأول ؟ أنت تعلم ما أعني – اسمها قبل أن تتزوج . »
وارتدت بيسي ثوبها قبل أن تجيبه ، ثم قالت :
– « بيسي . لماذا تسأل عن ذلك ؟ »
فقال الرجل :
– « هذا حسن ، يا بيسي . ذلك كل ما أردت أن أعرفه . »
وغادر الغرفة موصداً الباب خلفه .
وقال جيتر :

ـ « أهل المدن هؤلاء لهم طباع عجيبة جداً . أنت لا تدري أبداً ما السؤال الثاني الذي سوف يوجهونه اليك . »

ونزع ديود حذاءه وسترته ، وانتظر ان تأوي بيسي إلى الفراش . كانت قد قعدت على الارض لتخلع نعليها وجوربها .

وجلس جيتر في السرير مترقباً ان تنجز ذلك . وأوصِد بابٌ مجاور إيصاداً عنيفاً جداً جعل اجزاء من الجبس الاصفر تتساقط من السقف إلى السرير وارض الغرفة .

وفجأة قُرع الباب كرةً أخرى ، وفُتح في الحال . كان الطارق هذه المرة رجلاً لم يروه من قبل .

وقال الرجل :

ـ « تعالي إلى الرواق ، يا بيسي ! »

وانتظر خارجاً حتى نهضت بيسي عن الارض ومضت إلى الباب ، قائلةً :

ـ « أنا ؟ ماذا تريد مني ؟ »

ـ « تعالي إلى الغرفة الاخرى ، يا بيسي . هذه الغرفة مزدحمة أكثر مما ينبغي . »

وقال جيتر :

ـ « كان عليهم ان يأتونا بسرير آخر . ويبدو لي أنهم وجدوا ان عندهم من السُرُر الفارغة أكثر مما ظنوا في بادئ الامر . »

وراقب هو وديود الاخت بيسي وهي تجمع ثيابها وتغادر الغرفة . لقد حملت ملابسها وحذاءها وجوربها في يد ، وحملت قبعتها في يد . وبعد ان أغلق الباب رانَ السكون على البناء

كرةً أخرى .

وقال جيتر وهو ينقلب على جانبه الآخر ويغمض عينيه :

– « أهل المدن هؤلاء لهم أساليب عجيبة ، أليس هذا صحيحاً يا ديود ؟ إنهم ليسوا مثلنا نحن الذين نعيش هناك ، حول فولر . »

فقال ديود :

– « لماذا لا تنام انت في ذلك السرير ؟ لماذا كلف الرجل بيسي أن تذهب ؟ »

– « ليس في استطاعتك أبداً ان تفهم أساليب أهل المدن هؤلاء ، يا ديود . إنهم يفعلون أغرب الاشياء وأصعبها على الفهم في بعض الاحيان . »

وظلا كلاهما مستيقظين طوال نصف ساعة ، ولكن أياً منهما لم يقل كلمة . كان الضوء ما يزال مشتعلاً ، ولكنهما لم يحاولا ان يُطفئاه .

وأطّت أرض الرواق الخشبية ، ودخلت بيسي حاملة ثيابها بيدها .

وسألها جيتر ، وقد استوى قاعداً :

– « ألم يعجبكِ المكان الذي افردوه لكِ في الغرفة الأخرى ؟ ما الذي جعلكِ تعودين ، يا بيسي ؟ »

فقالت :

– « أظن اني أويت خطأً أو شيئاً مثل ذلك إلى سرير لم يخصص لي . لقد كان فيه شخصٌ آخر . »

وفرك ديود عينيه في وهج الضوء الكهربائي ونظر إلى بيسي .

وقال جيتر وهو يرنو اليها :

— « بيسي هي من غير شك مبشرة جميلة ، أليس كذلك ؟ »

فقالت :

— « لم يكن عندي متسعٌ من الوقت لألبس ثيابي من جديد. كان عليّ ان أغادر الغرفة في الحال ، ولم يكن ثمة وقت أرتدي فيه ملابسي . »

— « لا شك في ان ذلك الرجل كان يعرف ما الذي كان يفعله منذ البدء . فليس من داعٍ يحمله على ان يكلف الزبائن ان ينتقلوا من فراش إلى فراش طول الليل . كان عليه أن يُبقي كل انسان في سريره دفعة واحدة ، وأن يسمح لنا بالنوم قليلاً . »

وقالت بيسي :

— « لا شك في ان الرجال يتصفون بالغرابة حين يكونون في الفنادق . إنهم يقولون أعجب الاشياء ، ويفعلون أعجب الافعال التي عرفتها في حياتي . أنا سعيدة بمجيئنا إلى هنا لأني قضيت وقتاً طيباً . إنه يختلف عما نعرفه هناك في طريق التبغ . »

وقُرع الباب من جديد ، وفتحه رجل . وألقى الرجل نظرة على بيسي وأومأ اليها قائلاً :

— « تعالي إلى هنا ، يا بيسي ، هناك غرفة لكِ في الجانب الآخر من الردهة . »

وانتظر خارج الباب المفتوح نصف فتحة .

— « لقد ذهبتُ إلى غرفة أخرى منذ لحظة قصيرة ، وكان

في السرير رجل . »

ــ « حسناً ، لا بأس . هناك في الغرفة الأخرى يوجــد سرير لكِ أيضاً . تعالي . سوف أذهب معكِ ، وأدلكِ على الطريق . »

فقال جيتر :

ــ « باسم الرب ، وباسم المسيح ! أنا لم أسمع مثل هذا في حياتي كلها . إن الرجال في هذا الفندق سوف يهلكون بيسي وهم ينقلونها من سرير إلى سرير طول ساعات الليل . ولا أظن اني سوف أجيء إلى مثل هذا النوع من الفنادق مرةً ثانية . فلست أستطيع أن أنام في سلام . »

وجمعت بيسي ثيابها وخرجت . لقد أُوصد الباب ، وكان في ميسور جيتر وديود أن يسمعا وقع أقدام الرجل وبيسي وهما يمضيان إلى الردهة .

وقال جيتر :

ــ « أظن انها سوف تستقرّ هذه المرة فلا تغيّر سريرها من جديد . أنا لا أستطيع أن أظل مسيقظـاً لكي أتأكد من ذلك . »

واستسلم ديود ، هو أيضاً ، للنوم بعد بضع دقائق .



ومع الفجر ، نهض جيتر من فراشه ، وارتدى ثيابه . ثم نهض ديود بعد دقائق معدودة ، وقعدا في الغرفة نصف ساعة انتظرا بيسي خلالها . وأخيراً نهض جيتر من مقعده وتقدّم إلى البـاب ملقياً نظرةً على الرواق من جانبيه الاثنين ، ثم قـال :

— « يخيّل إليّ أن علينا أن نذهب ونفتش عن الاخت بيسي . لعلها تاهت ولم تهتدِ إلى هذه الغرفة. كان الظلام شديداً الليلة البارحة ، وهنا في المدن تتغير هيئة الاشياء بعد ان يطلع النهار . »

وفتحا الباب ومشيا إلى نهاية الرواق . كانت الأبواب كلها موصدة ، ولم يدر جيتر أيها يجب ان يفتح . وكانت الغرفتان اللتان فتح بابيهما ، أول ما فتح ، شاغرتين ، ولكن الثالثة كانت آهلة . ودخل جيتر الغرفة ، فألفى شخصين نائمين في السرير ، ولكن المرأة لم تكن بيسي . وتراجع جيتر إلى خارج الغرفة ، وأغلق الباب . ثم تقدم إلى الغرفة المجاورة . كان بابها غير موصد أيضاً ، وكان على جيتر أن يمضي عبر الغرفة ويلقي نظرة على وجه المرأة قبل أن يقتنع بأنها ليست بيسي . ولم يجد بيسي في الغرف الاخرى التي دخلا اليها ، ولم يدر جيتر أيّ شيء يجب أن يفعله . وكان في آخر غرفة من تلك الغرف سرير واحد ، وكان جيتر على وشك ان يغلق الباب عندما فتحت الفتاة عينيها واستوت قاعدةً . ووقف جيتر يتأملها ، غير عالم ما الذي يتعيّن عليه أن يعمله . حتّى إذا غدت الفتاة في حال يقظة كاملة ابتسمت ونادت جيتر .

فسألها جيتر :

— « ماذا تريدين ؟ »

فقالت :

— « لماذا دخلت إلى هنا ؟ »

— « أنا أفتش عن بيسي . ويظهر ان من الافضل لي أن

أواصل تفتيشي . وإذا بقيت هنا أنظر اليكِ فقد أعرّض نفسي للعـار . »

ونادت جيتر كرةً أخرى ، ولكنه أدار ظهره وولى هارباً من الغرفة . ولحق ديود بأبيه ، فأدركه .

وقال جيتر :

— « باسم الرب وباسم المسيح ! أنا لم أر مثل هذا العدد من الفتيات والنساء الجميلات في حياتي كلهـا . إن هـذا الاوتيل يغصّ بهنّ . وسوف أخسر دياني من غير شك إذا بقيت هنـا فترة أخرى . يجب أن أنطلق إلى الشارع في هـذه اللحظة . »

وعند أدنى السلم شاهدا الرجل الذي اجّرهما الغرفة ، الليلة البارحة . كان يطالع جريدة الصباح .

فقال جيتر :

— « نحن مستعدون لأن نذهب الآن ، ولكنا لم نهتدِ إلى الاخت بيسي . »

— « المرأة التي جاءت معكما الليلة البارحة ؟ »

— « هي بعينها . إنها تدعى الاخت بيسي . »

فقال الرجل وهو يمضي إلى السلم :

— « سآتيكما بها . » ثم أضاف :

— « ما علة أنفها ؟ أنا لم ألاحظه مساء أمس ، ولكني رأيته هذا الصباح . إن النظر إليه يصيب جسمي بالخدر . »

فقال جيتر :

— « لقد وُلدتْ هكذا . إن بيسي ليست جميلة الصورة تفتن الناظر اليها ، ولكنها امرأة يسعد الانسان ان يعيش معها .

ديود يعرف ذلك ، لأنه قد تزوجها . »

فقال الرجل وهو يرتقي السلم :

— « إن لها أقبح أنف شهدته في حياتي . ارجو ان لا أُخدع بعد اليوم كما خُدعتُ أمس

وفي حوالى خمس دقائق هبط هو وبيسي السلم . كان الرجل يتقدمها وكانت هي تتبعه .

وهناك في الشارع حيث غادروا السيارة تناول جيتّر كيس البسكويت والجبن وراح يأكل أكل الرجل الذي عضه الجوع . وأخذ ديود حفنة من البسكويت وحشا فمه بها . وعلى بضع خطوات منهم كان دكان تقوم فوقه لوحة من لوحات الكوكا كولا ، فقصدوا كلهم إليه ليشربوا بضع زجاجات .

وقال جيتّر :

— « أنتِ لا يبدو عليكِ انكِ نمتِ كثيراً الليلة البارحة . ألم تستطيعي أن تنامي يا بيسي ؟ »

وتثاءبت وفركت وجهها براحتيها . كانت قد ارتدت ثيابها على عجل ، ولم تكن قد سرّحت شعرها ، فهو يتدلى على وجهها خصلاً شعثاء متصلبة .

وقالت :

— « أحسب ان الأوتيل كان مليئاً ليلة أمس . فلم تكن تنقضي فترة حتى يأتي رجل ويدعوني للانتقال إلى غرفة أخرى . وفي كل غرفة ذهبتُ إليها كنت أجد رجلاً نائماً في السرير . لقد بدا وكأن أحداً ما كان يعرف أين سريري . كانوا كلهم يقولون لي إن عليّ ان أذهب وأنام في سرير آخر . ولم تغمض عيني قط ، إلا ساعةً واحدة عند طلوع الفجر .

لا شك ان عـدداً كبيراً من الرجال ينزل في هذا الفندق . »

وقادهم جيتّر إلى الخارج ، فركبوا السيارة ومضوا في اتجاه الاحياء الغنية من المدينة . وتثاءبت بيسي ، وحاولت أن تنعم بأغفاءة قصيرة في المقعد الامامي .

ولم يكن بيع حمل السنديان الاسود هذه المرة أيسر منه في أصيل أمس . فما كان أحـد راغباً في شراء الحطب ، أو ذاك النوع من الحطب الذي كان جيتّر يعرضـه للبيـع على الأقل .

وحوالى الساعة الثالثة من ذلك الاصيل قطعوا الرجاء من العثور على من يشتّري ذلك الحمل من السنديان الاسود .

وكانت الاخت بيسي تريد ان تعود إلى المنزل ، وكذلك جيتّر . كانت بيسي ناعسةً متعبة . وأخذ جيتّر يسب ويلعن كلما رأى رجلاً ماشياً في الشارع . فقد غدا رأيه في أهـل أوغوستا اسوأ ممـا كان قبل الرحلة . لقد شتّم كل دولار في تلك المدينة .

وكان ديود شديد التوق إلى العودة ، لأن ذلك سيتيح له فرصة التزمير كلما استداروا حول المنعطفات الطويلة في الجادة الرئيسية .

واشترّت بيسي مقداراً من البنزين ، ودفع جيتّر الثمن من البقية البـاقية من ثمن الدولاب . ولم يطرأ أيّ عطـل عـلى المحرك ، فانطلقوا في سرعة بالغـة مسافة عشرة أميال تقريباً .

وقال جيتّر :

— « لنقف دقيقة . »

فأوقف ديود السيارة من غير سؤال ، وترجلوا جميعاً منها .

وأخذ جيتر يحلّ حبال المحاريث وأسلاك البالات التي كانت تطوّق حمل الحطب .

وسألته بيسي وقد رأته يقذف قطع الحطب على الارض :

— « ماذا تريد أن تعمل الآن ؟ »

— « سوف ألقي بهذا الحمل اللعين كله إلى الارض وأشعل فيه النار . فأنا أتشاءم من نقل شيء إلى المدينة رغبةً في بيعه ثم العودة به إلى البيت . وليس من الحكمة أن أقوم بشيء مثل هذا . سوف أطرحه كله على الارض . »

وساعده ديود وبيسي على ذلك ، فما انقضت بضع دقائق حتّى كان السنديان الاسود مركوماً في القناة القائمة إلى جانب الطريق .

وقال جيتر :

— « أنا لن أدع أحداً يستفيد منه أيضاً . إذا كان أغنياء أوغوستا لا يشترون الحطب مني فلن أتركه ملقىً هنا حتّى يأتوا ويأخذوه مجاناً . »

وجمع حفنةً من الاوراق الميتة ، وأقحمها تحت الركام ، وأشعل عود ثقاب فأضرم فيها النار . والتهبت الاوراق ، وارتفعت في الجو سحابة من دخان . وأذكى جيتر النار بأن هوّى لها بقبعته ، وانتظر حتّى يلتقط الحطب النار ويشتعل .

وقال :

— « لقد كانت هذه الرحلة إلى أوغوستا مشؤومة . وأنا لا أذكر أني كنتُ سيىء الحظ إلى هذا الحد في وقت من الأوقات. ففي جميع المرات السابقة كنت أتمكن من بيع حطبي بمبلغ من المال ، بخمسة وعشرين سنتاً أو نحو ذلك . ولكن

الناس هذه المرة رفضوا في ما تراءى لي ، أن يشتروه مني بالمجان . »

وقالت بيسي وهي تقهقه :

— « أنا أحب أن أرجع يوماً من الايام وأقضي ليلة أخرى في ذلك الفندق . لقد سررتُ سروراً عظيماً تلك الليلة . ولقد سعدت بالبقاء هناك تلك الساعات القليلة . إنهم يعرفون ، من غير شك ، كيف يعاملون النساء معاملة جيدة . »

وارجأوا العودة إلى فولر ريثما يحترق السنديان الاسود . وحالت الاوراق اليابسة رماداً ، وخمدت النار . لقد أبى البلوط القزم أن يشتعل .

وجمع جيتر ركاماً أكبر من الاوراق الميتة ، وأضرم فيه النار وراح يلقي بالعيدان فوقه . واشتعلت النار في اتقاد ، طوال دقائق معدودة ، ثم خبت تحت ثقل الحطب الاخضر .

ووقف جيتر مكتئباً محزون الفؤاد بعد أن عجز عن إشعال السنديان الاسود . ثم ان ديود أخرج من خزان السيارة مقداراً من البنزين وصبه على ركام الحطب . فاندلعت منه نار هائلة ارتفعت عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً في الفضاء . وما هي إلا فترة حتى خمدت تلك النار أيضاً ، تاركةً كومة من العيدان المسودّة ، في القناة .

وقال جيتر وهو يركب السيارة :

— « حسناً ، أظنّ ان هذا كل ما أستطيع ان أعمله لذلك السنديان الاسود الملعون . والذي يظهر انه ليس هناك وسيلة

للتخلص من هذا الحطب القذر . إنه يرفض أن يُباع ، ويرفض أن يشتعل . ويبدو لي ان الشيطان يقبع في داخله . »

وانطلقوا بسيارتهم وسط تيار من الغبار الأصفر ، ليقتربوا وشيكاً من طريق التبغ . وخفف ديود السرعة عبر الرمل الأبيض العميق ، قارعاً الزمور طوال الطريق إلى المنزل .

١٧

وبعد أن عاد جيتر من أوغوستا ، وضع مشروع رحلة بالسيارة إلى مقاطعة بورك ، ليرى ابنه توم . فمن الاشياء التي كان قد سمعها على لسان كثيرين ممن كانوا في ذلك القسم من البلاد عرف ان توم كان يملك مصنعاً ناجحاً للعوارض الخشبية التي تُصطنع في دعم الخطوط الحديدية . ذلك بأن اولئك الذين حملتهم أعمالهم إلى مواضع قريبة من مصنع العوارض الخشبية هذا رجعوا إلى فولر وأخبروا ديود أن توم يكسب من المال مقداراً أعظم مما يكسبه أيّ رجل من معارفهم . وكان جيتر فخوراً بتوم بقدر ما كان فخوراً بديود تقريباً .

ولم يُعرف عن توم ليستر ، باستثناء ذلك ، غير نزر يسير . وكان هذا أحدَ الأسباب التي حملت جيتر على التفكير بالسفر إلى هناك . لقد أراد ان يعرف كم كان توم يكسب ، قبل كل شيء ، وأراد أن يسأل توم ، بعد ذلك ، أن يقدم اليه مقداراً من المال كل أسبوع .

ولم يكن ديود وبيسي راغبين هما أيضاً في البقاء في المنزل ما دامت السيارة قادرة على الانطلاق . فالرحلة إلى أوغوستا

لم تُخمد حماستهما لركوب السيارة أكثر مما أخمدت حماسة جيتّر . ونتوء المحور الأمامي ، وتشقق الحجاب الزجاجي الواقي ، وانجراح دهان الهيكل ، وانتشار الثقوب في الوسائد ، وبيع الدولاب الخامس – كل اولئك لم تُعتبر غير مخاطر عادية يتعرض لها كل من يقود سيارة . وكان انسحاق الحائل الأمامي وانكسار النابض الخلفي قد خففا من قلق كل امرئ منهم على السيارة . فبعد الحادث الأول الذي وقع لهم ، عندما صدم ديود مؤخرة عربة ذات حصانين قرب ماك كوي وقتل الزنجي ، لم يعد اىما أذىً تصاب بـه السيارة يقضّ مضاجعهم كثيراً .

وفي صباح اليوم التالي أشار جيتّر اشارةً عرضية إلى انه شديد الرغبة في السفر إلى مقاطعة بورك لرؤية توم .

وكان ديود يملأ ، في تلك اللحظة ، جهاز التبريد ، فما كان منه إلا أن كفّ عن ذلك ليسمع أيّ شيء ستقوله بيسي . ولكنها لم تقل شيئاً ، فتناول ديود الدلو ، كرةً أخرى ، وملأ جهاز التبريد حتى لقد فاض الماء من جنباته . وابتعد جيتّر قليلاً لكي يتيح لبيسي فرصة التفكير . ومضى نحو مؤخر البيت وكأنما كان يريد أن يحتجب عن البصر ريثما تقرر بيسي نهائياً ما إذا كانت تريد الذهاب أم لا . ولم يُمعن جيتّر في الابتعاد إلى حد يحول بينه وبين إبقاء عينه على السيارة . فقد كانت بيسي جديرة بأن تعمل كل شيء عندما يدير هو ظهره ، وما كان يريد ان يراهما ينطلقان ويخلّفاه في المنزل .

وهمست بيسي ، باهتياج ، في أذن ديود ، دافعةً إياه إلى السيارة :

— « إصعد ولنذهب في سرعة ، يا ديود . عجّل قبل ان يرانا أبوك . »

كان جيتر واقفاً قرب البئر مستغرقاً في النظر إلى المدى البعيد عبر غيضة الرتم ، فلم يعرف أنهما كانا يستعدان للسفر وحدهما .

حتى إذا سمع ديود يدير المحرك ، اندفع نحو السيارة . ولكن ديود كان قد أعمل ناقلَ السرعة فاجتازت السيارة ، كالسّهم ، فِناء الدار ، متجهة نحو طريق التبغ .

وكان قد فتل الدولابين الاماميين فتلاً عنيفاً ، مستديراً حول شجرات الازدرخت وارتطم بالخندق واثباً فوقه من غير ان يخفف السرعة . وإنما تمّ ذلك كله في بضع ثوانٍ ، فلم يكن في ميسور جيتر ان يلحق بهما إلى الطريق . فوقف في مكانه وانشأ يراقبهما .

وقال :

— « حسناً ، أنا لم أرَ مثل هذا من قبل . ولست أدري لماذا يريدان أن يفرّا ويتركاني هنا . لقد عاملت بيسي دائماً في اخلاص وعدل . يبدو ان الرجل حين يشيخ ، يظن الناس انه لا يبالي بركوب السيارات ، فهم يذهبون ويتركونه في المنزل . »

وظل واقفاً يراقبهما حتى غابت السيارة عن البصر . ووقفت إيدا وإللي ماي على السقيفة الامامية ونظرتا إلى السيارة المختفية . لقد هرعتا إلى الباب حالما سمعتا هدير المحرك . وكانت كل منهما راغبةً في الذهاب إلى مكان ما ، أيضاً . فمنذ ان اشتريت تلك السيارة الجديدة لم يُسمح لهما بالتمتع بركوبها .

وحمل جيتر كرسياً إلى السقيفة الأمامية ، وقعد عليها منتظراً عودة ديود وبيسي . كان عابساً صامتاً طوال النهار . وحين حان وقت الطعام ، ودعته إيدا إلى أن يذهب إلى المطبخ ويأكل شيئاً من الجبن والبسكويت ، لم يتزحزح من كرسيه . وانقلبت إيدا إلى البيت من غير أن تلحّ عليه في ذلك . فقد كان الطعام الذي لديها قليلاً إلى درجة جعلتها سعيدة بعدم تلبيته دعوتها . كانت بقية الجبن والبسكويت التي رجع بها من أوغوستا لا تكاد تسدّ جوع شخص أو شخصين ، وإذ أبى جيتر ان يغادر السقيفة فسوف يكون في استطاعتها ، هي وإللي ماي ، ان تنالا نصيباً أكبر . أما الجدة العجوز ، فلم تجشّما نفسيهما عناء دعوتها إلى الطعام لأنهما كانتا عازمتين على إعطائها قشر الجبن وفتات البسكويت المتبقي عنهما . وكان من دأب جيتر ان يأكل دائماً في سرعة بالغة غير ممكّنٍ أحداً من ان ينال نصيبه من الطعام كاملاً . كان يأكل وكأنما كانت هي آخر مرة سوف يُقدّر له فيها أن يذوق طعاماً منذ اليوم .

وجلست إيدا وإللي ماي لتناول الطعام ، تاركين جيتر وحده.

وفي ساعة متأخرة من ذلك الاصيل رجعت بيسي وديود إلى المنزل ، فوجدا جيتر لا يزال ينتظرهما على الشرفة . حتى إذا أمسيا على مقربة منه نهض وتبع السيارة إلى موضعها قرب المدخنة . كان مغضباً أشدّ الغضب ، ولكنه ما لبث ان نسي كل شيء في الحال . كان يريد أن يعرف ما إذا وجدا توم أم لا .

وسأل بيسي :

— « هل رأيتِ توم ؟ ماذا كان يعمل ؟ هل بعث إلي

بشيء من المال ؟ »

وأقبلت إيدا لتسمع . واتخذت الجدة العجوز مكانها المألوف خلف احدى شجرات الأزدرخت ، فهي تنظر وتسمع . أما اللي ماي فاتخذت لها موقفاً أقرب .

وقالت بيسي وهي تهز رأسها :

— « لم يكن توم كما كان في السابق يوم عرفته معرفةً أحسن . أنا لا أدري ما الذي أصاب توم . »

فسألها جيتر :

— « لماذا ؟ لماذا فعل ذلك ؟ — ماذا قال ؟ أين المال الذي بعثه إليّ ؟ »

— « توم لم يرسل اليك شيئاً من المال . وليس يبدو انه يعتزم ان يمدّ اليك يد المساعدة مطلقاً . ان توم ولد رديء . »

فقال جيتر :

— « كان ينبغي أن تأخذيني معكِ إلى هناك ، يا بيسي . أنا أعرف توم أحسن مما أعرف نفسي . كان ابني المفضل دائماً . وكنت أنا وهو متفاهمين تفاهماً تاماً . كان سائر أولادي يتقاتلون معي دائماً ، ولكن توم لم يفعل ذلك في يوم من الايام . كان ولداً لطيفاً وهو صغير . »

وسمعت بيسي إلى كلام جيتر ، ولكنها لم ترد أن تناقشه في أمر ذهابهما وحدهما وتركه في المنزل . لقد قضي الأمر الآن . فالرحلة قد انتهت ، وها هما قد رجعا .

وقال جيتر :

— « لماذا لم تأخذاني معكما لأرى توم ؟ »

فقال ديود ، وقد ترك عدد الثيران العاملة في مصنع أخيه

اثراً كبيراً في نفسه :

— « توم يشغّل مئة ثور تقريباً . لم أكن أعرف ان هناك مثل هذا العدد من الثيران في البلاد كلها . »

وتساءل جيتّر :

— « ومتى قال توم إنه سوف يأتي إلى هنا ليراني ؟ »

فقال ديود :

— « لقد قال توم إنه لن يأتي إلى هنا مطلقاً . ولقد أخبرني ان أقول لك انه سوف يبقى حيث هو الآن . »

فقال جيتّر وهو يهز رأسه :

— « من المؤكد أن توم لا يقول كلاماً مثل هذا . لعل عنده شغلاً كثيراً لا يمكّنه من مغادرة المصنع . »

فقالت بيسي :

— « ليس الامر كذلك . لقد قال توم نفس الكلام الذي نقله اليك ديود . قال إنه لن يأتي إلى هنا مطلقاً . إنه لا يريد . »

— « توم لا يقول كلاماً مثل هذا . فأنا وتوم كنا دائماً على اتفاق كامل حول كل شيء . ولم أقع أنا وهو ، في يوم من الأيام ، في متاعب كالتي كنت أعانيها مع سائر أولادي . كانوا يرشقونني بالحجارة ، ويضربونني على رأسي بالعصيّ ، ولكن توم لم يفعل شيئاً من ذلك قط . كان توم دائماً ولداً ممتازاً عندما كان هنا . وليس هناك سبب يحمله على أن يتغيّر ، الآن ، ويصبح مثل بقية أولادي . »

فقالت بيسي :

— « لقد أخبرته بالفقر الذي تعانيه أنت وأمه . أخبرته ان ليس عندكم لا طحين ولا لحم ، في معظم الايام ، وانه لم

يعد في استطاعتكم ان تزرعوا الارض بعد اليوم ، فقال ان عليك وعلى إيدا أن تذهبا إلى مأوى العجزة ، في المقاطعة ، وتنزلا فيه . »

— « لقد أخطأتِ في إخبار توم اني لن ازرع الارض بعد اليوم . سوف أزرع محصولاً كبيراً من القطن هـذا العـام إذا استطعت الحصول على شيء من بزر القطن وسماد الطير . ولكن سائر ما قلتِـهِ له صحيح على كل حال . إننا نجوع معظم الوقت. هذه ليست كذبة على الاطلاق . »

— « مهما يكن ، فهذا هو الشيء الذي قلته . لقد قال لي ان أخبرك وأخبر إيدا أن تذهبا إلى مأوى العجزة في المقاطعة وتقيما هناك . »

— « هذا كلام لا يقوله توم ، من غير شك . إن توم لم يقل لي شيئاً مثل هذا من قبل . ولست أفهم لماذا يريدني ان أذهب أنا وأمه ، إلى مأوى العجزة . يخيّل لي ان من الأفضل ان يبعث إليّ ببعض الدراهم ، بدلاً من ذلك . فأنا أبوه . »

فقالت :

— « أظن ان ذلك لا يقدم أو يؤخر عند توم الآن . إنه لا يفكر إلا في نفسه . »

— « كم أتمنى لو أرجع شاباً ! إذن ، لما سألت أحداً ان يعطيني فلساً ، حتى ولو كان ابني الذي من لحمي ودمي . ولكن توم لم يعد كما كان . لقد اعتقدت انه سيبعث إليّ وإلى أمـه بشيء من المال . »

وقال ديود لجيتر :

— « قال لي توم ان أقول لك ان تذهب إلى الجحيم، أيضاً . »

وونبت بيسي إلى أمام ، وأمسكت بخناق ديود ، وهزته حتّى لقد بدا وكأن رأسه سوف ينفصل عن جسده ويقع على الارض . وما زالت تهزه حتى وُفّق إلى الافلات من قبضتها .

وصرخت في وجه ديود :

— « ما كان ينبغي أن تخبر جيتر ذلك . هذا شيء لا يجوز ان يقال . وأنا لا أعرف إثماً أكبر من هذا الاثم . ان الشيطان يحاول ان يبعدك عني لكي لا أستطيع ان أجعل منك مبشراً . »

وصاح في وجهها :

— « وحقّ المسيح الكلّي القدرة ، انتِ على وشك ان تخنقيني ! أنا لم أقل ذلك — توم هو الذي قاله . لقد كنت أخبره بالذي قاله توم ، لا أكثر ولا أقل . أنا لم أقله ! يجب ان تبتعدي عني . أنا لم أعمل لكِ شيئاً . »

فقالت بيسي :

— « المجد للرب . انك لن تصبح مبشراً في يوم من الأيام إذا تكلمت هكذا . لقد ظننت انك وعدتني بأن لا تلعن وتجدّف بعد اليوم . لماذا لا تقلع عن ذلك ؟ »

فتوسل اليها ديود ، وقد تذكّر ان السيارة هي ملكها :

— « لن أعود إلى مثل هذا أبداً . وما كان من الممكن ان يزلّ لساني هذه المرة لو لم تهزي رقبتي هزاً عنيفاً مؤذياً . »

ومشى جيتر حول السيارة ، محاولاً ان يجلو عن نفسه أثر الصدمة التي أصيب بها اثر سماعه ما نقله ديود من كلام توم . فلم يكن في ميسوره ان يصدّق ان توم قد انقلب إلى رجل يقول لأبيه : اذهب إلى الجحيم . وأدرك ان توم لا بدّ قد تغيّر تغيراً كبيراً منذ فارق المنزل .

ووقف عند مؤخرة السيارة ، وراح ينظر إلى الكلابة التي كانت تمسك بدولاب التبديل ، فرأى انبعاجاً خطيراً في هيكل السيارة . وظلّ يحدّق إلى ذلك الموضع حتى كفّ ديود وبيسي عن الكلام .

كانت بيسي تقول :

— « لن تستطيع ان تلقي خطبة تبشيرية ، في الأحد القادم، إذا جدّفت هكذا . إن الصالحين من النـــاس لا يريدون ان يرسل الله المواعظ اليهم على ألسنة مبشرين يلعنون ويجدّفون . »

— « لن أقول ذلك بعد اليوم . لن أجدّف بعد اليوم . »

ودعاهما جيتر إلى الاقتراب من مؤخرة السيارة ، وأشار إلى الاذى الذي أصاب الهيكل . كان في وسطه انبعاج يبلغ عمقه عشرة إنشات أو اثني عشر إنشاً ، ويقسم الهيكل إلى نصفين شبه متساويين .

وتساءل جيتر وهو لا يزال يومىء إلى موضع الاصابة :

— « من فعل هذا ؟ »

فأجابته بيسي في تردد :

— « كنا نرتدّ إلى الوراء عائدين من مصنع توم عندمـــا اصطدمنا فجأةً بشجرة صنوبر كبيرة . ولست أدري ما الذي أدى إلى ذلك . يبدو وكأن كلّ شيء يعمل على إتلاف سيارتي الجديدة . إنها لم تعد تشبه ، مطلقاً ، ما كانت عليه يوم اشتريتها من فولر بثمانمئة دولار في مطلع هذا الاسبوع . »

وأمرّ ديود يده فوق الهيكل المنبعج . فتساقط الدهان المتشقق على الرمل الابيض . لقد حاول ان يجعل الانبعاج يبدو أصغر مما هو بأن أخذ يفركه ويسويه .

فقال جيتر :

— « ولكنّ هذا لا يعطل سيرها ، أليس كذلك ؟ ان هيكلها هو الذي انبعج ، لا أكثر . وهي لا تزال تمشي مشياً حسناً ، أليس كذلك ؟ »

فقالت بيسي :

— « أظن ذلك . ولكنها تُطلع ضجةً كبيرة جداً وهي تهبط التلال — وتصعد في التلال أيضاً . »

واقتربت إيدا من السيارة ، وألقت نظرة على هيكلها المنبعج . ثم أمرّت يديها عليه وأنشأت تفركه حتى تساقط مزيدٌ من الدهان المتشقق على الرمل الابيض ، عند قدميها .

والتفتت إلى بيسي وسألتها :

— « كيف يبدو توم الآن ؟ أنا أظن انّ هيئته لم تكن كما كانت من قبل . »

فأجابتها :

— « إنه يشبه جيتر كثيراً . وليس هناك أيّ شبه بينكِ وبينه . »

فقالت إيدا :

— « همْمْمْ ! لقد جاء وقتٌ أعلنتُ فيه عكس ذلك تماماً . »

ونظر جيتر إلى إيدا ، ثم إلى بيسي . إنه لم يستطع أن يفهم عمّ كانت إيدا تتحدث .

وقال جيتر :

— « ماذا قال توم عندما أخبرتماه انكِ انتِ وديود صرتما زوجين ؟ »

— « إنه لم يقل شيئاً . لقد بدا لي أنه لا يبالي بذلك على الاطلاق . »

فقال ديود :

— « لقد قال إنها كانت امرأة قذرة تُشترى بخمسة وعشرين سنتاً عندما عرفها منذ زمن طويل . لقد قال ذلك لها مباشرةً ، ولكنها لم تقل شيئاً . وأظن أنه كان يعرف ما يقول ، لأنها لم تقل ان ذلك كذب ... »

وأمسكت الاخت بيسي بخناق ديود ، كرةً أخرى . وهزته هزاً عنيفاً . ووقف جيتر وإيدا إلى جانبهما يشهدان المشادة . وكانت إللي ماي قـد سمعت كل شيء ، ولكنها ظلت في مكانها ولم تقترب أكثر .

وأفلت ديود من بين يدي بيسي بأسرع مما فعل في المرة الاولى . لقد تعلم كيف يفر منها في مزيد من اليسر .

وصاح ضارباً وجهها بجمع يده :

— « لعنة الله عليكِ ! لماذا لا تظلين بعيدةً عني ؟ »

فتوسلت اليه بيسي في رقة :

— « والآن ، يا ديود لقدوعدتني بأن لا تجدف بعد اليوم . إن أهل الله الصالحين لا يريدون أن يذهبوا ويسمعوا إلى موعظة يتلوها عليهم مبشر مجدّف . »

وهز ديود كتفيه ، ومضى لسبيله . لقد أخذ يضيق بهجوم بيسي عليه وأخذها بخناقه كلما قال شيئاً لا تريد سماعه .

وسألها جيتر :

— « متى سيصبح ديود مبشراً ؟ »

— « سوف يلقي موعظة صغيرة ، يوم الاحد القادم ، في قاعة المدرسة . لقد بدأت أعلّمه ما الذي يجب ان يقوله حين يبشر . »

فقال جيتر :

— « يخيّل إليّ انّ عليه ان يعرف ذلك بنفسه معرفة جيدة.

وليس عليكِ ان تعلّميه كل ما يجب أن يعمله ، أليس كذلك ؟ ألا يعرف شيئاً ؟ »

— « حسناً ، إنه لم يألف التبشير كما الفتهُ . أنا ألقنه ما يجب ان يقوله وهو يتعلّم كيف يقوله بنفسه . ولن تنقضي فترة طويلة حتى يفهم كل شيء ، وعندئذ أكفّ عن تعليمه . لقد قال لي زوجي السابق ما يجب ان أقوله ، في ليلة سبت ، وفي أصيل اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وألقيت موعظة استغرقت ثلاث ساعات تقريباً من غير انقطاع . إنها ليست مهمة عسيرة إذا فهمتها . ولقد حدثني ديود عن الموضوع الذي ستدور عليه موعظته ، يوم الاحد . وهو يعرف الآن ما الذي يجب ان يقوله في الموعد المقرر . »

— « ما الموضوع الذي سيبحثه في خطبته التبشيرية ؟ »

— « سيتحدث عن الرجال الذين يلبسون قمصاناً سوداء . »

— « قمصان سوداء ؟ ولماذا ؟ »

— « إسأله أنت . إنه يعرف . »

— « القمصان السوداء ، ليست في اعتقادي ، موضوعاً صالحاً لموعظة دينية . أنا لم أسمع بمثل هذا من قبل . »

— « تعال إلى قاعة المدرسة ، بعد ظهر الأحد ، تسمع الموعظة وتدرك الموضوع الذي تدور حوله . »

— « هل يعتزم ان يبشر مع القمصان السوداء ، أم ضد القمصان السود ؟ »

— « ضدها . »

— « ولماذا أيتها الاخت بيسي ؟ »

— « ليس من واجبي ان أحدثك عن مواعظ ديود . يجب

عليك ان تذهب بنفسك إلى قاعة المدرسة وتستمع . إن المبشرين لا يحبون أن تنتشر أسرارهم في طول البلاد وعرضها سلفاً . لأنهم ان فعلوا ذلك لما تجشّم أحد عناء الذهاب والاستماع اليهم . »

— « قد لا أعرف شيئاً عن التبشير ، ولكني لم أسمع قبل اليوم ان مبشراً تحدّث في موعظته عن الرجال اللابسين قمصاناً سوداء ... مهاجماً هذه القمصان . وأنا لم أرَ أيّ إنسان لابساً قميصاً سوداء ، على كل حال . »

— « على المبشرين ان ينفّروا في مواعظهم من شيء . وليس لهم أي مصلحة في ان يبشروا بشيء من الاشياء . يجب ان يكونوا ضد أمرٍ من الامور ، دائماً . »

فقال جيتر :

— « أنا لم أفهم المسألة على هذا الشكل من قبل . ولكنْ قد يكون في ما قلتِهِ كثير من الصواب . ومع ذلك ، خذي مثلاً الرب والجنة — انتِ لا تستطيعين ان تنفّري الناس منهما ، أليس كذلك أيتها الاختَ بيسي ؟ »

— « المبشرون الصالحون لا يبشرون بالله والجنة وأشياء من هذا القبيل . إنهم يرهّبون الناس دائماً من شيء من الاشياء ، كالجحيم والشيطان . تلك هي الامور التي ينبغي ان يكونوا ضدها . والتبشير بالله لا يعود على المبشر بأي نفع . يجب عليه ان ينفّر الناس من الشيطان وجميع الاشياء الشريرة الآثمة ويرهّبهم منها . ذلك ما يحب الناس أن يسمعوه من أفواه المبشرين. إنهم يريدون من الوعاظ ان يحدثوهم عن الاشياءالرديئة. »

فقال جيتر :

— « أنتِ من غير شك امرأة قوية الحجة ، أيتها الاخت



بيسي . وينبغي ان يكون الرب فخوراً بأن تعمل تحت رايته مبشرةٌ مثلكِ . ولكني لا أعرف ما سيكون رأيه في ديود ، وخاصة حين يأخذ في التبشير ضد الرجال اللابسين قمصاناً سوداء . أنا لم أرَ في حياتي كلها رجلاً يلبس قميصاً أسود، على كل حال ، ولستُ أظنّ ان شيئاً مثل هذا موجود في البلاد . »

وانحنى جيتر وراح يفرك جانب السيارة المنبعج بيديه ؛ وقشرَ الدهان الظاهري باظافره حتّى تساقط معظمه على الارض.

وقالت بيسي :

— « متى ستنتهي من اللعب بسيارتي ؟ أليس عندك فهم على الاطلاق ؟ لقد نزعتَ أنت وإيدا بأعمالكما هذه جميع الدهان عنها تقريباً . »

فسألها جيتر :

— « بيسي ، أنتِ لا تتحدثين معي بهذه اللهجة ، أليس كذلك ؟ أنا لم اؤذِ سيارتكِ أكثر مما آذاها الاصطدام بشجرة الصنوبر . »

— « حسناً ، أبعِدْ يديك عنها ، على كل حال . »

وابتعد جيتر ، فاستند إلى زاوية البيت ونظر إلى بيسي نظرة مغضبة ، ولكنه لم يقل شيئاً .

وقالت بيسي :

— « كدت أُتلف سيارتي الجديدة نتيجةً لسماحي لك بالعبث بها . كان يجب ان أكون أعقل من أن أدعك تقترب منها . ان نقل حمل السنديان الاسود إلى أوغوستا قد مزّق المقعد الخلفي تمزيقاً كبيراً . »

فسألها وقد وقف منتصب القامة عند زاوية المنزل :

— « تنوين أن لا تسمحي لي بركوبها على الاطلاق ؟ »

— « لا يا سيدي ! أنت لن تركب في سيارتي الجديدة بعد اليوم . هذا هو السبب الذي جعلني لا آخذك معي لترى توم هذا الصباح ، وأنا أريد ان لا تقترب منها أيضاً . »

فقال جيتر وهو يحوّل ثقله عن إحدى قدميه إلى الأخرى ، جاذباً الالواح الخشبية المتهرئة من خلفه :

— « وحقّ الرب وحق المسيح ، إذا كانت هذه نيتكِ ففي استطاعتكِ أن تغادري أرضي . أنا لستُ مرتاحاً جداً لوجودكِ هنا على كل حال . »

ولم تدرِ بيسي ما تقول . وتلفّتت تبحث عن ديود ، ولكنها لم تجده .

— « تريد أن تطردني ؟ »

— « لقد بدأتُ بذلكَ فعلاً . لقد قلتُ لكِ الآن أن تخرجي من أرضي . »

— « انها ليست ملكك . إنها أرض الكابتن جون . انه هو صاحبها . »

— « إنها ملك ليستر القديم . وليس للكابتن جون حقوق في هذه الارض أكثر من أيّ انسان آخر . إن جماعة الاغنياء المقيمين هناك في أوغوستا يأتون إلى هنا وينتزعون من الانسان كل ما يملكه ، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينتزعوا هذه الارض مني . وحقّ الاله وحق المسيح ، لقد كان أبي يملكها ، وكان أبو أبي من قبله ، ولسوف أبقى فيها ما دمت على قيد الحياة . ولكني أريد ان أطردكِ — أخرجي من هنا ! »

— « أنا وديود ليس عندنا مسكن نذهب اليه . لقد تهرأ سقف منزلي كله ، وأوشك أن يسقط . »

— « سيان عندي . أنا لا يهمني أين تذهبان . ولكنكما سوف تخرجان من هذه الارض . إذا لم تسمحا لي بركوب السيارة الجديدة عندما أشاء فلن أسمح لكما بالبقاء هنا . لقد تعبتُ من النظر إلى الثقبين القذرين اللذين في أنفكِ ، على كل حال . »

فصاحت بيسي وقد هجمت عليه وراحت تخدش وجهه بأظافرها :

— « يا ابن الساقطة ! أنت لستَ إلا ابن ساقطة قذر عجوز. واسأل الله أن يذهب بك إلى جهنم مباشرةً ، ولا يسمح لك بالخروج منها على الاطلاق ! »

وحين سمعت إيدا صياح بيسي ، أقبلت تركض حول زاوية البيت . فما إن رأت إلى وجه جيتر الدامي حتى اجتاحتها عاصفة من حنق لا يقاوم . فراحت تضرب بيسي بجمع كفيها ، وترفسها بقدميها .

وأقبل ديود يعدو أيضاً . ثم وقف يشهد المعركة فيما كان ثلاثتهم يتضاربون ويخدش بعضهم وجوه بعض. وابتسمت إللي ماي من وراء احدى شجرات الازدرخت .

وانسحبت بيسي . كانت إيدا وجيتر قد اجتمعا على ضربها، ولم يكن في ميسورها ان تقاوم . وانطلقت نحو السيارة ووثبت اليها . وتناول جيتر إحدى العصي وراح يضربها بها عدة مرات قبل ان تنتزعها إيدا منه وتشرع في وكز أضلاع بيسي بها . والواقع ان طرف العصا الحادّ آذاها أكثر مما آذتها

ضربات جيتر على الرأس والكتفين ، فصاحت من الألم صياحاً شديداً .

وأقبلت كلٌ من إللي ماي والجدة العجوز من وراء شجرتي الازدرخت وشهدت كل ما كان جارياً .

ووثب ديود إلى السيارة وارتدّ بها نحو الطريق بأسرع ما يستطيع . لقد آثر الانضمام إلى جانب الاخت بيسي . ذلك بأنه كان يحب ان يقود احدى السيارات حباً عظيماً جعله لا يتركها تمضي لسبيلها بسببٍ من مشادة صغيرة كهذه .

وركضت الجدة العجوز ، التي كانت تراقب المعركة منذ البدء ، عبر الفناء لكي تختبىء خلف شجرة ازدرخت أخرى حيث تستطيع أن ترى ما الذي كان يجري ، على نحو أفضل . ولم تكد تنتهي إلى نقطة متوسطة ما بين شجرتي ازدرخت حتى صدمتها مؤخرة السيارة ، فطرحتها أرضاً ، وجرت فوقها .

وأطلّت بيسي من السيارة ، هازةً قبضتيها ، ساخرةً من إيدا وجيتر . ولحق الاثنان بالسيارة حتى طريق التبغ .

وصاحت بيسي بأعلى صوتها الجهوري :

— « كلكم يا أبناء ليستر أولاد زنا قذرون ! »

وتناولت إيدا صخرة كبيرة وقذفتها إلى السيارة أقوى ما تستطيع القذف . ولكن بيسي وديود كانا قد ابتعدا بضع مئات من الأميال ، فلم تنتهِ صخرة إيدا إلى أبعد من ثلاثة أرباع المسافة ، وبذلك سقطت دون الغاية . وكان عليها ان تدرك انها عاجزة عن قذف مثل هذه الصخرة الكبيرة . لقد كانت في حجم غطاء الموقد .

١٨

وبعد ان خمد ثائر الغبار ، انقلبت إيدا وجيتّر إلى الفِناء . وكانت الجدة لا تزال منطرحةً هناك ، وقد رُضّ وجهها وعُفّر بالرمل الأبيض القاسي . ومن زاوية المنزل رأت إللي ماي إلى ما حدث .

وتساءلت إيدا وهي تنظر إلى جيتّر :

— « هل ماتت ؟ إنها لا تُطلع صوتاً ، ولا تتحرك . ولا أظن انها ستبقى حيةً ما دام وجهها قد رُضّ على هذه الصورة . »

ولم يجبها جيتّر بكلمة . كان مستغرقاً في التفكير بكراهيته لبيسي إلى درجة جعلته لا يبالي بشيء . ثم إنه ألقى نظرةً أخرى على أمه ومضى عبر الفِناء واحتجب عن الابصار خلف المنزل . وتقدمت إيدا نحو الشرفة ، ووقفت هناك ملتفتةً إلى الجدة بضع دقائق ، ثم تابعت سبيلها ، وأوصدت الباب .

وحاولت ام جيتّر أن تستدير لكي تتمكن من النهوض

والذهاب إلى المنزل . ولم تستطع أن تحرك يديها أو رجليها من غير ألم لا سبيل إلى احتماله ، واستشعرت وكأن رأسها قد فُلق فلقاً . كانت السيارة قد صدمتها في قوة جعلتها لا تدري بأيّ شيء ارتطمت . وكان الدولابان اليساريان قد دارا فوقها ، احدهما عبرَ طرفها ، والآخر على رأسها . ولم تدرِ ما الذي أصابها . ولكنها كانت ترجو قبل كل شيء ان توفق إلى النهوض والاستلقاء على سريرها . وبذلت جهداً أخيراً لرفع رأسها وكتفيها عن الرمل الصلب ، وحاولت ان تستدير ، وبعد ذلك انطرحت وليس فيها حراك .

وحين انتهى جيتر من تجرّع شربة من الماء ، عند البئر ، تقدّم نحو غيضة الرتم ، رافساً الارض بأصابع رجليه ليرى مقدار جفافها . كان يعتقد ان الارض كانت على رطوبة ملائمة للحراثة ، ولكنه أراد أن يستوثق من ذلك لأنه كان على يقين من انه قادر على ان يستعير بغلاً من مكانٍ ما ، ويشرع في حرث الارض وزرعها في مطلع الاسبوع التالي .

وفيما كان جيتر يمشي حول شجرات الرتم المرتفعة ارتفاع خصر الانسان ، ركض لوف على طريق التبغ ، لاهثاً وليس على رأسه قبعة . ولم يكد يبلغ الفناء الامامي حتى صاح منادياً جيتر ، فهرع هذا من مجتمع الرتم ليلقاه ، وليستطلع حقيقة البلاء .

كان لوف مرتدياً وزرته القذرة السوداء ، تلك الوزرة التي اعتاد لبسها في المستودع حين يجرف الفحم . وكانت قبعته قد طارت عن رأسه حين أقبل يعدو إلى بيت جيتر فلم يشأ أن يضيّع الوقت في الارتداد والبحث عنها . وكان شعر لوف

الاحمر الناري قد قفّ من الذعر ، وكان في العادة يتدلى على جبينه ويغشى عينيه .

وبصر بالجدة العجوز منطرحة في الفِناء ، فتمهّل ليرى اليها ، ولكنه لم يُطل الوقوف ، بل استأنف العدو حتى انتهى إلى جيتر .

وقال جيتر :

— « ماذا تعمل هنا في هذه الفترة من النهار ، يا لوف ؟ لماذا تركتَ العمل في مستودع الفحم ؟ »

وصمت لوف بضع دقائق . كان مضطراً إلى الانتظار حتى يستعيد أنفاسه المبهورة ، فقعد على الارض ، وجلس جيتر القرفصاء إلى جانبه .

ولم يكونا بعيدين عن البئر . وكانت إللي ماي واقفة قرب البئر تشرب من الدلو عندما التقى لوف عمه ، ولكنها لم تفرّ في الحال . لقد انتظرت حتى قعد لوف ، وهكذا كان في استطاعتها ان تسمع ما الذي كان يريد أن يقوله لجيتر .

وسأله جيتر :

— « ما القصة يا لوف ؟ ما الذي حصل في مستودع الفحم حتى ركضت إلى هنا بمثل هذه السرعة ؟ »

— « بيرل — بيرل — لقد هربت ! »

فقال جيتر في رباطة جأش ، وقد ساءه أن لا يكون الخبر أكثر إمتاعاً :

— « هربتْ ، إلى أين هربت بيرل ، يا لوف ؟ »

— « هربت إلى أوغوستا ! »



فقال جيتر متصدراً :

— « ذهبت إلى أوغوستا ؟ ظننتُ انها اكتفت بالذهاب إلى الغابة لتقضي فترةً قصيرة هناك ، كما تعوّدتْ أن تفعل دائماً . هل تعرف لماذا فرّت إلى أوغوستا ؟ »

فقال لوف :

— « لست أدري . ولكني اظن انها فرّت والسلام . ولا أعرف سبباً آخر لذلك . فأنا لم أؤذها هذا الصباح ، ولم أعمل لها شيئاً . كل ما عملته أني ألقيتها على السرير ، فتملّصت من بين يديّ ولم أرها منذ ذلك الحين . »

— « ماذا كنت تحاول ان تعمل لها ؟ »

— « لا شيء . كنت أحاول ان أربطها ببعض الحبال لأرى ما إذا كنت أستطيع ذلك ، ليس غير . فقد تصورت انها ستبقى في السرير إذا شددتها اليه . وكنت أعتزم ان أفك وثاقها في أقرب وقت . »

— « كيف عرفت أنها فرت إلى اوغوستا ؟ لقد ذهبت إلى مكانٍ ما في الغابة ، لا أكثر . هل أخبرتك هي انها عازمة على الفرار إلى أوغوستا ؟ »

— « انها لم تقل لي شيئاً . »

— « واذن فما الذي يحملك على الاعتقاد بأنها ذهبت إلى هناك لا إلى مكانٍ ما في الغابة ؟ »

— « أنا لم أعرف شيئاً عن فرارها إلا بعد ان جاء جونز بيبودي إلى مستودع الفحم وأخبرني انه لقيها قرب أوغوستا وهو عائد إلى فولر بسيارة شحن فارغة . لقد قال لي انه وقف وسألها إلى أين كانت ذاهبة ، وما إذا كنتُ أعرف انها قد

غادرت المنزل ولكنها لم تجبه بكلمة . لقد قال إنها بدت مذعورة حتى الموت . وعندئذ جاء في الحال وأخبرني بالامر ، قائلاً إنه يعرف انني لا أعلم شيئاً عن الحادث . »

فقال جيتر وهو يفرقع أصابعه ، ويردّ رأسه إلى جانب :

— « كانت بيرل مثل ليزي بيلّ تماماً . فقد ذهبت ليزي بيلّ إلى أوغوستا هكذا . ولم أعرف شيئاً عن الحادث إلا بعد ان رأيتها مرةً في أحد الشوارع هناك . فسألتها ما الذي حملها على الفرار من غير ان تحدّث أمها وتحدّثني في ذلك ، ولكنها لم تجب بكلمة . وكنت أظن انها قصدت إلى الغابة لتقضي فترة هناك ولكني عرفت انها ليزي بيلّ حالما نظرت اليها . كانت ترتدي ثوباً على الزي الحديث وقبعة ، ولكن الثوب والقبعة لم يتمكنا من خداعي . لقد عرفت انها ليزي بيلّ ، حتى بعد ان رفضت التكلم معي . كانت تعمل طول تلك المدة في مصنع من مصانع القطن على الضفة الاخرى من النهر ، وبعد ذلك عرفت لماذا فرّت من المنزل ، لأن إيدا أخبرتني . لقد قالت لي إيدا ان ليزي بيلّ تريد ان ترتدي ثوباً على الزي الحديث وقبعة ، ففرّت إلى هناك لتشتغل في احد مصانع القطن لكي تستطيع أن تشتري هذه الاشياء كلها بنفسها . »

فقال لوف :

— « بيرل لم تقل لي مطلقاً انها تريد فستاناً على الزي الحديث وقبعة . أنا أكسب في مستودع الفحم دولاراً واحداً يومياً ، ولقد كان في استطاعتي ان اشتري لها فستاناً وقبعة لو قالت لي انها تريدهما . ولكن بيرل لم تقل لي شيئاً في

يوم من الايام – إنهـا لم تقل شيئاً لأحـد من الناس . كانت تنام على الارض في حشية القشّ الملعونة تلك ، ولا تلبّي مطالبي كلما سألتها ان تعمل شيئاً اريدها ان تعمله . »

– « أظن ان أفضل شيء تستطيع ان تعمله يا لوف هو ان تتركها حيث هي . إنها لم تكن قانعة بالحياة هنا ، على طريق التبغ ، وإذا حاولتَ أن تعيدها إلى منزلك فلا شك في انها سوف تفرّ من جديد بسرعة مضاعفة . إنها مثل ليزي بيلّ ، وكلارا ، وسائر بناتي تماماً . أنا لا أستطيع ان أتذكر جميع اسمائهن الآن ، ولكنهنّ كنّ جميعاً مثل بعضهنّ . لقد أردن جميعاً فساتين على الطراز الحديث ، ولم تعجبهنّ ثياب الشيت الجميلة والثياب القطنية المخططة التي كانت أمهن تخيطها لهنّ . حسناً ، وإيدا ليست قـانعة أيضاً ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من هذه الناحية . انها لا تتحدث بعد اليوم عن شراء قبعة وفساتين على الزي الحديث ، باستثناء فستان تموت وهو عـلى جسدها ، وتدفن وهو على جسدها . إنهـا تتحدث عن فستان على الزي الحديث تموت فيه ، ولكنها لن تحصل عليه ، وهي تعرف انهـا لن تحصل عليه . سوف تموت وتدفن في التراب وهي لابسة ثوب الشيت الاصفر الذي ترتديه الآن . لقـد حلتُ بين إيدا وبين الفرار ، ولكني لم أستطع ان أفعل ذلك مع بنـاتي الصغيرات . فقـد كان هناك عدد كبير منهن يجعل الانسان عاجزاً عن اخضاعهن . وهكذا حملن أنفسهن وذهبن . »

وقال لوف :

– « لعلها تعود . هل تظن انها سوف تعود ، يا جيتر ؟ »

– « من – بيرل ؟ حسناً ، لو كنت في مكانك لمـا علقت

أيّ أمل عليها . لقـد هربت ليزي بيلّ ولم تعد في يوم من الايام . بل ان أياً من بنـاتي الباقيات لم تعد على الاطلاق . »

— « لست أدري لماذا ، ولكني لا أحب أن أخسرها على هذه الصورة . إنها فتاة صغيرة جميلة — كانت غدائرهـا الذهبية الطويلة المتدلية على ظهرها تجعلني دائماً أكره الساعة التي ستكبر فيها وتصبح عجوزاً . ولقد كنت أقعد على الشرفـة وأراقبها من خـلال النافذة وهي تمشط شعرها وتفرشيه في غرفة النوم . »

فقال جيتر :

— « من المؤكد ان ما تقوله صحيح . كان لبيرل أروع شعر ذهبي رأيته في حياتي . ومن العار ان تكون عندها تلك العادة التي تحملها على الانعزال دائماً ، لأني كنت أحب ان أبقيها أمامي . وكم أتمنى لو كانت إيدا جميلة إلى هذا الحد . ولكنها كانت ، حتى في صباها ، بشعةً إلى حد لعين جعلهـا خطيئة من الخطايا . أنا لم أرَ في حياتي امرأة أبشع منهـا في البلاد كلها ، باستثناء تلك المبشرة الملعونة ، بيسي . فهذان الثقبان القذران اللذان في وجهها لا يعودان على من ينظر اليهما بخير على الاطلاق . »

— « كانت بيرل دائماً تضيع وقتاً كثيراً في الزينة والتبرج ، كما تفعل النساء . وكنت أحب ان أقول لهـا انه ليس في البلاد كلها فتاة واحدة في مثل جمالها ، ولكنها ما كانت تصغي إليّ . ولقد عشت معها فترةً طويلة إلى درجة جعلتني أتعوّد رؤيتها كل يوم ، ولست أدري ما الذي سوف أفعله الآن بعد أن ذهبتْ إلى أوغوستا لتقيم فيها . سوف أفتقد تلك الغـدائر

الذهبية الطويلة المتدلية على ظهرها ، ووجهها الجميل أيضاً . وعلاوة على ذلك ، فأنا لا أعرف شيئاً أحلى من النظر إلى عينيها الزرقاوين الشاحبتين في الصباح الباكر ، قبل ان ترتفع الشمس ارتفاعاً يُلقي كثيراً من النور فيهما . كانت عيناها ، أجمل شيء يطمع المرء في أن يراه ، في الصباح الباكر . ولكنهما كانتا جميلتين في أيّ لحظة من أوقات النهار ، وفي بعض الاحيان كنت أجلس ويرتجف جسمي كله بدافع رغبتي في ان أضمها إلى صدري ضماً شديداً . ولا أظن اني سوف أنسى في يوم من الايام كم كانت عيناها جميلتين في الصباح الباكر عند اشراق الشمس تماماً . »

فاقترح جيتر :

— « لعلك تحبّ أن تأخذ إللي ماي معك إلى بيتك ، يا لوف ؟ فأللي ماي لا زوج لها ، ويبدو انها لن تحصل على زوج في يوم من الايام ، إلا إذا أحببتها أنت . لقد عانقتها وعانقتك ، وهصرتها وهصرتك ، أمام المنزل ، في مطلع الاسبوع الماضي . ولعلك تريد أن تقوم بمثل ذلك مرةً أخرى ؟ »

فسأله لوف :

— « إذا ذهبتُ إلى أوغوستا ووجدتها فهل تظن انها تسمح لي بأن أعيدها إلى المنزل ؟ هل تظن ذلك ، يا جيتر ؟ »

فقال جيتر :

— « من — بيرل ؟ لا ، أنا لا أنصحك بذلك . سوف تضيع ساعات عملك في مستودع الفحم بالبحث عنها . وكما قلت لك منذ البدء ، إن بيرل مثل ليزي بيل وكلارا وسائر

الفتيات تماماً . كانت فكرة الحصول على فساطين مخيطة على الزي الحديث تفقدهن عقولهنّ . وما كانت واحدة من بناتي تحبّ ان تلبس ثياب الشيت والثياب القطنية المخططة التي خاطتها إيدا . »

— « ولكن بيرل ... انها قد تصاب بأذىً ، هنـاك ، في أوغوستا . »

— « لقد انتبهت ليزي بيلّ وكلارا لنفسيهما انتباهاً حسناً ، أليس كذلك ؟ انهما لم تصابا بأذى على الاطلاق . والآن ، فلنعد إلى إللي ماي . في استطاعتك ان تأخذها إلى بيتك ، يا لوف . إنها لن تطمع بأكثر من الذهـاب إلى هناك ، والبقاء طول الوقت في المنزل . وهي لن تنام في يوم من الايام في حشيّة القشّ الملعونة المطروحة على الارض ، أيضاً . »

— « كان منظر تلك الغدائر الذهبية الطويلة المتدلية علـى ظهرها يحملني على البكاء في بعض الاحيان . وكنت احدّق إلى شعرها الجميل وإلى عينيها تحديقاً طويلاً جعلني أخشى ان أُجنّ إذا لم أمسّها أو أنظر إلى أعمـاق عينيها . ولكنها ما كانت تسمح لي بالاقتراب منهـا ، وهذا مـا جعل الدموع تسيل من عينيّ ، في ما أظنّ . لقد كنت أكثر الرجـال شعوراً بالوحدة ، في البلاد كلهـا ، ومنذ عهد طويل جداً . كانت بيرل جميلة جداً إلى حد يجعل عملها ذلك خطيئة من الخطايا . »

— « إن على إللي ماي أن تبحث عن رجل في مكانٍ ما . إنها لا تستطيع أن تبقى هنا العمرَ كله . فحين أموت أناً وإيدا فلن يكون هناك انسان يتولى أمرها . وإذا بقيت في هذا المنزل ، وحدها ، فعندئذ يستعد الزنوج ويأتون إلى هنـا بالعشرات . إنها سوف تقع تحت رحمة الزنوج إذا بقيت وحدها في هذا المكان . »

— « إن آخر هدية حملتها إلى بيرل كانت بعض الخرز الاخضر المنظوم في سلك طويل . لقد جئت به من أجلها ، فوضعته حول عنقها ، واقسم بالله انه جعلها أجمل فتاة صغيرة رأيتها أو سمعت بها في البلاد كلها . »

فقال جيتر :

— « إذا أردت أن تأخذ إللي ماي معك الآن فسأقول لها ان تتزين وتستعد للذهاب . »

— « قد آخذ إللي ماي فترةً من الزمان ، وقد لا آخذها . ولكني لا أزال أجهل ما الذي يجب ان أعمله في مسألة بيرل . ليتني أستطيع اقناعها بالعودة . »

— « إن إللي ماي لها .. »

فقال لوف :

— « إللي ماي لها ذلك الوجه البشع . لست أدري ما إذا كنت سأحب النظر اليها طول عمري . »

فقال جيتر :

— « لا بدّ أن تتعوده شيئاً بعد شيء . إن شفتها ما عادت تزعجني الآن ، لقد اعتدت النظر إلى ذلك الشرم ولم أعد ألحظه على الاطلاق . »

ونهض لوف واستند إلى البئر . واعتصم بالصمت فترةً طويلة ، وراح يجيل طرفه الشارد في غيضة الرتم . وراقبه جيتر ، وقطع بمديته عوداً صغيراً .

وكانت إللي ماي واقفة ، آنذاك ، خلف إحدى شجرات الازدرخت كانت قد انتقلت من واحدة إلى أخرى فيما كان لوف وجيتر يتجاذبان أطراف الحديث . وكانت قد



انتهت آخر الامر إلى مكان قريب يمكنها من سماع ما يقولان .

وفجأةً استدار لوف ونظر إلى إللي ماي . فأشاحت بوجهها محتجبةً خلف شجرة الازدرخت قبل أن يوفق إلى رؤيتها .

وقال :

— « صار ينبغي أن أرجع إلى المستودع . إن قطار الشحن على وشك أن يأتي ، وهو يستهلك دائماً جميع صناديق الفحم. يجب عليّ أن أعود واملأها قبل أن يأتي قطار المسافرين . إنهم يغضبون غضباً جنونياً حين يجدون الصناديق فارغة لأن معنى ذلك ان يبقى القطار منتظراً حتى أتمكن من تعبئتها . »

وانعطف هو وجيتر حول المنزل قاصدين إلى الفناء الأمامي . إن أحداً منهما لم يتذكر الجدة العجوز إلاّ عندما بصرا بها منطرحة على الرمل . كانت منبطحة على بطنها ، وكان وجهها مرضوضاً معفراً بالتراب ، ولكنها كانت قد تقدّمت بضعة أقدام نحو المنزل .

وقال لوف :

— « ماذا حدث لها ؟ »

— « لقد دهسها ديود وبيسي وهما يرجعان بالسيارة إلى الوراء ساعةَ غادرا المنزل . كانا يحاولان الفرار قبل ان أتمكن من ضرب بيسي مرةً ثانية ، فمشت الدواليب فوقها . لقد صرت أكره تلك المبشرة حتى الموت ، الآن ، ولن أدعها تضع قدمها على أرضي بعد اليوم . لقد عاملتني معاملة سيئة في ما يتعلق بركوب السيارة . إنها لم تسمح لي بأن أركبها على الاطلاق . »

وتقدّم لوف إلى حيث كانت الجدة العجوز ملقاةً على الرمل الابيض القاسي . كان الدم السائل من جرحها قد انقطع . ولم يكن يُسمع لها صوت .

وقال :

— « هي تبدو وكأنها ميتة . أهي ميتة ، يا جيتر ؟ »

وخفض جيتر بصره وحرك إحدى ذراعيها بقدمه :

— « إنها لم تتصلب بعد ، ولكني لا أظن انها ستعيش . ساعدني على حملها إلى الحقل ، ولسوف أحفر لها حفرة وأدفنها فيها . »

وحملا الجثة من يديها ورجليها ، ووضعاها في غيضة الرتم . ومضى جيتر إلى ما وراء عنبر الذرة يلتمس مجرفة .

وقال جيتر :

— « فكّرْ في ما قلته لك حول إللي ماي . سوف أبعث بها إلى منزلك ، في الوقت المناسب ، لكي تطبخ لك عشاءك هذه الليلة . إن إللي ماي لن تعاملك معاملة سيئة مثل بيرل. إنها لن تنام على فراش من قشّ مطروح على أرض الغرفة . »

وهبط لوف طريق التبغ عائداً إلى مستودع الفحم . لقد جرجر قدميه على طول الطريق ، مالئاً حذاءه بالرمل . ولم يلتفت إلى الوراء قط .

ومضى جيتر إلى الحقل حاملاً المجرفة ، وشرع يحفر قبراً يدفن فيه أمه . وظل يحفر نحواً من عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة ، ثم نادى إللي ماي ، وكانت واقفة في الفناء ، خلف إحدى شجرات الازدرخت ، منتظرةً ان يدعوها جيتر للذهاب إلى منزل لوف .

وقال لها وهو يتكيء مجهداً على ذراع المجرفة :

— « تزيني واذهبي إلى منزل لوف وقومي بشؤونه كلها . سوف يعود لتناول طعام العشاء الليلة ، فاطبخي له ما يطلبه منكِ . »

وانطلقت إللي ماي إلى المنزل قبل أن يتمكن من إتمام تعليماته اليها . إنها لم تستطع أن تنتظر فترةً أطول .

ورفع مقداراً إضافياً من التراب جاعلاً الحفرة أطـــول بعض الشيء .

وفي أقل من خمس دقائق خرجت إللي ماي من المنزل ، وراحت تعدو نحو الطريق . واطّرح جيتر المجرفة وانشأ يركض خلفها ويخاطبها صائحاً :

— « إرجعي إلى هنا في الصباح بعد أن يذهب لوف إلى العمل واحملي معكِ شيئاً نأكله ، هـل تسمعين ؟ إن لوف يكسب دولاراً كل يوم في مستودع الفحم ، وعنده طعام كثير لا يحتاج اليه . أنا وأمكِ ليس عندنا شيء هنا . نحن نجوع في بعض الاحيان . تذكري ذلك . »

كانت إللي ماي قد اجتازت الفناء كله عَدْواً ، وكـانت تنطلق نحو منتصف طريق التبغ ، بأقصى ما تستطيع من سرعة . وقبل ان يتمكن جيتر من أن يقول شيئاً آخر لها كانت قـد أمست على بُعد مئة ياردة . كان يريد ان يقول لها ان تأتيه في الصباح التـالي ، مـع الطعام المطبوخ ، بوزرة مـــن وزرات لوف أيضاً . ولكنها كانت تتعجّل الوصول إلى منزل لوف تعجلاً كبيراً فلم يشأ أن يؤخرهـــا . إن في استطاعتها أن ترجع مرةً ثانية ، بعد غد ، وفي يدها تلك الوزرة .

١٩

لقد انقضى موسم الحراثة ، وطوال الاسبوعين الاخيرين من شباط كان الجو جافاً ، وكانت التربة سهلة التفتت . ولم يعرف الناس في مدى ست سنوات أو سبع سنوات موسماً أكثر ملاءمة للحرث والزرع من ذلك الموسم . ففي مثل ذلك الوقت من كل عام كان من عادة السماء أن تمطر كلّ بضعة أيام ، فاذا الارض رطبة مبلّلة على نحو موصول . أما هذه السنة فقد بدأ الموسم في منتصف شباط بسماء صافية ، وهبّتْ نسائم عليلة فعملت على تجفيف التربة منذ انقطعت أمطار الشتاء عن التهطال .

وكان مزارعو فولر المعتزمون انتاج القطن هذه السنة قد أنجزوا حراثة أراضيهم في أواخر الشهر . وفي مثل هذه البداءة المبكرة أمّل الناس أن يعطيهم كل أكر من الارض بالةً من القطن ، حين يُقبل الخريف ، شرط ان يظل الجوّ حاراً خلال موسم النماء . وكان جميع المزارعين يغذّون الارض بكل ما استطاعوا شراءه من سماد الطير ، ولم يكن ثمة حدٌّ لعدد

أرطال القطن الـتي يمكن للأكر الواحد أن ينتجها إذا استطاعوا شراء مقـادير من السماد الكيميائي ، واستعملوها في سخاء . وكان استنبات بالة من كل أكر هو أقصى ما يطمع فيه مزارعو القطن في منطقة فولر . ولكن دودة القطن وأمطــار الصيف الغزيرة كانت تتلف ، عادةً ، نصف المحصول . ومن ناحية ثانية ، فلو قد كان الموسم خصباً ، فعندئذ ينزع السعر إلى ان يهبط عما كان عليه من قبل . ولم يكن هناك كثيرٌ من الناس يحبون ان يشتغلوا طول السنة ليبيعوا القطن ، عند الخريف ، بستة سنتات أو سبعة سنتات .

وسلخ جيتر موسم احراق الرتم وشجيرات الصنوبر ، وموسم حراثة الأرض من غير أن يأتي عملاً ما . ولم يكن الاوان قد فات بالكلية ، ولكن جيتر لم يكن عنده بغل ، ولم يكن ثمة من يكفله فيشتري بزر القطن وسماد الطير من مخــازن البلدة . وكان قـد عاش ، حتى تلك السنة ، على رجاء ان يحدث شيء في اللحظة الأخيرة يزوّده بالبغل الذي يريد وببزر القطن وسماد الطير . أما الآن فقد بدا له ان من العبث الاعتقاد بأمكان الحصول على شيء من ذلك بعد اليوم . كان لا يزال في استطاعته ان يتطلع إلى السنة الجديدة آملاً ان يزرع محصولاً من القطن ، ولكنّ هــذا الأمل انتهى إلى أن يكون أقـلّ اتقاداً من ذي قبل . لقد استشعر انه ينحدر من سيء إلى أسوأ ، عاماً بعد عام ، حتى لقد بلغت ثقته بالله وبالأرض ، الآن ، تلك المرحلة التي يفقد فيها المرء عقله وروحه إذا ما مُني بخيبة أمل جديدة . وكان لا يزال عاجزاً عن ان يفهم لمـاذا كان معدماً لا يملك شيئاً ، ولن يملك شيئاً . ولم يكن ثمـة أحدٌ

يدري أو يستطيع أن يُفهمه . كان ذلك لغز حيـاته المستعصي على الحل .

ولكن حتى ولو لم يستطع ان يزرع شيئاً من القطن تلك السنة ، ففي ميسوره أن يُعد العدة لذلك على الاقل . في ميسوره ان يحرق الرتم وغياض السنديان الأسود وشجيرات الصنـوبر الغضة . في ميسوره ان يُعدّ الارض للحراثة لعلّ أمراً ما قد يحدث فيمكنه من أن يزرع بعض القطن . يجب ان يُعـــدّ الارض ، فلعلّ ...

وكان ذلك في ساعة متأخرة من الاصيل في اليوم الاول من شهر آذار . لقد اجتاز حقل القطن القديم ، وسط شجيرات الرتم المرتفعة إلى خصره تقريباً ، موجهاً وجهه نحو غيضـة السنديان الاسود القائمة في مؤخرة المنزل . وراح يرفس بقدميه التربة السريعة التفتت البـادية للعيان بـين باقات الرتم ، قائلاً في ما بينه وبـين نفسه إنه لا يزال ثمـة فسحة لاقتراض شيء من بزر القطن وسماد الطير من بعض المحـالّ التجارية في فولر. كان يعلم ان ميقات التحريق والحراثة قـد انتهى امس ، ولكن شيئاً من الموسم الجديـد لا يزال متخلفاً في هواء آذار الحارّ . وكانت ريّا التربة المحروثة منذ قريب وعبير دخان الرتم والصنوبر لا يزالان يرفان على وجه الارض حتى بعد انقضاء أعمال الاحراق والحراثة . وأخذ نفساً عميقاً ، مالئاً رئتيه من روائح النبات العطرية المحيية .

وقال :

— « لعلّ الله ان يهيء لي وسيلة تمكّنني من أن أزرع محصولاً من القطن . إنه هو الذي خلق الأرض ، والشمس ،

والمطر ... فينبغي ان يبعث إليّ ببزر القطن وسماد الطير بطريقة من الطرق . »

واعتقد جيتّر اعتقاداً جازماً بأن شيئاً لا بدّ ان يحدث فيساعده على أن يبقي جسده وروحه على قيد الحياة . إنه لمّا يقطع الرجاء بعد .

كانت شمس الأصيل الجانحة إلى الغروب لا تزال دافئة ، وكان الهواء عليلاً . ومنذ أسبوع تقريباً لم يشهد الناس أيّ ليلة من الليالي الباردة . ولقد صار في ميسور الناس الآن ان يقعدوا ، عند هبوط الليل ، على الشرفات أو السقائف الامامية ، من غير ان يستشعروا برودة هواء شباط في الامسيات .

كانت النسائم تهبّ من جهة المشرق . وكان الدخان الأبيض المنبعث من نار الرتم ينعقد مرتفعاً إلى أعلى فتحمله النسائم في اتجاه المغرب ، قبالة البيت وطريق التبغ ، بحيث كان في ميسور جيتّر ان يراه . ووقف جيتّر يراقب الدخان الابيض وهو يبتعد عنه في تؤدة ، ويشهد النار وهي تزحف على الارض تحت شجيرات الرتم الأسمر . كان ثمّة عدة مئات من أكرات الأرض يجب ان تُحرق ، وكانت الحقول التي لم تُحرث منذ مدة طويلة — بلغت بالنسبة إلى بعضها عشر سنوات ، وبالنسبة إلى بعضها الآخر خمس عشرة سنة — مغطاةً بالعشب اليابس . ووراء الحقول كانت غابات الصنوبر الجيورجي الاصفر ، والسنديان الاسود . ومن الجائز ان تضطرم النار وتشتعل من غير دخان ثلاثة أيام أو أربعة قبل أن تخمد هناك ، على جنبات الجداول البعيدةُ



وقال جيتر :

— « لو كان توم وبعض أولادي الكبار هنا لكان من الممكن أن يساعدوني في الحصول على شيء من بزر القطن وسماد الطير بطريقة من الطرق . أنا أعرف من أين أستعير بغلاً لو كان عندي بزر القطن وسماد الطير . ولكن البغل لا يفيدني شيئاً بدون سائر الاشياء . ولن يطلع في الاثلام الجديدة شيء غير الرتم وغير بعض النبتات الصغيرة من السنديان الاسود . »

وانقلب إلى منزله ليقعد فترةً على درجات السلّم الخلفية قبل ان يأوي إلى الفراش ، وليراقب خط النار الاصفر الطويل في غيضة الرتم .

وكان الليل قد هبط منذ فترة طويلة عندما دخل إلى المنزل . ومن نافذة حجرة النوم حيث وقف يخلع نعليه الثقيلين ، راقب جيتر ، في افتتانٍ وذهول ، النار البعيدة التي أحالها هبوط الليل حمراء لاهبةً . كان جزء منها قد سما إلى ما فوق التلال فليس يُرى منه غير الوهج البرتقالي الباهت الذي يضيء السماء . وكان جزء آخر منها قد تحلّق حول الحقول مثل افاعٍ محاصرة لا تجد سبيلاً إلى الفرار ، واشتعل على جانبي البيتَ الاثنين . وفي الوسط ، حيث وقف في ذلك الاصيل واشعل عود الثقاب ، كان في الارض ثقب مظلم عميق . ولسوف تظلّ الارض سوداء حتّى تعاودها السماء بمطر جديد .

واستلقى في فراشه ، بعد أن نامت إيدا ، فترة طويلة لم تغتمض فيها عيناه . كان الهدوء مخيماً على المنزل بعد أن لم يعد ثمة شخص آخر يشاركهما الاقامة فيه .

وتقلّب جيتر . واستدار وقد استروح عبير دخان الصنوبر

والرتم في نسيم الليل . وفي الوقت نفسه ، انتهت اليه رائحة الارض المحروقة حديثاً من مكان غير قريب . فرفع بصره إلى السقف الأسود وأقسم في وقار وخشوع لينهضن صباح اليوم التالي ويستعيرن بغلاً من البغال . كان يعتزم ان يحرث قطعة صغيرة من الارض ويزرعها قطناً ، إذا لم يُقدّر له أن يعمل أيّ شيء آخر بقية عمره .

واستسلم للنوم عندئذ وذهنه حافلٌ بالافكار الدائرة حول أرضه وعبيرها الزكي ، وبعزم جديد على ان يثير التربة ويستنبتها شيئاً من القطن .

واشتعلت النار متقدة طوال الليل . وامتدت أكثر فأكثر في اتجاه الغرب حيث نمت شجيرات الصنوبر الغضة ، واضطرمت خلال غيضة السنديان الأسود تاركة شجراتها قائمةً سوداء محترقة نصف احتراق . لقد امتنعت على الموت ، أما الصنوبرات الغضة فلم تمتنع .

وكان الضحى قد أخذ يرتفع ، من ناحية المشرق ، وانحرفت الريح نحو الشمال ، سائقةً آخر نسمة من نسمات الليل قبل طلوع النهار . وأمدّت الريح تلك النار المضطرمة في الرتم القائم عند جانبي البيت بعزم جديد ، وردّتها إلى الوسط حيث بدأت من قبل . حتى إذا بلغت تلك النقطة التي انتهى عندها الرتم قرب حافة الارض المسودّة ، خمدت جذوتها . وفي الوقت نفسه ، جاء دور الحقول المحيطة بالمنزل من كل جانب ، في الاحتراق . وبعدئذ لن يبقى من طعام للنار غير الارض المترامية هناك ، في الغابات وعلى التلال حيث ارتفع الدخان الازرق وألسنة النار الحمراء فوق رؤوس الاشجار .

وإلى جانب المنزل امعنت نيران الرتم في الارتفاع بعـد ان أذكتها نسائم الصباح الباكر . واقتربت من المنزل أكثر فأكثر ولم يعد يفصلها عن البناء غير رقعة ضيقة من الارض الرملية . ولو ان ريحاً قويةً أدركت النـار في اللحظة الـتي اشتعلت فيها أعظم اشتعال اذن لـكانت خليقـة بأن تعصف بجمرات العشب وتذروها على البيت ، من تحته ومن فوق سطحه .

حتى إذا أشرقت الشمس أذكت الريح النار ، وأدارتهـا عبرَ العشب اليابس . وأُمطِر البيت بسُوق العشب المشتعلة الـتي اجتثتها الريح ، وكان بعضها يخمد بعد ان تأتي النار عليه ، وبعضها يترك جذوة متوهجة مطمورة تحت الالواح الخشبية الجافة السهلة الاشتعال الـتي غطت المنزل طوال خمسين عامـاً أو تزيد . وكانت في السطح شقوق حيث عبثت رياح الخريف القوية بالالواح الاكثر اهتراء فاقتلعتها وقذفت بها إلى بعيد . وفي تلك الشقوق انتشرت الجمرات انتشاراً سريعاً .

وكان من عادة جيتر وإيدا أن يستيقظا مع الشمس . وها قد حان موعد ذلك الآن . بيد أن أياً منهما لم يتقدم إلى النافذة ، أو يفتح الباب هذه المرة . كانا كلاهما غارقين في النوم .

وما هي إلا فترة حتى غدا السطح الاحمر الناري كتلة من الجمر عاصفةً منهمرة . واشتعلت الالواح الجافة التي أبلاهـا مطر الخريف والشتاء ، وشوتها شمس الربيع والصيف طوال جيلين اثنين — اشتعلت كالفحم الحجري في الكور . وفي بضع ثوان كانت ألسنة النار قد اندلعت في السطح كله ، ولم تبق غير دقائق حتى تتداعى العوارض الخشبية الجافة القاطرُ منهـا زيت الصنوبر وتسقط على أرض البيت وفوق السرر . وبعد نصف

ساعة من اشتعال السطح انتهى المنزل إلى أن يصبح ركاماً من الرماد الاسود الداخن . ولم يدرِ جيتر وإيدا ما الذي حدث .

وكان عدد من المزارعين المجاورين قد رأوا الدخان وألسنة النار فيما كانوا ينهضون من رقادهم مع الشمس المشرقة . وسارع معظمهم إلى طريق التبغ ، واجتازوا الحقول إلى بيت ليستر وفي نيّتهم أن يساعدوا على إنقاذ شيء من الاثاث . ولم يدركوا مدى السرعة التي احترق بها البيت ذو العوارض الصنوبرية القاطر منها الزيت إلاّ بعد أن انتهوا اليه .

وكان عشرون أو ثلاثون رجلاً واقفين حول الرماد حين وصل لوف وإللي ماي ثم بيسي وديود إلى المكان . كان كل شيء قد انتهى ، ولم يكن ثمة ما يمكن إنقاذه . كانت سيارة جيتر العتيقة قد أمست ركاماً من حديد محطم صدىء اللون .

وأمسك بعض الرجال بعيدان طويلة من السنديان الاسود وراحوا يقلّبون كتل الرماد رجاةَ ان يعثروا على الجثتين فيخرجوهما قبل أن تأتي عليهما النار . ولكن حرارة الرماد صدّتهم جميعاً فترة من الزمان .

وقالت بيسي :

— « لقد أنزل الله لعنته على هذا المنزل . إنه لم يُرد له ان يظل قائماً مدةً أطول . المجد لله ! »

ولم يُلقِ أحدٌ بالاً إلى بيسي .

وقال أحد المزارعين :

— « جيتر هو اليوم أسعد حالاً مما كان . كان يجوع حتى الموت معظم أيام عمره ولم يكن قادراً على زرع شيء من

القطن . يخيّل إليّ انه كان على أولاده ان يبقوا في أرضهم ويساعدوه على زرعها . »

وكان أول ما خطر في بال لوف عند رؤيته الرماد الداخن توسلات جيتر الحارة الشبيهة بالصلاة ، حول ضرورة العناية بجسده بعد الوفاة . ولكن ذلك لم يعد له أهمية الآن ، لأن النار لم تُبق من ذلك الجسد غير القليل .

حتى إذا برد الرماد بعض الشيء ، تقدّم الرجال ، وأخرجوا الجثتين ، ومدّدوهما تحت شجرة الازدرخت القائمة إلى جانب الطريق . كانت أغصان تلك الشجرة الخضر قد احترق ظاهرها ولكنها كانت بعيدة عن البيت إلى درجة صانتها من الاشتعال . أما سائر شجرات الازدرخت التي في الفِناء فكانت أقرب إلى البيت ، فاشتعلت في سرعة تكاد تعدل تلك التي اشتعل البيت فيها .

وفي الحال اتخذ القوم الاستعدادات لحفر القبر . وخلف عنبر الذرة المنتفخ المحترق الظاهر ، وجد الرجال معولاً ومجرفتين أو ثلاثاً محترقةً بعض الشيء ، مكسورة المقابض ، وسألوا لوف أين يريد أن يحفروا القبر . وقرّروا أن يحفروه في غابة السنديان الأسود ، حتى إذا اعتزم أحد ان يفلح الارض في تلك السنة ، أو في السنوات التالية ، لم يكن ثمة خطرٌ من أن يُحرث القبر في وقت قريب .

وشق الرجال القبر ، وحملوا رفات الجسدين ممدّداً على ألواح من السنديان الاسود ، إلى الغيضة . ثم إنهم انزلوا الجثتين إلى باطن الارض . وسأل بعض الرجال بيسي ان تتلو صلاة قصيرة قبل ان يحثوا التراب عليهما ، ولكنها رفضت

ان تقول شيئاً من أجل جيتر أو إيدا ، وعندئذ لم يبق غير حثو التراب على الجثتين وتسوية الرمس بأعقاب المجارف .

وأسرع معظم المزارعين إلى بيوتهم لتناول طعام الصباح . كان كل شيء قد انتهى وليس ثمة شيء آخر يعملونه .

وقعد لوف قرب شجرة الازدرخت المتوحدة وانشأ يتأمل كتلة الرماد الضاربة إلى السواد . ومكثت بيسي وديود لحظة أيضاً . كان عليهما ان يُعنيا بأمر لوف . وكانت إللي ماي تحوم حول المكان ، مراقبةً المشهد ، ولكنها لم تقترب قط إلى نقطة يستطيع لوف أو أيّ امرئ آخر ان يراها منها .

وقال لوف :

— « أحسب ان جيتر العجوز انتهى أحسن نهاية ممكنة . كان يقتل نفسه طولَ الوقت بالتفكير في زرع شيء من القطن. ذلك كان كل ما أراده في حياته — فقد كان زرع القطن أحسن شيء عنده في العالم . واظن انه لم يبق هناك كثيرٌ من أمثاله . فمعظم الناس اليوم لا يهتمون بشيء غير الحصول على عمل في بعض مصانع القطن . ولكنهم لا يستطيعون كلهم ان يشتغلوا في المصانع ، فعليهم أن يبقوا هنا مثل جيتر حتى اللحظة التي يُؤخذون فيها ، هم أيضاً . إنه ليس من العقل ان يفكروا بزرع المحاصيل . فليس في استطاعتهم ان يكسبوا أيّ مال من ذلك ، بل ليس في استطاعتهم ان يكسبوا مجرد القوت . ولو انهم أنتجوا شيئاً من القطن لجاء بعض الرجال إلى هنا وسلبوهم إياه . ويبدو لي وكأن الرب لم يعد يهتم بأن يُزرع القطن كاهتمامه السابق ، وإلا لكان أكثر مساعدةً للفقراء . إن في استطاعته ان يجبر الاغنياء على ان يعيروا الفقراء أموالهم بدلاً

من أن يحبسوها . ولا أستطيع أن أتصور كيف استولوا على جميع المال الذي في البلاد ، على كل حال . يبدو لي ان من الواجب ان يُوزع بالتساوي على جميع الناس . »

وبحث ديود وسط الرماد رجاةَ أن يجد فيه شيئاً ، ولم يكن في المنزل أيّ شيء ذي قيمة ، ولكنه أراد أن يقلّب الرماد ويخرج منه صحون المطبخ الصفيحية الملتوية ، وتفاحات الباب الخزفية . وكانت هناك تلك الدواليب الحديدية الصغيرة الباقية من السُرُر الخشبية ، وقد احترقت احتراقاً طفيفاً وعلت صفحاتها قشرة لامعة ، وبعض المسامير والبراغي . وكانت بقية الاشياء التي حواها المنزل مصنوعة كلها تقريباً إما من الخشب أو القماش .

وقال لوف :

— « لقد تحققت أمنية من أمنيات جيتّر . إنها لم تتحقق كاملةً ، ولكنها تمت بطريقة من الطرق كما أراد ، على كل حال . كان يقول لي انه لا يريدني أن أغلق عليه باب عنبر الذرة ثم أمضي تاركاً إياه ، عندما يموت . إن ذلك هو ما وقع لابيه من قبل . فعندما مات أبوه حمله جيتّر والرجال الذين اجتمعوا حول جثمانه إلى عنبر الذرة وأغلقوا عليه الباب ليلاً ريثما يذهبوا إلى فولر ليجلبوا شيئاً من التبغ والشراب . لقد وضعوه في العنبر لكي لا يصيبه شيء أثناء غيابهم . وعندما راحوا يدفنونه في اليوم التالي وثبت فأرة كبيرة من التابوت . كانت قد قرضت النعش ودخلت اليه حين أُغلق باب العنبر على الجثمان وكانت قد أكلت عنق ليستر العجوز وجانباً كاملاً من وجهه . وكان ذلك هو ما خاف جيتّر أن يحدث له ، وكان

يسألني ان أعاهده مرتين أو ثلاثاً في اليوم على ان لا أغلق عليه باب العنبر حين يموت . ولم يكن في حاجة إلى ان يقلق على هذه الصورة لأن العنبر لم يعرف أيّ فأرة منذ عدة سنوات ، إلا في بعض الاحيان عندما كانت الفيران تعود إلى هناك لترى ما إذا كان قد وُضع فيه شيء من الذرة . »

فقالت الاخت بيسي :

— « أنا لا أظن ان الرب أحبّ جيتّر كثيراً . ولا اشك في انه كان في شبابه آثمـاً كبيراً ، لأن الرب لم يكن كريمـاً معه كما كان كريماً معي . إن الرب يعرفنا كلنـا معرفـةً جيدة . إنه يعرف متى نكون صالحين ومتى نكون ضحيـة الشيطان . »

فقال لوف :

— « حسناً ، هذا لا يقدّم ولا يؤخر الآن . لقد مـات جيتّر وانتهى ، ولن يشغل باله بعد اليوم بالرغبة في حراثة الارض وزرع القطن . ذلك مـا كان يحبّ أن يفعله أكثر من أيّ شيء آخر ، ولكنه لسبب من الأسباب لم تسنح له الفرصة للقيـام بذلك كثيراً . ولا شك في ان جيتّر كـان يفضل مئة مرة أن يزرع محصولاً كبيراً من القطن على ان يدخل الجنة . . »

— « لو ذهب إلى أوغوستا واشتغل في مصـانع القطن كما عمل سائر النـاس لكان في حـال جيدة . فعندما لا يجد الرجل من يقدّم اليه البزر والسماد بالدّين فلـن يكون في استطاعته أن يكسب المـال إذا أصرّ مثـله على البقـاء في مزرعته . »

فأجابها لوف :

ــ « أظن أن جيتر كان على صواب . فقد كان رجلاً يحب أن يُنبت بعض الاشياء في الارض . والمصانع لا تصلح محلاً لرجل تجري تلك الرغبة القوية في دمائه . فالمصانع تشبه السيارات بعض الشبه ــ إنهـا صالحة لقضاء فترة من الوقت يلهو فيها الانسان ، ولكنها لا تزوّده بالحُب الذي تغدقـه الارض عليه . فالارض تسهر بشكل من الاشكال على مصلحة الناس الذين يُبقون أقدامهم فوقها . وحين يقف الناس طول الوقت على الالواح الخشبية المنصوبة في الابنيــة ويمشون في الشوارع المفروشة بالاسمنت فعندئذ تفقـد الارض اهتمامهـا بالانسان . »

وخرج ديود من وسط الرماد ، نافضاً الذرات السود عن حذائه ووزرته . ثم انه قعـد على الارض وحدّق إلى المدى من غير أن ينطق بكلمة ... وكانت إللي ماي لا تزال تحوم في ناحيــة بعيدة ، وكأنمـا كانت تخشى أن تقترب من رماد [illegible]

وقال لوف :

ــ « وفوق ذلك ، فأن إيدا لم تفز بثوب جديد على الزي الحديث تُدفن فيه . لقد كنت أرجو ، على شكل من الأشكال، أن تفوز بذلك أيضاً . هذا شيء مؤسف ، ولكنه لا يقدّم أو يؤخر الآن . لقد احترق ثوبها العتيق وهو على جسدها ، ودُفنت كما خلقها الله تماماً . ومن يدري ، فلعل هذا أفضل من لبس الثوب على الزي الحديث . ولو انهـا ماتت بسبب الشيخوخة ، أو أي شيء مثل ذلك ، لمـا كان عندها ثوب

على الزي الحديث ، على كل حال . وعندئذ كان يتحتّم علينا ان ندفنها في الثوب العتيق الذي تلبسه . وعندي ان هذه الميتة قد ناسبتها . فهي لم تدر انه ليس عندها ثوب على الزي الحديث تدفن فيه . ولم يعد لطول الثوب ، وكونه ملائماً أم لا ، أية أهمية على الاطلاق . »

ولم يشر أحد بكلمة إلى الجدة العجوز ، ولكن لوف كان سعيداً بموتها في اليوم السابق . فلم يجد أن من الحق أن تُدفن جثتها في قبر واحد مع جيتّر وإيدا ، بل لم يجد من الحقّ أن تُدفن وإياهما في الحقل نفسه . فقد أبغضاها إلى درجة جعلت وضع جثتها إلى جانبهما نوعاً من الاستغلال لموتها . وكانت قد عاشت في البيت ، مع جيتّر وإيدا ، دهراً طويلاً انتهى بها إلى ان لا تُعتبر أكثر من مصراع نافذة ، أو لوح من ألواح الخشب . ولكن من الانصاف لها ان يقال – كذلك فكّر لوف – انها لم تتشكّ يوماً المعاملةَ التي عوملت بها . وحتى في حالات جوعها أو مرضها ، لم تندّ كلمة واحدة من بين شفتيها . لقد عاشت مع جيتّر وإيدا فترةً متطاولة أقنعتها بأن الاحتجاج عبث غير مجد . ولو انها قالت شيئاً ، إذن لكان جيتّر (أو إيداً) خليقاً بأن يضربها بجمع كفّه فيطرحها أرضاً .

وسبق ديود الجماعة كلها إلى امتطاء السيارة ، وتبعته الاخت بيسي على جناح السرعة . وانتظرا لوف ليصطحباه إلى منزلهما ويعدّا له طعام الصباح . حتى إذا اتخذ مكانه على المقعد الخلفي أقبلت إللي ماي فجلست إلى جانبه . وقاد

ديود السيارة مبتعداً عن الفناء ، واستدار هابطاً طريق التبغ في اتجاه مستودع الفحم المسودّ ، والنهر الاحمر الموحل .

وفي الحال ، تقريباً ، شرع ديود يقرع الزمور .

وحين انتهوا إلى قمة التلة الأولى تلفّت ديود وألقى نظرة على بيت ليستر من خلال الستارة الخلفية . كانت المدخنة الآجرية الطويلة التي ما تزال قائمة ، وقد علاها السواد ، وبدت أشبه شيء بشاهد قبر ، هي كل ما استطاع أن يراه .

ورفع ديود يده عن زر الزمور ونظر إلى لوف .

وقال ديود :

— « من رأيي أن أستعير بغلاً من مكان ما ، وشيئاً من بزر القطن وسماد الطير ، وأزرع محصولاً من القطن هذا العام . يُخيّل إليّ ان موسم القطن هذه السنة سوف يكون طيّباً . ولعلي أستطيع أن أجني بالة من كل أكر من الارض كما كان أبي يودّ دائماً ان يفعل . »

انتهت



عن الكتاب والكاتب

• « إسمع ، يا لوف ، ما هكذا يتحدث الناس . إن عيني لم تقع على قرص لفت جيد منذ عام كامل . كل أقراص اللفت التي أكلتها كانت تعج بتلك الديدان الملعونة ذات الأمعاء الخضر ، وأنا على ثقة من أني أحبّ أن أحصل على بعض اللفت الجيد الآن . إن الأقراص المدودة ، كالتي أكلتها من قبل ، لا تصلح طعاماً للبشر ... إسمع يا لوف . أنت تعرف أني لا أملك فلساً ، وأني لا أدري من أين أحصل على المال . إن عندك وظيفة طيبة تقدم إليك كومة من المال ، فينبغي أن تعقد معي صفقة حتى يكون عندي شيء آكله ، ولا أجوع حتى الموت ... »

• بهذا الأسلوب السلس النابض بالحياة يصور أرسكين كالدويل حياة المعذبين في الأرض ، هناك على طريق التبغ بولاية جورجيا الأميركية ، في هذه القصة الخالدة التي تُرجمت إلى معظم لغات العالم ومثلت على المسرح وأخرجت على الشاشة وبلغ عدد النسخ التي طبعت منها في الولايات المتحدة خمسة وعشرين مليون نسخة .

• أما أرسكين كالدويل فأحد عمالقة القصة المحدثين ذوي النزعة الإنسانية . وُلد سنة ١٩٠٣ وعمل قبل أن يلمع نجمه في سماء الأدب لاعب كرة محترفاً ، وحاصد قطن ، وميكانيكياً ، وخادم مقهى ، وطاهياً ، وصحفياً .

